

خلف أسوار الحرمك



عائشة عبد العزيز الحشر



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 9953-87-055-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

التتصيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

- 1 - الإهداء..... 7
- 2 - مقدمة..... 9
- 3 - مواقف قديمة تتجدد..... 13
- 4 - لماذا تدنت مكانة المرأة..... 17
- 5 - اجترار التراث..... 43
- 6 - مجرد أسئلة..... 59
- 7 - من وراء الأسوار..... 69
- 8 - العنب المحرم..... 89
- 9 - هل جاء الإسلام من أجل الرجل فقط؟..... 97
- 10 - القوة والضعف (تأملات)..... 123
- 11 - باب ما جاء في اجتزاء النص ليتوافق مع هوى النفس..... 131
- 12 - نساء الجنوب والهرولة إلى الخلف..... 137
- 13 - ورع انتقائي..... 165
- 14 - عمل المرأة..... 171
- 15 - قسم الـ "حریم"..... 179
- 16 - تعليم البنات..... 185
- أ - المنهج..... 218
- ب - المعلمة..... 223
- 17 - إصلاح التعليم..... 233
- 18 - دور الإرشاد في التربية..... 237
- 19 - أين يمكن أن نتعلم الحرية..... 243
- 20 - الخاتمة..... 247

الإهداء

إلى خالد

زوجي الحبيب

آمنت بي "إنسانة"

وقلت لي: إن لم تقولي ما يجب فقولني ما يمكنك قوله.

مقدمة

أحاول في هذا الكتاب أن أسجل ما حدث ويحدث داخل المجتمع النسائي، وأن أتلمس ضمن ما أكتبه الأسباب التي جعلته بالصورة التي هو عليها مضيئة بين صفحاته بعض المواقف التي مررت بها في مجال تعليم البنات والذي قضيت فيه عشرين عاماً حتى الآن.. وما دمنا لا نزال نناقش قضية المرأة بينما هي قضية محسومة في الوعي الإنساني خارج مجتمعنا عفا عليها الزمن فإني أحاول أن أكون موضوعية إلى أقصى درجة أستطيعها. ولعلي بما أكتبه أكون قد أضأت بعض الأماكن التي وبفعل الأسوار الشاهقة ظلت معتمة وستظل كذلك إلى أن يرى الناس أن للمرأة حق في الحياة لا يقل عن حق الرجل فيها.

أستطيع قبل أن يصل الكتاب إلى أيدي الناس تصور ردود الفعل المتباينة فدائماً في مجتمعنا هناك عدد لا بأس به ممن يرون أن أي مطالبة للمرأة بحقوقها في أي شيء خروج عن الدين. وكأن الدين هو الظالم للمرأة والعياذ بالله، وهم فقط ينفذون ما أتاهم من الله. إنها جرأة رهيبية وعجيبة. جرأة على الله تعالى أن يظن بعض البشر أنه يظلم الناس أو أحد من الناس. وجرأة في البحث عن تبريرات لذلك الظلم وكأنهم يتلمسون الأعذار ويبررون المواقف التي زعموا أنها وفق ما أمر به الله تعالى. وسيرددون كما يفعلون دائماً: الإسلام كرم المرأة.

نعم كرم الإسلام النساء، ووضع القوانين التي تحميهن وتحافظ على إنسانيتهن، وأوصى الرجل بالمرأة لأنها في مجتمعات عديدة لا تزال ومنذ تلك العصور الغابرة إلى الآن إما عند أب أو مع زوج أو

تتنقل بينهما. ولم تكن المرأة ذات يوم ومنذ ما قبل الإسلام وإلى سنوات لا أدري عددها ستأتي، لم تكن في بلادنا وفي مساحات أخرى واسعة من الكرة الأرضية مستقلة في حياتها أبداً. إذاً.. الإسلام ليس هو المتهم.. ليس هو المتهم.. وليست القضية في هذا الكتاب عن تكريم الإسلام للمرأة. فكلنا كمسلمين متفقون على أن الإسلام كرمها. وإنما القضية هي مخالفة مجتمعنا للإسلام مخالفة فجحة وواضحة من حيث اعتقد البعض بأنه يطبق الإسلام كما جاء، ومن حيث زعموا أن ما يفعلونه بالنساء هو ما أمر به الله تعالى. وسوف أورد بعض الأدلة من الآيات والأحاديث الصحيحة وليس الكثير منها. لتذكر بعض القراء بالموقف الحقيقي للدين من كل ما يحدث. مع أن القرآن وكتب الحديث تظل تزخر بالنصوص التي تؤكد موقف ديننا الحنيف من النساء.

وبرغم ما يتضمنه الكتاب من وصف للعلاقة بين الرجل والمرأة في مواقف مختلفة إلا أن جل ما تناولته ينصب على وضع النساء القائم. وأرى أن وجود عدد من السعوديات اللواتي استطعن الشذوذ عن القاعدة والخروج عن المألوف فتفوقن في مجال من المجالات وتناولهن الإعلام ليثبت من خلالهن تغيير وضع المرأة أقول - هن الشذوذ الذي يؤكد القاعدة - حيث إن للعامة أعرافهم وقوانينهم الاجتماعية وتفكيرهم الخاص الذي لا ينطبق على من استطاعت الوصول إلى شهرة معينة أو تفوق ما في مجال من المجالات. وإذا درسنا أحوال أولئك النسوة اللواتي تحدين الصعاب وتجاوزن المعوقات ونبغن في مجال معين فسنجد أن معظمهن من عائلات تختلف في تعاملها مع المرأة عن المألوف. ولا تخضع لكل ما تعارف عليه الناس في بلادنا بخصوص النساء. أضيف إلى هذا وجود بعض التفاوت في التعامل. إذ إن ما تراه قبيلة من القبائل عيباً. قد يكون في عرف قبيلة

أخرى مقبولاً أو ربما مستحباً. وهذا ما يجعلني أتناول ما هو سائد بشكل أكثر وأتجنب الخوض في عادات خاصة جداً بفئة قليلة من الناس. فإذا قلنا مثلاً إن بعض النساء لا زالت تحفي وجهها عن زوجها ببرقعها داخل منزل الزوجية إلى اليوم - وهذا يحدث فعلاً عند بعض القبائل - أقول: هذا شأن خاص بفئة معينة ولا ينطبق على الأغلبية.. وكما أتي قلت إن المتميزات جداً غير معنيات بما سأكتبه هنا، فإن ذوات العادات الخاصة جداً مستثنيات مما سأكتب أيضاً.

من أكتب عنهن موجودات في أطراف المدن الكبيرة وفي قلب المدن الصغيرة. وموجودات في القرى الكثيرة حول تلك المدن. إنهن في المجتمع الذي يشكل التعصب واللاتسامح الصفة الأساسية فيه. وتشكل النظرة الدونية للمرأة والارتباب منها أو في أحسن الأحوال الخوف عليها أمراً طبيعياً.

ولأن التنمية (بكل مستوياتها) لا تزال بيد الرجل فإني أرى أن معرفته بعالم المرأة ضرورة قصوى. إذ إن الكتابة بشكل موضوعي يسلط الضوء أكثر على هذا الجانب المخفي عن أعين المسؤولين والمهتمين بالمواطنات كاهتمامهم بالمواطنين، ويساعد على معرفة قدرات النساء على بناء المجتمع الذي يتضمن المرأة والرجل معاً إن كنا على يقين أنها مواطنة مثله لها ذات الحقوق على أرض وطنها.

عندما بدأت أكتب في هذه الصفحات فكرت في المجتمع بعد عشرين سنة من الآن وتساءلت حول رأي من سيقع بين يديه الكتاب بعد مرور كل هذه السنوات، هل سيرى أننا كمجتمع كنا متخلفين جداً لا نخفل كثيراً بحقوق المرأة، بل لا نسمح لها بالتحدث حول حقوقها بشكل واضح وصادق وعميق؟ أم سيظل يرى ما يراه

أهلـه الآن؟ ومعنى آخر. هل سنكون بعد عشرين عاماً قد قطعنا أشواطاً في الإنصاف وترك الظلم أم سنكون كما نحن الآن نبرر الظلم ونجزم بحق الظالم فيما يفعل؟

التنبؤ بالمستقبل ربما يكون من أصعب ما يقوم به الإنسان في شرقنا كله. فالأمور لا تسير بشكل طردي دائماً وفقاً لمقدماتها. إذ من الممكن أن تحدث ردة اجتماعية في بعض القيم الإنسانية مما يعني تبدل الأوضاع إلى الأسوأ مع ما يرافق هذا التبدل من ثقة لدى المجتمع بأن هذا التبدل هو الأفضل للجميع. وهذا ليس خيالياً ابتدعه الآن. فالقارئ الكريم سيرى ضمن صفحات الكتاب كيف أن النساء في منطقة الجنوب تحديداً - وهي الأرض التي تربيت وتعلمت فيها - كن مواطنات ذوات حقوق تقترب من حقوق الرجل. وكيف أصبحن مضطهدات وأسيرات الآن مع تأكيد الغالبية العظمى من العامة والنخبة في بعض التيارات الدينية بأن حريتهن السابقة كانت بسبب الجهل بتعاليم الدين الحنيف. وأن استلاب إنسانيتهن الحاصلة الآن هي الكرامة عينها. وبرغم تناولي للمجتمع بشكل عام إلا أن بعض المواضيع تركزت على أرض الجنوب كوني منها ولا أزال فيها.

عائشة

2006/2/28

مواقف قديمة تتجدد

يقال أن قيس بن عاصم وأد اثنتي عشرة بنتاً من بناته ولم يرى أحد في كافة مجتمعه أن له الحق في قتل قيس أو سجنه أو حتى منعه بالقوة فهو حر لأنه نكر ويملك الأنثى! هل لا زال الذكر يملك الأنثى؟

لم يكن الوأد منتشرًا في الجاهلية عند الجميع وإلا لكان الإنسان قد فني تماماً في جزيرة العرب. لكن الوأد للمولود - ذكر أو أنثى - كان يحدث بين حين وآخر. ووأد البنات تحيداً كان موجوداً. لأسباب غير الفاقة والجوع.

الوَأد وحتى قبل العصر الجاهلي لم يكن مستكراً. إذ كان عند مجتمعات بدائية حلاً وحيداً أمام المرأة من عناء العناية بالصغار. وذكر كتاب قصة الحضارة لـ لول ديورنت تفاصيل عن الوأد في الماضي البعيد للإنسان.

وإذا كانت المرأة تمد طفلها أو طفلتها خوفاً من الفقر أو رغبة في إخفاء جريمة الزنا، أو للتخلص من عناء الإرضاع والعناية بالصغار، فإن الرجل يئد طفله خوفاً من العار الذي قد تأتي به إذا صارت شابة.

فكيف كان الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - متوحشاً للحد الذي يكون فيه قادراً على وأد ابنته!؟.. وهل في وسع الرجال الآن وأد بناتهم؟ أو حتى تصور ذلك؟ هل يتصور أحد الآن أن باستطاعة رجل إزهاق روح طفله؟ ربما يحدث هذا دون أن يرى الرجل الوائد أنه وأد.. ودون أن يستنكر المجتمع عمله هذا. تماماً كالجاهلي الذي يدفن طفلة في

التراب دون أن يرف له جفن.. أو تدمع له عين ثم لا يرى الناس بأساً في عمله هذا ربما من باب (هي ابنته وله الحق فيما يفعله بها).

وبرغم وجود التفسيرات الكثيرة لدوافع ومبررات وأد البنات، وأنه كان مقتصرأ على بعض القبائل دون غيرها يظل الوأد من الأعمال البشعة التي لا تقبلها الإنسانية الآن برغم أنه عمل مقبول فيما مضى ولا تقلل من بشاعتها أي دوافع، اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية.

الوأد كان عملاً مبرراً في المجتمع الجاهلي لأن الإنسان إذا اعتاد أمراً وألفه فإن الألفة تحول حتى الجرائم مهما كانت بشاعتها إلى أمر مألوف واعتيادي بين الناس.

كان الوأد غير مبرك.. غير مفزع.. وغير مستغرب.. ولم يكن الوأد عملاً لا إنسانياً في ذلك الحين. فكلمة إنساني أو اللإنساني لم تعرف بعد. ولم يرتق المجتمع للوصول إلى معانيها. ولم يكن الوأد وحشياً.. لم يكن مخالفاً لأي قانون أو نظام أو حقوق. لذا واصل القرآن الكريم حديثه عن الأنثى في عدة مواضع إلى أن ربى في الرجل مشاعر إيجابية تجاه ابنته تحد من قدرته على حفر التراب وصغيرته تنظر إليه وربما تعاونه في ذلك، وتحد من قدرة الرجل على إنزالها في ذلك القبر وهي لا تدري ماذا يحل بها. وربما استشعرت الخطر فتشبثت بوالدها وأخفت وجهها في صدره طلباً للحماية.. ربما اقتربت من ضلوعه لتنتصت إلى قلبه لعلها تطمئن. فأى قلب حوت تلك الضلوع؟ وأي أبوة في أعماق ذلك الرجل وأي إنسانية لديه؟ أي قوة في تلك الأكف التي تحملها وتنزلها في حفرتها ثم تضع عليها أكواماً من التراب إلى أن تموت تحته؟ وينفض الأب ما في ثيابه وحيته من غبار علق به أثناء الحفر وعلق به بعد ما أثارته أقدامها وأكفها الصغيرة وهي تصرخ وتستنجد وتقاوم دفنها حية.

هل المجتمع هو ذات المجتمع؟ وهل الرجل هو الرجل في كل مكان وكل زمان؟ هل لا زال قادراً على إيذاء صغيراته إلى هذا الحد وبهذه القسوة، وإن اختلفت الطرق. هل يتشابه الرجال منذ ذلك الحين إلى اليوم فيئد الجاهلي جسدها ويئد العصري عقلها وشخصيتها؟ ثم لا يستنكر مجتمع الجاهلية ولا مجتمع اليوم هذا الوأد أو ذاك؟

لقد خاطبهم القرآن الكريم بقوله: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» (سورة الأنعام، 151) لكن الإملاق ليس السبب الوحيد للقتل.. فقد تكون العفة هوساً لدى الرجل ويصل الهوس بصاحبه إلى حد قتل من لا ذنب لها، فقال تعالى: «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» (سورة التكوير، 8 - 9). فهل لا زالت العفة هوساً في مجتمعا إلى اليوم كما كانت في الجاهلية بحيث تجعل الرجل يتصور ما لا يوجد وما لم يحدث. ثم يخطط بقسوة للحيلولة دون حدوثه. ولكن اختلفت طرق التخطيط والعنف بسبب هذا الهوس؟ هل لا زالت المرأة لا شيء سوى جالبة للعار والفضيحة ولهذا يجب دفنها في حفرة أو خلف سور منزل لا تغادره إلا للضرورة؟

لقد ناقش القرآن الكريم نظرتهم الدونية للمرأة وسخطهم من وجودها إذ قال تعالى: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (سورة النحل، 59).

إذاً وحسب النص القرآني الكريم، إن أقل ما يحدث هو أن الرجل يكره قدوم الأنثى ويخجل من ولادتها، ويتساءل عن ما يجب فعله. هل يبقيها أم يقتلها.

هل لا زال بيننا اليوم من يكره أن تلد زوجته الإناث؟ ثم إذا جاءت الأنثى أصر على أن مكانها المنزل وخروجها ليس إلا لضرورة وبحارس من محارمها؟. مثله مثل الجاهلي الذي ذكر القرآن الكريم أنه يريد أن يدس الأنثى في التراب؟ نعم بيننا من لم يتعلم من كتاب الله هذا الدرس. ولا يريد أن يتعلم. بيننا من يتزوج بأخرى طمعاً في إنجاب الذكور ثم لا يرى المجتمع في هذا الأمر أي حرج، وكان الله في كتابه العزيز لم يقل شيئاً عمن يكره قدوم الإناث.

الرجل في مجتمعنا يتجاوز ما يقوله الله تعالى في هذا الشأن ويبرر بكل اقتدار تجاوزه لما قاله الله. فانزعاجه من قدوم الإناث ورغبته في إنجاب الذكر مبرر كاف ليتزوج ويطلق وكأنه لم يقرأ الآية السابقة. ولم يقرأ قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (سورة الشورى، 49).

ثم لا يرى المجتمع بإنائه وذكوره بأساً في ذلك التجاوز وذلك التبرير.

وكما تزايدت كراهية الأنثى بتأثير الثقافات الوثنية القديمة والديانة اليهودية⁽¹⁾ وما فيها ضد النساء وحالة الغزو التي كانت السائدة في المجتمع الجاهلي، وجملة من الظروف الاقتصادية والاجتماعية المختلفة والتي ظهرت نتيجة لها عادة الوأد خوفاً من العار الذي سيحدث إن سببت القبائل الأخرى البنات، تزايدت الآن حالة الحصار خوفاً من تعدي أي رجل على أي امرأة.

وعوض عن تشريع الأنظمة التي تحمي المرأة من المضايقات أو التحرش، ومعاينة الجاني في حال حدوث مضايقة للنساء، نضع المحني

(1) سيأتي تفصيل أثر الثقافات المختلفة على الفقه الإسلامي في الصفحات القادمة.

عليه وهي المرأة في السجن ونعطي الجاني وهو المتحرش من الذكور مساحات أرحب وحقوق أكثر. وعض عن أن نربي في الرجال الآداب التي حثَّ عليها الإسلام والتي ابتعدوا عنها كثيراً فيما يخص التعامل مع المرأة، نضع النساء ضمن مستعمرات خاصة تحاط بالأسوار العالية والنصوص المنتقاة والفتاوى المتشددة والعقاب الصارم من قبل المجتمع وأعرافه ومؤسساته الرسمية للرافضات منهن البقاء خلف تلك الأسوار أو المتسائلات عن معنى بعض النصوص. فظل السؤال عن معنى النص والإجابة عليه حكراً للرجال، وبقيت النساء في حالة تلقي دون أي مناقشة، إلا فيما ندر. بل لقد سمعت من بعضهن أن علي إثم إن سألت عن مقاصد الشريعة في أمر ما أو الحكمة من تشريع معين. إلى هذه الدرجة أغلقن عقولهن. وطالبني بالاستسلام أيضاً.

العار المتوقع من المرأة وما يترتب على هذا العار من خوف عليها موقف عام يحتاج الجميع. وبالتالي فهي - في نظر المجتمع - ليست أهل للثقة من قبل أهلها لتتصرف في أمرها. وليست أهل للثقة في عين نفسها أيضاً⁽²⁾.

ولكن ماذا كان موقف والد فاطمة رضي الله عنها من وجودها كله، حين كانت طفلة وحين غدت شابة؟ هل وأدها محمد - مع أن السواد ليس بخطيئة في ذلك الحين حتى أن قيس بن عاصم وأد اثني عشرة بنتاً من بناته ولم يرى أحد أن له الحق في قتله أو سجنه أو حتى منعه بالقوة -؟ هل خجل محمد صلى الله عليه وسلم من ترديد اسمها على الأقل؟ هل أمرها بالصمت وعدم الحركة وهي طفلة ثم الخنوع

(2) أوكد دائماً على أي لا أعني القلة من المتميزات اللواتي أثبتن جدارتهن في مجالاتهن المختلفة وطالبن بحقوقهن وأدركن قيمتهن الإنسانية.

وهي شابة عندما أُعلن أن زوجها سيقدم على الزواج من أخرى؟ حاشا لله أن يفعل هذا رسول الله هذا صلى الله عليه وسلم. لم يكن زوجها أي رجل، لقد كان ذاته الذي نام في فراش محمد افتداءً له من القتل. إنه الوحيد الذي قرر أن تنغرس سيوف القرشيين في صدره نيابةً عن ابن عمه رسول الله. فهل جامل محمد صلى الله عليه وسلم علياً عندما أراد أن يتزوج علي امرأة أخرى على فاطمة برغم ما بين الرجلين من مواقف ونسب وقرباة وعلاقة وصحبة حقيقية ورغبة في الافتداء بالروح. إن المجاملة في موقف كهذا هي الأكثر منطقية. ولكن ماذا حدث؟ لقد كسر محمدٌ صلى الله عليه وسلم القاعدة وشذَّ عن المؤلف وأعلن أمام الملأ حبه لابنته وحرصه على مشاعرها. هل قال هذا لعلي فقط؟ بمعنى أن يجلس وحده مع علي رضي الله عنه معاتباً أو رافضاً؟ لا.. الحب عند رسول الله ليس سراً، وخوفه على مشاعر ابنته أمر يفخر به ولا يخفيه. لذا أعلن وهو على المنبر وقال أمام الناس جميعاً: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بضعة مني يربيني ما أرابها ويؤذي بي ما أذاها» رواه البخاري في باب ذبَّ الرجل على ابنته في الغيرة والإنصاف.

إذاً رسول الله لم يكتف بالرفض أمام علي وحده.. أو على الأقل بيدي انزعاجه، أو يصبر ويصبر ابنته لأن علياً يريد أن يتزوج بأخرى. بل وقف على المنبر ليعلن رفضه ويردده ثلاث مرات ثم يعلن أن طلاقها من زوجها علي رضي الله عنه هو الخيار الوحيد لزواج زوجها من أخرى. هل هذه سنة يا رسول الله؟ إن السنة هي فيما يقول يفعل صلى الله عليه وسلم. حتى في استخدام السواك وهو مجرد أداة لتنظيف الفم ويمكن أن يستبدل بفرشاة الأسنان لكن الحرص

على اتباع السنة جعل كثيرين يمشون وفي أفواههم مساويك من الأراك حرصاً على اكتساب الأجر بتقليد الرسول، فلماذا لم يتبعه القوم في سنته تلك ويرفض الواحد منهم أن يتزوج الرجل على ابنته إلا إذا كان زوجها سيطلقها؟

وقد قال كثيرون بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفض أن يتزوج علي رضي الله عنه امرأة أخرى مع ابنته لأن الرسول الكريم لا يريد أن تجتمع ابنته مع ابنة آل المغيرة تحديداً. وأقول: لو كان الأمر كما يُصور لاكتفى رسول الله بالرفض ولما قال: «فإنما هي بضعة مني يرييني ما أراها ويؤذيي ما آذاها» فهذه الجملة توضح لنا أن رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بسبب موقف آل المغيرة، بل بسبب حبه لابنته ومكانتها في قلبه. هو يقول أن ما سيؤولها هي ويجرحها هي سيؤوله ويجرحه مثلها لأنها ابنته. ولن تتألم فاطمة رضي الله عنها إذا تزوج علي رضي الله عنه ابنة آل المغيرة، وتتلقى الأمر بفرح وسرور إذا تزوج ابنة عائلة أخرى.

وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: (ما رأيت أحداً من الناس كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم كلاماً، ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة، قالت: وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآها أقبلت رحّب بها ثم قبلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه، وكانت إذا أتاه النبي صلى الله عليه وسلم رحّبت به ثم قامت إليه فقبلته) هكذا كان يعاملها صلى الله عليه وسلم ويخاف على مشاعرها.

الخوف من العار، والحفاظ على العفة لم تسيطر على قلبه وعقله صلى الله عليه وسلم مع أنها كانت من أبرز ما يفكر به الرجل تجاه المرأة في المجتمع الجاهلي - ولا زالت حتى اليوم في مجتمعاتنا - . والتنازل أو التساهل في مشاعره تجاه ابنته لم يحدث استجابة لما بينه

وبين علي رضي الله عنه من قرابة ونسب ومواقف لا يؤديها إلا الأبطال الذين يستحقون التكريم والتمجيد. فهل يكون تكريم محمد لابن عمه البطل سبباً في الأذى لفاطمة وجرح لمشاعرها؟ إنه رسول الله. فلماذا لم يقتدي أحد بمحمد في هذا الجانب تحديداً؟ لماذا لم تبرز هذه الصورة ولم نسمع بها من علي منبر في خطبة جمعة أو في كتيب ومطوية مما يوزع باستمرار؟

إن مناقشة موضوع اضطهاد النساء بأي صورة سيجعل كل من يقول ما لديه ويخالف ما ألفه الناس ذاً أهداف خفية ونوايا سيئة في نظر البعض حتى وإن استشهد بكتاب الله وسنة رسوله، ويظل متهماً بالمؤامرة على المرأة. أو داعياً للانحلال والرذيلة. وكأن الإنسان في هذا الوطن ينام ويصحو في رذيلة إلا إذا وقفوا على حراسته ومراقبته. ولكن ها نحن أمام خيارين: أحدهما موقف القرآن الكريم من المرأة وموقف رسول الله من كافة نسائه والموقف الثاني هو موقف التراث الذي يملأ ثقافتنا المكتوبة والشفهية⁽¹⁾.

لقد حمل التراث إلينا صفات عديدة للمرأة تنزع عنها إنسانيتها وتبقيها ضمن ممتلكات الرجل. تحولها إلى شيء من أشياءه وعليه أن يحافظ على ما يملك. وليس لها أن تفعل شيئاً في هذه الدنيا فيما عدا خدمته وخدمة الأطفال. فإن خرجت بعض النسوة للعمل خارج المنزل فيكون خروجها بشرط أن لا يؤثر على خدمتها لزوجها وبيتها وأطفالها. وبالعجب.. خلق الله النساء لبيقين في منازل الرجال رهن إشارتهم، فهن في النهار لخدمة الرجل وفي الليل

(1) يقول د. عبد الكريم بكار في كتابه رؤى ثقافية ص 13 (يصرف الإنسان ما بين 50% إلى 80% من ساعات يقظته في الاتصال بالآخرين. ويمضي نحواً من 45% منه في الاستماع. وفي الثقافة الشفهية تكون الأذن هي البوابة الأساسية للمعلومات الواردة إلى الدماغ).

لفراشه - أحقاً سخرها الله من أجله، تماماً كما سخر للإنسان مخلوقاته الأخرى!! أسخر المرأة للرجل؟ وكأن الرجل هو الإنسان. أما المرأة فمن ضمن ما سخر الله للإنسان؟

الرجل مؤمن بقناعاته حتى يؤمننا هذا وإلى أيام ستأتي لا أدري عددها. واستسلمت النساء أو أغلبهن منذ أزمنة بعيدة لهذا الرأي.

المرأة في نظر الرجل الآن وفي تراثه القديم الذي يحافظ عليه ليست إنسانة كاملة الأهلية في كل مراحلها العمرية. ولا فرق بين الطفلة والبالغة. لا فرق بين الأم والبنت. لا فرق بين من تجاوزت الأربعين ومن لم تتجاوز الأربع سنوات. ذات الأربع عشرة ربيعاً تخفي وجهها وذات السبعين أو الثمانين تخفي وجهها في مجتمعنا وبهذا فإن مسألة غطاء الوجه التي هي من المسائل الخلافية قد أصبحت قطعية. ليس هذا وحسب. بل تعدتها إلى القواعد من النساء. وإذا ذهبنا إلى المستشفيات الحكومية ورأينا النساء العجائز اللواتي أشرفن على الموت.. هذه عجوز لا تستطيع المشي لكبر سنها تجلس على عربة يدفعها ابنها أو حفيدها تغطي وجهها بشكل كامل. وتلك ممددة على السرير تعاني ما تعانيه من أمراض الشيخوخة. وتغطي وجهها أيضاً. حتى عند طبيب الأسنان بعضهم إن اضطرت إلى مراجعة طبيب وليس طبيبة كشفت من وجهها ما بين الذقن والأنف فقط وأبقت الباقي تحت الغطاء⁽¹⁾. مع أنها بين يدي طبيب. وكان يجب أن يكون الطبيب طبيباً بغض النظر عن نوع الجنس. ولكن للأسف لا نستطيع كمجتمع أن نرى الأستاذ والطبيب والمهندس.. إلخ لا نستطيع أن نراهم إلا من خلال كونهم ذكوراً أو إناثاً. وصلنا إلى الحد الذي صرنا فيه غير قادرين كمجتمع على أن

(1) هذه حالة نادرة لكنها حدثت، كشاهد على الخوف غير الطبيعي على المرأة.

ننظر إلى الطبية على أنها إنسانة محترفة في مجال ما وحسب. بغض النظر عن كونها ذكر أو أنثى. ولا نرى الطبيب كإنسان محترف في مجال وحسب بل نراه ذكر، ونخشى على نساتنا منه لذا فمهما كانت الحالة فإنه لا يستقبل امرأة إلا ومعها محرمها. إنها درة مكونة.. جوهره مصونة.. يجؤها وليها - الرجل - في صندوق للمجوهرات. إنها فاكهة أو حلوى يجب أن يغطيها.. وإلا تلوثت. حمامة مكسورة الجناح لا تطير ولا حول لها ولا قوة، أو ربما هي عود ثقاب.. يحرص على أن لا يشتعل.. أو أنها وردة يخاف عليها أن تُقطف.. وقد تكون أي شيء آخر يجب الرجل أن تكون عليه عدا أن تكون إنساناً مثله تشاركه الحياة بالمعنى الفعلي للمشاركة. ولا يستنكر أحد من العامة تلك الأوضاع وكأنهم يطبقون مقولة: (الأخطاء الكبرى المألوفة لا يراها الناس. والأخطاء الصغيرة المفاجئة تثير أوسع الاهتمامات إذا وصلت إليه)⁽²⁾.

ابتلعت الكثيراتُ الكثيرات الكثيرات الطعم، وألفن الأخطاء الكبرى في حقهن، وصدقن ما يقال لهن وما يقال عنهن، ولم أر من تثور لإنسانيتها وترفض كل تلك الألقاب عنها إلا فيما ندر. فصورات فخورات بكونهن جواهرًا ودررًا تُخبأ عن الأعين سعيدات بانتزاع إنسانيتهم عنهن، راضيات باقنمهن بالجهل أو صغر العقل، متباهيات بقلة الخبرة وعدم المعرفة. بل ويرددن كثيراً أنهن ضعيفات. عاطفيات، مغلوبات على أمرهن، يرددنهن بنوع من الماسوشية المخزنة، متصورات أن أي نقض لتلك الصور سيبعدهن عن الأنوثة إذ إن الأنوثة في ظنهن أو كما صورتهما التقاليد لهن هي الضعف والخوف وغلبة العاطفة وتراجع العقل وقلة الخبرة. فاستجنن لهذه التربية وصرن

(2) أ. د. عبد الكريم بكار خطوة نحو التفكير القويم.

متلذذات بهذا الخنوع. أما الرجولة فقد أكد المجتمع على أنها في جلافة الطبع وعلو الصوت وعبوس الوجه وإصدار الأوامر والقدرة على التسلط. واستجاب كثير من الذكور لهذه التربية وصارت لديهم مستويات من السادية تتفاوت من شخص لآخر.

ولا يُستغرب موقف النساء الراضحات للتمييز ضدهن إذا ارتضين ووافقن على هذا التمييز بعد كل هذه التعبئة طوال هذه القرون، ما يكون غريباً هو أن يقاومن الاستعباد ولو باللسان كأضعف الإيمان.

كان بعض العبيد أنفسهم أول من رفض تحرير العبيد. وذلك لما لدى الإنسان بشكل عام من خوف من التغيير وتوجس من القادم ولما يشعر به من تآلف مع وضعه الذي اعتاد عليه. إضافة إلى أن الظلم شيء والإحساس بالظلم شيء آخر. فليس كل مظلوم يدرك أنه مظلوم ليطالب برفع الظلم عنه. يضاف إلى هذا وجود شيء من استعباد العذاب والتلذذ بالخنوع وهذا بالطبع ما تفرزه تربية القمع والاستبداد.

ومن هنا أقول: أن تكون النساء مظلومات فهذا كثير ومنتشر في العالم كله شرقه وغربه، شماله وجنوبه، ويتفاوت الأمر في تزايد أو نقصه وفي قبوله ورفضه. في الصمت عليه أو مقاومته. لكن أن تكون المرأة ذاتها مدركة لما يحدث لها من ظلم رافضة له، راغبة في تعامل إنساني أفضل مما هي عليه. فهذا لا يحدث في مجتمعاتنا دائماً، وإن كان يحدث في بعض الأحيان.

في الثمانينات الميلادية كان الحديث عن ظلم النساء يكاد يوصل صاحبه إلى الاتهام بالردة وآثر الناس حينها الصمت على الكلام في الوسائل الإعلامية. وعندما انفرج الأمر قليلاً وبدأ طرح موضوع المرأة في المجتمع لم يكن الحديث يتجاوز مشكلة العنوسة وظلم الولي

لها المتمثل في عدم تزويجها. تناولته بعض الجرائد وبرامج التلفزيون ولم ينتج عن تناول الموضوع والإقرار بوجود كثير من الأولياء الظلمة أن تقرر أن يكون للفتاة حق تزويج نفسها بنفسها إن هي بلغت الرشد لأن المجتمع لن يراها راشدة مهما كان عمرها ومهما حملت من الشهادات. انتقل الأمر إلى معالجة غلاء المهور من قبل الشيوخ والأئمة في التلفزيون والإذاعة عن طريق خطبة أو حوار تلفزيوني أو إذاعي. وجاءت معالجة هذين الأمرين بكثير من الإلغاء للمرأة كإنسان فقد تقرر في بعض القبائل وضع تسعيرة معينة للبكر وتسعيرة أقل بمقدار النصف تقريباً للثيب. تُدفع من قبل الخاطب للرجل الذي يسمى وليها أثناء عقد القرآن وقالوا أن هذا هو المهر.

في تلك الأعوام لم يتجاوز الانفراج طرح بعض القضايا البسيطة ليناقدش الناس مشكلة هنا وأخرى هناك دون محاولة تعديل الصورة المقلوبة. وحتى اللواتي انطلقن في الحياة العملية في ذلك الوقت ووجدن مجالاً للأعمال التجارية وغيرها. كانت مطالبهن بشأن وضع المرأة وحقوقها مجرد حل مشكلاتهن التي يواجهنها أثناء استخراج التراخيص الخاصة بأعمالهن أو الموافقة على سفرهن وما شابه ذلك. أي أنهن لم يتناولن الوضع النسائي القائم بمجمله ويبحثن عن أسباب التمييز ضد النساء ويحددن مجالات التمييز⁽¹⁾. ولا لوم عليهن في ذلك لأن التشدد في ذلك الوقت سيجعل من تقول بظلم المرأة والتعسف في التعامل معها امرأة ساقطة. أما الصورة المقلوبة التي أرى أن علينا السعي لجعلها معتدلة فأعني بها أن كل تلك الممارسات ضد النساء نتجت بسبب الانتقاص من مكانة المرأة الإنسانية والاجتماعية والوطنية والخط من قدرها والإساءة إلى كرامتها. فإذا أصبحت المرأة

(1) انطلقت الآن كثير من المثقفات الجادات وكتبن بوعي عميق ورائع عن وضع المرأة.

مواطننة في وطنها لا تحتاج إلى وسطاء بينها وبين الوطن، كالرجل على أرضه وبين ذويه. وإذا رأينا كيف عاملها الإسلام باحترام وطبقنا هذا التعامل في حياتنا اليومية فستذهب تلك المشكلات وغيرها مما لم يطرح وظل غارقاً كجبال الثلج التي تختفي في المحيط ولا تطل على العالم إلا بجزء يسير منها.

هناك من ترى الظلم إنصافاً وعدلاً. وأحريات يرين أنه مقدر من الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن عليهن الاستسلام ولا شيء آخر. متناسيات أو جاهلات بأن الله تعالى حرّم الظلم على نفسه وأنه جلّت قدرته لا يظلم عبده، وقد أرسل الرسل لما فيه خير البشر كلهم ولم يرسل الرسل لخير الذكر دون الأنثى.

وكلنا كمسلمين متفقون على أن الله قادر على كل شيء. وكل شيء هذه مطلقة، فإذا قلنا مثلاً أن الله قادر على أن يطلع علينا الشمس الآن من مغربها فالله فعلاً يقدر على هذا وهو على كل شيء قدير. لكن الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب، ولم تطلع أياماً من الغرب وأياماً من الشرق مع يقيننا التام بأن الله لا يعجزه أي أمر على الإطلاق، ومن ذلك أمر شروق الشمس من الغرب اليوم أو غداً فلماذا لم يفعل ذلك سبحانه منذ الأزل وحتى الآن برغم مرور ملايين السنين والشمس تشرق وتغرب بذات الكيفية؟ السبب هو أن الله تعالى سنّ قوانيناً سيرّ بها الكون كله أي أنه خلق النظام الذي يحفظ لكل ما في هذا الوجود مسيرته، إنها سنن الكون ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (سورة الأحزاب، 62).

والإيمان بما قدره الله على الناس يعرف الجميع أنه لا يتعارض مع ما يسعى إليه الرجل من رزق أو رفعة ومكانة اجتماعية أو علم أو شهادات أو مال أو مركز مرموق. وهذا حق، فمن سنن الله أن جبل الإنسان على البحث عن الأفضل في سائر أموره. لهذا لا

نستغرب أن يبحث رجل عن وظيفة أفضل من وظيفته أو أن يجمع المال ليصبح ذا ثروة طائلة أو أن يسافر لكي يصبح أكثر علماً وثقافة كل هذا معتاد وطبيعي. بل ومطلوب من الرجل أن يفعله.

فلماذا إذاً يتعارض في ظن بعضهن وبعضهم ما قدره الله على النساء مع ما تريده المرأة من مكانة أو علم أو مال أو حتى تعامل لائق بها كإنسانة كرمها الله قبل أن تطلب تكريم زوج أو أب أو أخ أو نظام اجتماعي لا يراها قادرة على العيش دون موافقة ولي الأمر أو دعمه. كيف اختلف الأمر لكونها أنثى فظنت ذلكها مقدرًا يجب أن تستسلم له مع أن سعي الرجل إلى ما يزيد من مكانته واحترامه أمر جائز لا يتعارض مع ما يقدره الله من مكانة أو رزق أو علم للرجل؟

وأعود إلى السؤال الذي بدأت به - هل في وسع الرجال الآن وأد بناتهم دون أدنى شعور بتأنيب الضمير؟ وأطرح سؤالاً آخر يوضح سؤال السابقي.. هل الوأد يكون بإزهاق الروح فقط؟ وماذا عن إزهاق العقل والشخصية؟ أليس مساوياً لإزهاق الروح؟ ماذا عن سلب إنسانية الإنسان، ماذا عن إهدار كرامته؟ ماذا بقي من إنسان نزعته عنه إنسانيته وأهدرت كرامته؟ ماذا عن تلقينه المستمر عبر مراحل العمرية كلها بأنه أقل شأنًا من غيره، أقل مكانة، أقل عقلاً وأقل ذكاء. أكثر رعونة وجبنًا. والتأكيد عليه بأن كرامته لا تحفظ وعزته لا تكون إلا إذا بقي ثابتاً لا يغادر مكانه ولا يتصرف بذاته، بل يكون في كل أمره طالباً للإذن والسماح راجياً الموافقة، ومسترشداً بعقل من هو أعلى مقاماً وأذكى عقلاً.

إن التنشئة وفق ما سلف للولد أو البنت لا شك ستخلق شخصية أقل في توازنها وقوتها على أحسن الأحوال، وهذه الشخصية سوف تظن الذل رفعة والظلم إنصافاً، شخصية توافق على الإهانة وتستعذب الهوان.

لماذا تدنت مكانة المرأة؟

الشاعر الهندي الكبير (طاغور) يقول: (إن الله حين أراد أن يخلق حواء من آدم لم يخلقها من عظام رجلية حتى لا يدوسها، ولا من عظام رأسه حتى لا تدوسه، وإنما خلقها من أحد أضلاعه لتكون مساوية له قريبة إلى قلبه).

كانت المرأة في مجتمعنا قبل ما يزيد على خمسين عاماً من الآن إنساناً منتجاً. أي أنها وإن كانت مكبلة بالعادات والتقاليد فإنها تظل أفضل حالاً مما صارت إليه فيما بعد. لقد تحولت إلى كائن يعتمد في حياته كلها على ما يراه ويقره الرجل. ولا تستطيع المرأة تجاوز قرارات "وليها" مهما كانت تعسفية وظالمة. فلماذا هي بهذا الوضع المتدني؟

تلتقي كثير من الثقافات في أساطيرها المختلفة. وتكاد تتشابه في مسألة خلق المرأة من ضلع الرجل. ففي التوراة أن الله أوقع سباتاً على آدم - أي أن آدم نام - فسحب الله ضلعه الأيسر وصنع منه حواء. فلما استيقظ آدم وجد إلى جواره امرأة.

وفي قصة الخلق الهندية، برغم وثنية الديانات الهندية، نجد أن الإله تواشترى حينما فكّر في أن يخلق المرأة، وجد أن مواد الخلق قد انتهت كلها أثناء خلق الرجل. ولم يبق لدى هذا الإله من العناصر الصلبة شيء ليصنع منه المرأة فأخذ ضلعاً من الرجل وبدأ يصوغ المرأة ويشكلها على هيئة الإنسان.

أما كتاب الله العزيز فلم يذكر أضلع آدم على الإطلاق. بل

جاء في كثير من الآيات أن الله خلق الزوجين من نفس واحدة. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء، 1).

كما ويؤكد القرآن الكريم على أن البشر كلهم خلقهم الله من ذات المادة وبذات الكيفية والمراحل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (سورة فاطر، 11).

ولو كانت الكيفية التي أشارت إليها الإسرائيليات في قصة الخلق صحيحة والتي تقول بأن آدم ينقص ضلع من ضلوعه لأن ذلك الضلع صار حواء فكيف لم يتناولها القرآن وهي بكل هذه الأهمية؟

ومعلوم أن الزوجية دائماً تكون في وجود أنثى وذكر في الأحياء التي خلقها الله على الأرض. والزوج من كل شيء يعني وجود اثنين من الشيء ذاته على ذات القدر من التساوي في خصائصهما.

وكما رفض سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) كثيراً من الروايات لأنه يرى أنها مشوبة بالإسرائيليات حتى وإن كتبها المفسرون في كتبهم، فقد أورد تعليقا في كتابه في سياق تفسير سورة الأعراف عن مسألة خلق آدم وحواء رفض فيه قبول القول بخلق حواء من ضلع آدم فقال: (ينظر الله - سبحانه - بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة - إلى آدم وزوجه.. وهنا فقط نعرف أن له زوجاً من جنسه، لا ندري كيف جاءت. فالنص الذي معنا وأمثاله في القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء. وكل الروايات التي جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد عليها، والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من

جنسه، فصارا زوجين اثنين؛ والسنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية): «وَمَنْ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».. فهي سنة جارية وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة.

لدى الإنسان على مرّ الأزمنة فضول شديد في معرفة أصل الخلق وبداياته وكيفيته. لهذا دارت حول مسألة الخلق الأساطير وفق ما يتخيله العقل البدائي للإنسان في الماضي وقبل أن يرسل الله محمد صلى الله عليه وسلم هادياً للبشرية. وعندما جاء القرآن الكريم أعطى الإجابة العميقة التي تجعل الفرد البسيط يفهم معناها. وأيضاً تجعل العلم في عصرنا الحاضر يدرك مدلولاتها فتفتح الآفاق العلمية للبحث في مجالات أصل الإنسان وتاريخه⁽¹⁾ وتكون الأساطير خارج دوائر البحث العلمي المجرد. وهذا في حدّ ذاته هو الإعجاز الذي تميز به القرآن الكريم. فقد فسره الأقدمون حسب معارفهم البسيطة قبل أن تصل العلوم الحديثة إلى ما وصلت إليه. والآن يفسره العلماء فيجدون فيه دلالات وإشارات إلى أمور لم تخطر على بال المفسرين الأوائل لأن المعارف لم تكن قد بلغت ما بلغته اليوم.

وإذا كانت الثقافات القديمة حتى الوثنية منها قد تداخلت أساطيرها وبرزت قصة الخلق بين تلك الأساطير لتقول بأن حواء من ضلع آدم، فإن بعضهم رأى أن يستدل بهذا القول لتحسين مكانة المرأة ولو بشكل بسيط. أي أن يستغل القصة ذاتها والتي وردت للتقليل من شأن المرأة والحطّ من قدرها فيجعل في معناها شيء يدل على إعلاء مكانة المرأة.

(1) يمكن قراءة الفصول الخاصة بنشأة الإنسان وتطوره وعدم تعارض ذلك مع نص القرآن الكريم "وليس مع التفاسير" في كتاب الدكتور محمد شحرور (الكتاب والقرآن).

وطاغور من أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا من هذا القول وسيلة للدفاع عنها والرفع من شأنها. بعكس آخرين رأوا أنه دلالة على اعوجاجها واستحالة إصلاحها. وكذلك كان الشيخ محيي الدين بن عربي مع الذين أجادوا تأويل سبب كون المرأة من ضلع الرجل - في عدد من الثقافات المختلفة - وأشاد بها فقال في الفتوحات المكية - (أنَّ الله خلق آدم على صورته ونفخ فيه من روحه فأعطاه صورة الكمال، فجعله كاملاً جامعاً. ولبقاء النوع في الدار الدنيا، سبق في علم الحق إيجاد التوالد والتناسل. فاستخرج من ضلع آدم حواء، وكانت من الضلع للانحناء الذي في الضلوع لتحنو على ولدها وزوجها. فكان بخروج المرأة منه نقص في الزوج، وكماله لا يتم إلا بعودة ما فقده. أي المرأة التي هي منه وعلى صورته، تماماً كما كان آدم منه وعلى صورته. وعمّر الله موضع خروجها بالاشتياق إليها، فحنَّ إليها حينه إلى نفسه لأنَّها جزء منه، وحنَّت إليه لأنَّه موطنها الذي صدرت عنه). وليس بغريب على ابن العربي هذا الموقف الداعم للمرأة فقد خصص في الفتوحات المكية أيضاً باباً بعنوان (في إمامة المرأة) وقد كان مع من قالوا بجواز إمامتها للرجل في الصلاة.

وبرغم هذا التبرير الجميل أرى أنه يبقى تبريراً. أي أنها مجرد محاولة لتحسين الوضع المزري من هكذا قول عن المرأة. وعلينا كمسلمين أن نستند إلى القرآن الكريم في مسألة الخلق التي وضحتها في عدة مواضع. ولو كانت المرأة من أحد الضلوع لذكرت الآيات الكريمة ذلك صراحة وبكل وضوح ضمن النص القرآني. إذ من المستحيل في عقل كل مسلم أن تتناول الآيات القرآنية مسألة الخلق بكيفية غير الكيفية التي حدثت بها فعلاً.

ونلاحظ منذ بدايات انتقال الإنسان إلى العصر الصناعي وإلى يومنا الحاضر أن الرجل إنسان له ذات مستقلة وأنه قائم بذاته على شؤونه. أما المرأة فلا زالت موضوعاً يتطلب البحث والمعالجة في بقع كثيرة من العالم. وفي مجتمعنا بشكل خاص لا زال أمرها يتطلب سنّ الأنظمة والفتاوى الشرعية الخاصة. والتأكد دائماً من سيرها وفق تلك الأنظمة والفتاوى.

وإذا كانت المرأة قد تجاوزت في الدول المتقدمة هذه الدونية وقطعت شوطاً في مجال الاعتراف بها كإنسانة كاملة الأهلية فإنها في الشرق لا تزال ذات مكانة أدنى من مكانة الرجل بكثير. إنها في نظر الكثيرين وفي نظر نفسها (فريسة) يسهل الإيقاع بها، يسهل استدراجها إلى الخطيئة لذا يخافون أن تنزلق خلف من يغريها بأي شيء، ويقومون بالكثير من الجهد من أجل الحفاظ عليها. هكذا يراها الخائفون عليها أو منها، لا فرق. وعلى هذا الأساس يتعاملون معها.

ولا يخفى على من يقرأ كتب التاريخ تحديداً أن اليهود هم من ضمن الذين صدّروا لجزيرة العرب احتقار المرأة والنظر إليها على أنها أسّ كل بلاء في هذا الكون إذ ساهمت الديانة اليهودية بدور مهم في تراجع مكانة المرأة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً منذ أزمنة بعيدة بعد أن كانت ذات سيادة ومكانة عالية تفوق سيادة الرجل. وأوصلتها سيادتها تلك في المجتمعات الموغلة في القدم إلى أن صارت إلهة تُعبد عند أمم سبقت اليهودية.

لم تكن عشتار أو إفروديت أو فينوس وإيزيس أو حتى الأصنام التي عند الكعبة مثل اللات والعزى ومناة لم تكون سوى أسماء نساء عبدها الناس في الماضي السحيق ثم نحتوا لهن تماثيل ليستمروا في تقديسهن من خلال تلك التماثيل.

يقول وول ديورنت في قصة الحضارة (وليست أهمية عشتار لدينا

مقصورة على أنها شبيهة بإيزيس إلهة المصريين، وعلى أنها النموذج الذي صاغ اليونان على مثاله آهتهم أفرديتي والرومان فينوس، بل إنها تهمنا فوق ذلك لأنها تبارك عادة من أغرب العادات البابلية، فقد كانت هي ديمتر وأفريتيتي معاً - أي أنها لم تكن إلهة جمال الجسم والحب وحسب، بل كانت فوق هذه الإلهة الرحيمة التي تعطف على الأمومة الولود، والموحية الخفية بخصب الأرض، والعنصر الخلاب في كل مكان، ويستحيل علينا، إذا نظرنا إلى صفات إشتار ووظائفها بمنظار هذه الأيام، أن نجد بينها كثيراً من التناسق؛ فقد كانت مثلاً إلهة الحرب والحب⁽¹⁾.

ويرى بعض المفسرين أن اللات والعزى ومناة هي أسماء رجال وليست من أسماء النساء اللواتي عبدهن العرب كدليل على تأثرهم بثقافات من حولهم من الأمم. متجاهلين أسماء المعبودات في الثقافات الأخرى الموجودة شمال الجزيرة العربية كالإغريق والرومان ومن قبلهم الكنعانيين. معتمدين في قولهم بذكورية تلك الآلهة على ما كان على أرض الواقع في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام الذي بدأ فيه تفسير القرآن الكريم من انحطاط لقدر المرأة وسيادة الرجل. أي أن القول بذكورية اللات والعزى ومناة مخالفاً لما تقدمه الميثولوجيا الإغريقية والكنعانية من قبلها.

ويعود تاريخ تأليه النساء عند الإنسان البدائي إلى ما في العهد الأمومي من مكانة للمرأة تطورت عبر الزمن لتصل حد التقديس والعبادة⁽²⁾. ونعلم جميعنا أن الإنسان في أزمنة سحيقة عبد آله كثيرة

(1) قصة الحضارة، التراث الشرقي، الشرق الأدنى، بابل، آلهة بابل.

(2) لست بصدد الكتابة بشكل مفصل في التاريخ، ولا بصدد دراسة التغيرات في أدوار الرجال والنساء. أنا فقط أشير إلى بعض الملامح التي كانت في المجتمعات القديمة وأثرت بشكل كبير في ثقافتنا المتعصبة ضد المرأة والتي ترى أن التمييز العنصري ضدها يعد أمراً طبيعياً. بل يرون أنه هو الأصل وما سواه دخيل على المجتمع الإسلامي.

منها الأشجار والأنهار والنار والأصنام التي كان هو يصنعها ليعبدها
وعبد قوى الطبيعة، والشمس وعدد من الكواكب والنجوم كما عبد
الفأر والبقرة.

ولا تزال عبادة البقرة وعبادة الفئران موجودة إلى الآن في الهند.
وللفأر معابد خاصة مبنية على طراز حديث تجري الفئران على أرض
المعبد الرخامية ويقدم لها عبادها الطعام والشراب وينظفون المعبد
بكل تقديس واحترام. وإذا دخلوا معبدهم خلعوا أحذيتهم احتراماً
وتقديساً.

ويقول الباحثون في هذا المجال إن الإنسان في الماضي كان يخاف
من قوى الطبيعة ولا يدرك لها تفسيراً. ففي الأرض تحدث الزلازل
والبراكين أو يشتعل حريق في الغابات بسبب البرق أو تفيض الأنهار
أو يخاف الناس من حيوان مفترس يهاجمهم وغيرها من الأحداث التي
يمر بها الإنسان البدائي ولا يدري كيف يقاومها ولا يدرك أسبابها
فيحاول أن يستعطفها لعلها ترضى عنه ويتجه إلى تقديم القرابين لها
لعلها تهدأ. ومع الزمن يتحول هذا الاسترضاء إلى تقديس وعبادة.
وبمرور الوقت وتعاقب الأجيال تلو الأجيال ينسى أن سبب عبادته لها
هو الرغبة في استرضائها بسبب ما كان يحدث. ويتوارث الإنسان ما
كان أجداده يفعلون تجاه معبوداتهم وأوثانهم فيعتنق ما يعتنقون
بإخلاص شديد ويدافع عن فكرهم بكل ما أوتي من قوة وهذا ما
يجعل تركهم للوثنية واتباع الأنبياء والرسل يأخذ وقتاً وجهداً من كل
رسول.

وأغرب ما قد يتساءل عنه الإنسان هو عبادة الفأر التي لا تزال
قائمة حتى اليوم وإن كانت بشكل محدود جداً. وكيف يمكن لأي
عاقل أن يقدر فأراً ويبنى له معبداً فخماً يمتلئ بالفئران، ويقدم لها
الطعام والشراب وينظف المكان الذي هي فيه. السبب في حدوث

هذا النوع الغريب من العبادات هو أن الفئران هاجمت مزارعهم فيما مضى من الزمان وجعلتهم يخسرون المحصول الذي يعتمدون عليه في حياتهم ولم يكن لديهم وسيلة لمقاومة الفئران التي دمرت تلك المزارع لهذا توسلوا إليها لتترك لهم ما تنتجه أراضيهم التي تعبوا في استصلاحها وزراعتها وهذا التوسل والتضرع يصبح مع الوقت عبادة والعبادة تتطلب وجود معابد، وهكذا تنتقل هذه الموروثات من جيل إلى جيل إلى أن يمر الزمان فلا يعلم الناس لماذا قدس أجدادهم شيئاً ما وعبدوه لكن المقدس - مهما كان حقيراً وتافهاً - يبقى مقدساً عند الناس. والمقدس لا يؤكل لحمه. فيبقى مقدساً. وقد يذهب التقديس ويبقى التحريم. ودون أن يسأل الإنسان أو يبحث يظل مؤمناً بمقدساته أو بما حُرِّم عليه.

الأشياء المقدسة لا تخضع للعقل والمنطق. بل يتعلق بها أصحابها بإيمان كامل يصعب على الآخرين زعزعته حتى وإن بدا غير مقبول لدى من استخدم عقله وذات المعنى يصلح لأي تعصب وانغلاق في كل شيء. إذ إن الإصلاح أصعب ما يكون مع من ظن نفسه بلا حلل ولا خطأ.

ولأن الإنسان مرّ في تاريخه بعصور أربعة هي عصر الصيد وعصر الرعي ثم العصر الزراعي ثم الصناعي. فقد كان في بدائيته القديمة يصيد ويأكل ما يصطاد في الغابات. وعندما انتقل إلى العصر الزراعي كانت المرأة هي التي ابتكرت الزراعة في تلك الأزمنة البعيدة جداً. إذ رأت أنه بدلاً من أن تذهب بعيداً عن كهفها وصغارها لتأتي ببعض الثمار للطعام، وضعت بعض البذور في الأرض ورواها المطر. وتوالت الخبرة في هذا الجانب إلى أن تحول الناس إلى الزراعة كمصدر من مصادر رزقهم. وهي التي استأنست الحيوانات المنزلية ثم استفادت من لبن تلك الحيوانات لكي ترضع أطفالها وهذا يساعدها

في إشباع الصغار ويخفف عنها عناء إرضاعهم. ولأن الأم هي مركز العائلة في العصر الأمومي إذ إن الأبناء يعيشون في كنف أمهاتهم وليس في كنف آبائهم صارت المرأة في عين الرجل تشبه الأرض التي تنبت الزرع وذلك بأن تنجب الأطفال وترعاهم. لقد أعجب الرجل بالمرأة لقدرتها على ما لا يقدر هو عليه، وهي القدرة على الحمل والولادة. وأذهلت المرأة الرجل لأن الجنين يتكون داخلها ثم يخرج منها منها ولهذا عمد إلى تقديس المرأة ثم تأليها.

ولأن الناس تنتقي آلهتها حسب ما يحدث لها من مواقف عبر السنين أو حسب ما تستنتجها أو تفسره عقولهم البسيطة فإن الله عز وجل كان يرسل الرسل والأنبياء ليتم تصحيح ما هم عليه من شرك ولتعليمهم التوحيد. وقد أخبرنا الله في كتابه العزيز عن بعض أولئك الرسل وليس كلهم. ومن هنا نجد أن اليهود قوم عرفوا توحيد الله عبر الرسل الذين أرسلهم الله إليهم. ولهذا رفضوا عبادة غير الله بعد أن كانت المرأة من ضمن ما كان يُعبد قبل اليهودية وفي بداياتها أيضاً. ثم بالغوا في الرفض لها إلى أن جعلوها بعد ذلك في مرتبة دون الرجل بمسافات. إذ لم تر الديانة اليهودية - فيما بعد⁽¹⁾ - في المرأة غير أداة للإنجاب والمتعة الجسدية، فترتب على ذلك تجريدتها من حقوقها الإنسانية والاجتماعية. ولا زالت بقايا هذا التجريد مستمرة حتى يومنا هذا ضمن كتبهم المقدسة وإن كانوا لا يعملون بها. ومن يعود إلى الدراسات التي عن الكتب اليهودية بدءاً من التوراة إلى التلمود والأسفار وتعاليم حاخاماتهم، سيجد ما لا حصر له من

(1) لا تعلق أو تهبط مكانة المرأة في مجتمع ما فجأة، ولا بقرار محدد. لكن التغيير يحدث عبر الزمان وبسبب عوامل عديدة تتداخل فيها الظروف الاقتصادية والاجتماعية والحروب والفهم الخاطئ للأديان وما كتبه هنا بهذا الشأن مختصر جداً لكي لا أذهب بالموضوع إلى عمق التاريخ.

التشريعات ضمن نصوصهم التي تحظر من قدر المرأة وتدني مكانتها، ويقابلها في ذات النصوص اليهودية مبالغة في تقديس الرجل وإعلاء شأنه. فالمرأة عندهم مخلوقة من ضلع أعوج وليست إلا لخدمة الرجل فقط وهي نجسة. كما إنها شيء يملكه الرجل ويمكن أن يشتريه أو يبيعه متى شاء وفق حاجاته الجنسية أو الاقتصادية. وعدا ذلك فلا دور للمرأة، ومن هنا نرى أن المرأة في مجتمعات مختلفة شيء يحافظ عليه الرجل ويحميه لأنها من ممتلكاته. ولا شك أدرك اليهود في العالم كله الآن فداحة ما فعله أجدادهم القدماء في تلك التشريعات فتخلوا عن أفكارهم التي ضد النساء وانشغلوا بالتنمية الحقيقية للإنسان في مختلف جوانب حياته. وهذا ما يجعلهم قادرين على كسب الجولات تلو الجولات في مجالات وفي بقاع كثيرة من أرض الله ليست ضمن موضوعنا الآن.

أما الإغريق فبرغم كل علومهم التي وصلوا إليها في تلك الأيام وحضارتهم وفلاسفتهم ظل التعليم محرماً على المرأة وظلت المرأة تابعة للرجل. وعندما حاول أفلاطون أن يساوي بين الرجال والنساء في مجال التعليم رفض المفكرون والفلاسفة. وقد عُرف أرسطو باحتقاره للمرأة ونظرته الدونية لها.

ومعلوم أن غطاء الوجه كان واجباً دينياً عند الإغريق. والنساء في بلاد الشام كلها كن ممنوعات من كشف الوجه قبل الإسلام لأن تلك البلاد لم تكن عربية قبل فتحها وكانت خاضعة لحكم الإغريق.

كذلك فإن الديانات الفارسية القديمة، الزرادشتية والمانوية والمزدكية اعتبرت المرأة كائناً نجساً، فأوجبوا عليها وضع حجاب يغطي وجهها ليفصل بينها وبين النار المقدسة لئلا تدنس أنفاسها هذه النار. أي أن غطاء وجه المرأة في الماضي وحسب الديانات الوثنية كان واجباً دينياً على النساء. والآشوريون كانوا من أقدم الشعوب

الدينية التي أخضعت النساء للحجاب. كما وتضمنت شريعة حمورابي بنوداً عديدة تخص النساء ومنها أن المرأة كانت تتبع زوجها من دون أي استقلال حتى أن الزوجة إن لم تطع زوجها في أي أمر أمرها به يمكن للزوج أن يخرجها من بيته أو يتزوج عليها. إذا طاعة الزوج وتسيده على المرأة في عصرنا الحاضر ليست إلا امتداد لتشريعات حمورابي⁽¹⁾.

ولا ننسى أن المرأة في الثقافات الهندية القديمة أيضاً شيء يملكه الرجل إلى الحد الذي يجعلهم يدفنونها معه حية لكي تخدمه إذا عاد إلى الحياة من جديد. إلى هذا الحد صار وضع النساء. وأد هنا وهي صغيرة ووآد هناك وهي متزوجة. الفرق أنهم في الهند أبقوها حية فقط لتخدم الرجل فلما مات وجب عليها أن تموت أيضاً. بمعنى أن روحها له. روحها ملكه هو، وقد مات لذا فسوف تدفن معه.

جاء الرسل بتعاليم من عند الله تعالى ليصححوا للناس عقائدهم وليخبروهم أن الله هو الإله الواحد الأحد، ومن خلال ما جاء به الأنبياء عليهم السلام. عرف الناس أن الله هو المعبود وليست المرأة أو أي شيء آخر. ولكي يتمكن اليهود من إلغاء فكرة تأليه المرأة إذ إن في تراثهم هم أيضاً بقايا من تقديس النساء ومن بينهن الإلهة "إيستر" والتي أفردوا لها سفراً خاصاً هو السفر السابع عشر من أسفار التوراة. انطلقوا في التقليل من شأن المرأة فيما بعد للتأكيد على عدم عبادتها. يضاف إلى هذا كثير من الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتداخلة التي قلبت الموقف رأساً

(1) وول ديورنت - قصة الحضارة - التراث الشرقي - الشرق الأدنى - بابل - أخلاق البابليين.

على عقب. ويتدرج الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن تمّ تحقيرها واستبعادها من مجمل شؤون الحياة وهذا لم يحدث فجأة بل ضمن مراحل طويلة يمر فيها الإنسان بدول وحضارات تتطور وتنهار وتظهر خلالها فلسفات وأفكار مختلفة.

إذاً فهذا الانحطاط في مكانة المرأة سببه ما كانت عليه المرأة نفسها من مكانة في العهد المسمى بالحقبة الأمومية. وتلقف سكان جزيرة العرب الثقافات المختلفة ومنها الثقافة اليهودية التي سيطرت على العقول حتى يومنا هذا. فتغلغلت الإسرائيليات في الثقافة العربية وسبب ذلك هو تناسبها مع الثقافة الجاهلية في جزيرة العرب والتي تتناقض في تعاملها مع المرأة. ففي حين توأد المرأة الجاهلية وتسمى ويرثها الرجل كما يرث أي متاع فإنها أيضاً تنظم الشعر وتسافر وتتحرك وحدها وتتصرف بكثير من الحرية.

انتشرت الثقافة المعادية للمرأة وتوغلت في ذهنية الرجل والمرأة معاً عبر العصور جيلاً بعد جيل. وزاد الأمر سوءاً ما كان يحدث من غزوات تسمى فيها المرأة وتكون جارية في القبيلة التي انتصرت في الغزو. وهذا ما يجعل الرجل الذي تُسبى ابنته أو زوجته يشعر بالمهانة والذل ويفضل أن يتخلص منها بالموت قبل أن يتم اختطافها وجعلها جارية في قبيلة أخرى.

ثم ظهر الإسلام ليقاوم كل ذلك الاضطهاد الذي تعاني منه النساء ويرفض قهر المرأة تحت أي مسمى. فشرع قوانين جديدة تلغي طرائق الزواج التي اعتاد عليها الناس في جاهليتهم والتي لا مجال لحصرها الآن. وأوقف وأد الصغيرات وابتدع الإرث للنساء فقد كنّ بلا ميراث. وأفسح المجال لمخاورتهن والأخذ برأيهن بقولهن حتى في أمور الدين إذ إن عائشة رضي الله عنها تخبر الناس بما يقره الرسول صلى الله عليه وسلم وما يفعله وتروي عنه هي وغيرها من أمهات

المؤمنين والصحابيات رضوان الله عليهن جميعاً. ولأن الرسول الكريم ليس نبياً وحسب، بل كان إمام الأمة وقائدها الروحي العسكري الأعلى فقد كان هو المقصود عند حدوث أي موقف. لهذا فإن من تطالب بحقها تراجعها صلى الله عليه وسلم. لذا طالبت النساء بحقوقهن وراجعته صلى الله عليه وسلم وتساءلن أمامه عن كل شيء. وها هي أم سلمة رضي الله عنها تسأل رسول الله بكل ثقة وجرأة، دون أن يملأها الخوف أو التردد، سؤالاً غير اعتيادي إذ إن سؤالها يتصل برسالة محمد ورب محمد والكتاب الذي نزل على محمد. ولم تكون له صلى الله عليه وسلم ردة فعل غاضبة أو حتى معاتبة. لقد جاءته رضي الله عنها وقالت: يا نبي الله، ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِماً﴾ (سورة الأحزاب، 35).

بهذه البساطة والتلقائية تطلع أم سلمة رسول الله على ما تراه حقاً لها ولبنات جنسها فيستجيب لها الله وتنزل الآيات التي تعد بمغفرة وأجر عظيم من الله للرجال والنساء بالتساوي كل حسب عمله وليس حسب جنسه.

ولنتخيل أن امرأة الآن طالبت بأي حق من حقوقها الحياتية، ولنتقارن ردود فعل القوم مع ردة فعل الرسول صلى الله عليه وسلم. مع استحالة المقارنة، لأن أم سلمة رضي الله عنها كانت تطالب بالمساواة مع الرجال في ذكر القرآن للمسلمين نساء ورجالاً. مع يقينها كناطقمة بالعربية التي نزل بها القرآن أن اللغة في خطابها

للكور تشمل المؤنث والمذكر. وفي خطابها للإناث لا تشمل الذكور. إلا في حال ذكر "الرجال" وغيرها من الألفاظ الدالة على تخصيص الذكر بأمر معين. فمثلاً في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (سورة النساء، 103). الآية تشير لفظاً إلى المؤمنين وليس إلى المؤمنات، ولا يعني هذا أن تسقط الصلاة عن المؤمنات برغم عدم ذكرهن في النص.

ومثال آخر: إذا دخل شخص على نساء ورجال وقال: السلام عليكم جاز للنساء والرجال أن يقولوا: وعليك السلام. أما لو دخل على الرجال والنساء وهم معاً وقال: السلام عليكم لوجب على الرجال الصمت ولوجب على النساء فقط الردّ عليه.

وعلى هذا الأساس تفهم التكاليف في كتاب الله. وعلى هذا الأساس لا تسقط الصلاة ولا الزكاة ولا صوم رمضان ولا الحج عن النساء. وبما أنها لا تسقط عن النساء برغم الخطاب الذكوري في اللغة فإن هذا يقودنا إلى رفض الانتقاء ورفض توزيع الأدوار التي جاءت حسب العادات وليست حسب خطاب القرآن لمن آمن به.

وهذا مثال آخر. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (سورة النساء، 10). لنفرض أن امرأة أكلت مال يتيم بطريقة ما، فهل يشملها التهديد في الآية والذي نصّ على أن الذين يأكلون أموال اليتامى سيصلون سعيراً؟ أم أنها ستنجو من العقاب على اعتبار أن النص لم يقل اللواتي يأكلن مال اليتيم بل قال الذين يأكلون مال اليتيم؟

المرأة كالرجل في خطاب القرآن للمسلمين عامة. ومع ذلك أم سلمة تطلب تخصيص بعض الآيات للنساء.

عاد الناس إلى جاهليتهم وظلت بقايا النظرة الدونية متوارثة عبر الأجيال إلى يومنا هذا برغم التدين الشديد الظاهر على المجتمع. لكنه تدين انتقائي يختار المجتمع فيه من الدين ما يراه مناسباً لأهوائه ويُغفل تطبيق ما يلزمه بما لا يريد الالتزام به. أو يقومون بتأويل آيات الله حسب ما يرونه مناسباً لهم لا كما يتناسب وعدل الله وسماحة الدين ويسره. وظل الناس حتى يومنا هذا يستمتتون في الدفاع عن عادات مقبولة قاومها الإسلام وأدخلتها الديانات الوثنية التي كانت قبل الإسلام في بلاد فارس والرومان وكذلك الديانة اليهودية المحرفة.

اجترار التراث (1)

لا تدع إلى القوة التي تساند السود أو البيض ولكن
ادع إلى قوة العقل.

كتب النعمان بن أبي التناء كتاباً بعنوان - الإصابة في منع النساء من الكتابة - وقال فيه: (أما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله، إذ لا أرى شيئاً أضر منه بمن فإنهن لما كنَّ مجبولات على الغدر كان حصولهن على هذه الملكة من أعظم وسائل نشر الفساد، وأما فأول ما تقدر المرأة على تأليف بها فإنه يكون رسالة إلى زيد ورقعة إلى عمر وبيتاً من الشعر إلى عذب وشيئاً آخر إلى رجل آخر فمثل النساء والكتب والكتابة كمثل شرير سفیه تهدي إليه سيفاً أو سكير تعطيه زجاجة خمر فاللييب من الرجال من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى فهو أصلح لمن وأنفع)⁽²⁾.

هذا الرجل يرى أن النساء مجبولات على الغدر وهذا يعني أن الغدر ضمن تكوينهن الذي خلقهن الله به، فكما أن للإنسان رأس وعينان وفم ولديه مشاعر معينة منها الحب والخوف فإن المرأة تزيد على الرجل بما لديها من طبيعة الغدر التي لا تفارقها مهما كانت تربيته أو ثقافتها أو دينها، لأنها جبلت على ذلك. ولهذا فالكاتبات

(1) التراث هو الجانب الفكري من أفهام العلماء والفقهاء والمفسرين والكتاب المحدثين والقدماء وشروحهم للنصوص الشرعية. أما ما بين دفتي المصحف فهو كتاب الله الكريم الموحى من عند الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

(2) المرأة واللغة للدكتور عبد الله الغدامي، ص 111.

يرى أن تعليمها القراءة والكتابة لن يعود عليها بنفع إذ إنها فقط سوف تحون زوجها بكتابة الرسائل لرجال آخرين.

والنعمان بن الثناء ليس غريباً فيما ذهب إليه من منع تعليم المرأة، إذ لم يكن تعليمها أمراً مستحباً ولا ضرورياً. وقد يكون ممنوعاً في بعض الأوقات.

وكلنا يعلم عن الرفض والمقاومة التي كانت ضد تعليم المرأة في بدايات الدولة السعودية إذ إن تعليم المرأة دخل بقرار الحكومة دون رضا كثير من الرجال الذين مانعوا تعليمها ككل شيء يأتي في بداياته إلى الناس.

نعود إلى كاتب النص السابق إذ إنه ليس هو الوحيد الذي رأى في النساء هذا الرأي بل هناك من جرّدها تماماً من إنسانيتها ورآها مخلوقة من أجل إشباع رغبات الزوج الجنسية فقط وما عدا ذلك ليست شيء⁽¹⁾، ولم تخلق في الأرض كإنسانة مكلفة بعمارتها، وحاملة للأمانة التي حملها الرجل، إنها فقط لمنعته. ولننظر ماذا في كثير من كتب الفقه. ومنها هذا النص عن الرجل الميت: (فإن لم يكن له - أي للميت - مال فكفنه ومؤونة تجهيزه على من تلزمه نفقته؛ لأن ذلك يلزمه حال الحياة فكذا بعد الموت، إلا الزوج لا يلزمه كفن امرأته ولو غنياً لأن الكسوة وجبت عليه بالزوجة والتمكن من الاستمتاع وقد انقطع ذلك بالموت)⁽²⁾.

وفق ما ورد في النص السابق ليس على الرجل أن يشتري كفن زوجته إذا ماتت حتى لو كان غنياً. لماذا؟ لأنه كان يشتري لها الثياب

(1) لا زالت هذه النظرة موجودة حتى الآن في المجتمع ويدلل عليها ما يقول به البعض عن بيت المرأة وضرورة ملازمتها له وخدمتها لزوجها وبيتها.

(2) الروض المربع للشيخ منصور البهوتي، ص 115.

والطعام أثناء حياتها مقابل أن يستمتع بها، أما إذا ماتت فلن يتمكن من ممارسة الجنس معها لهذا ليس عليه دفع قيمة الكفن. أي.. كيف يدفع ثمن شيء لن يعود عليه بفائدة حتى وإن كان هذا الشيء كفن لزوجته. فأبي إنسانية لديه ولدى من مثله؟ هل قال الإسلام بهذا؟ أم أنه رأيٌ لبشر. مجرد بشر يخطئ ويصيب. وماذا عن باقي الأخطاء التي عمّت المجتمع ولبست لباس الدين؟ حسب رؤية الكاتب، ليس بين الزوجة وزوجها حب أو مودة ورحمة، ليست شريكة حياة، ليست شيء على الإطلاق. إنها لمتعته فقط، يحتاج منها جسدها تماماً كما يحتاج السرير للنوم والكرسي للجلوس. أما مشاعر السرير أو الكرسي فلم يفكر بها لأنه لا يقر بوجودها أصلاً، والمرأة كذلك. فإذا لم يعد قادراً على الاستمتاع بجسدها بسبب موتها فلماذا يصرف درهماً لا يعود عليه بمتعة؟ ويُفهم من هذا أن استمتاعه بها لا يقابله استمتاعها به فليس لها حق فيه، وكيف يكون لها حق وهي لا شيء؟ إنه يدفع لها ثمن الطعام والشراب والكسوة وهي حية لأنه يريد بقاءها ليعاشرها في الفراش. وهذا يعني أمرين: الأول هو أن علاقته الجسدية بها هي كل ما يربطه بها. والثاني هو أن علاقته الجسدية بها قائمة من طرفه هو دون أي اعتبار لرغبتها أو عدم رغبتها، أي حسب شهواته فقط. أما وقد ماتت فليس عليه ثمن كفنها.

كنت قد سمعت بعض النسوة يتندرن بهذه القصة إذ يقال (أن رجلاً ماتت زوجته فكان يمشي في جنازتها ويكي بكاءً شديداً جعل من حوله يحزنون عليه فقال له أحدهم: توقف يا صديقي عن البكاء وغداً بإذن الله سنذهب سوياً ونخطب لك ابنة فلان الفلاني فبكى الرجل من جديد وقال: وماذا أفعل الليلة.. هذه الليلة).

أقول كنت أسمع النساء يروين هذه القصة فأراها مبالغة تظلم الرجل ولم أتصور أن هناك من لا يتأثر بخبر الموت حتى وإن كان

الميت غريباً عنه فكيف بمن مات من أهل الدار. وعندما فتشت أنواعاً من الكتب وجدت نصوصاً نقلت لكم منها ما أستدل به على نظرة البعض للمرأة ومكانتها عندهم. وتلك الكتب شاهد على مكانتها في المجتمع الذي لا زال يطبعها ويدرسها بل ويتناولها بكثير من الاحترام والتبجيل. هذا الرأي في الكتاب لم يستلهمه المؤلف من المريح أو من سكان كواكب خارج مجموعتنا الشمسية. لقد تربى وتعلم ضمن التراث العربي الذي وضع المرأة دون الرجل ورحب بمثل هذه الأقاويل حولها.

ما الذي جعل الدين في عقول البعض يصبح بهذه الصورة؟ والمفاهيم التي يقال إنها تمثل الإسلام كيف تم تحريفها لتخرج بعض الكتب وتصور لنا علاقة الرجل بزوجه علاقة جسد فقط؟ جسد ولا غير. وهل يطبق الأسوياء من الرجال هذه العلاقة؟ هل يستطيع الرجل الطبيعي السوي نفسياً أن يكون مع زوجته وتكون هي معه قلباً بلا قلب. يراها حين يريد إفراغ شهواته ثم لا يأبه بما تشعر به حينها؟ ولا يكون بينهما أي شيء آخر إلا ما يأمرها به لخدمته؟ لا شك أن هذا لا ينطبق على الرجال ولكن ينطبق على الشواذ منهم أما ذوو الطباع السوية فنفسهم تسمو بهم عن هذه البهيمية. إن التعامل الكريم واللباقة واللطف صفات يتوجب على المسلم التعامل بها مع كل الناس.. كلهم.. فما بالناس برفيقة الدرب!

وقد نزلت الحيوان إذا ألصقنا هذا التصرف بالبهائم، إذ إن الطيور وبعض الحيوانات لا ترى العلاقة بين الذكر والأنثى كما يراها صاحب الكتاب السابق ومؤيدوه لأن العلاقة تقوم على رغبة مشتركة بين الطرفين، وهناك أنواع من الطيور إذا مات شريكها تبقى وفية له ولا ترتبط بغيره حتى تلحق به وتموت، فهل يعقل أن تتفوق المخلوقات التي سخرها الله للإنسان في حسنها الإنساني على

بعض بني البشر؟ إن تفضيل الله للإنسان على كثير من خلقه يعني عدم انحداره إلى المستوى البهيمي الذي يصل إليه بعضهم في تعامله مع النساء، متجرداً من الأخلاق والقيم الإنسانية ناهيك عن قيم الدين الحنيف الذي جاء رسوله ليتمم مكارم الأخلاق.

فإذا تابعتنا القراءة وجدنا هذا النص الذي يمثل رأياً فقهياً في علاقة الرجل بزوجه يقول (وله منعها - أي منع زوجته - من الخروج من منزله ولو لزيارة أبويها أو عيادتهما أو حضور جنازة أحدهما)⁽¹⁾.

مثل هذه النصوص توضح عقلية المجتمع الذي كان فيه الكاتب، وكيف ينظر ذلك المجتمع للمرأة. فالزوج رجل ولهذا صارت له كل هذه الحقوق التي حولته إلى سجان وحولت المرأة إلى أسيرة يمرض أحد أبويها أو كلاهما فلا تخرج من بيتها. بل يموت أي قريب لها حتى وإن كان أحد الأبوين فلا تخرج أيضاً إلا إذا وافق زوجها.

أما الطلاق فتزخر كتب الفقه بالحديث عنه وكلها تقر أن للرجل حق تطليق زوجته متى شاء بدون علمها أو بعلمها. لا فرق. بل وله حق في توكيل من يطلقها عنه لو كان مسافراً أو غائباً. أما هي فتلعنها الملائكة الليل كله لو نام زوجها وهو غاضب.

ما أستغربه كثيراً هو أن الفقهاء اتفقوا على أن عقد الزواج لا يصح إلا بموافقة المرأة وأن موافقتها تلك يستدل عليها بصمتها إن كانت بكرةً لأنهما ربما ستحجل من الموافقة الصريحة. أما الثيب فتستأمر. أي يطلب أمرها بالزواج، وتُسمع موافقتها بشكل واضح. فإذا كان العقد لا يتم إلا بموافقتها فكيف يتم فسخ هذا العقد دون

(1) الروض المربع، ص 333.

علمها ودون موافقتها؟ ألا يستحق الأمر بعض التأمل من الفقهاء ورجال الدين؟ كيف تبرم العقود بموافقة طرفين ثم تفسخ دون موافقة أحدهما أو علمه؟ وكيف لا تستطيع تطليق نفسها إن أرادت ورفض الرجل؟ ولا تستطيع تزويج نفسها إلا أن وافق الرجل؟ إنها غير كاملة الأهلية منذ الولادة وحتى الممات.

والجملة التالية لنفس الكاتب في نفس الكتاب ص 377 (ولا يلزم الزوج لزوجته دواء وأجرة طيب إذا مرضت، لأن ذلك ليس لحاجتها الضرورية المعتادة، وكذلك يلزم ثمن طيب وحناء وخضاب ونحوه من أراد منها تزويجاً أو قطع رائحة كريهة) يعني لا تدفع ثمن أي شيء إلا إذا كان لك ومن أجلك أما من أجل زوجتك فلا. حتى إذا مرضت لا تدفع ثمن الدواء لكن إذا كنت تريد أن تراها متزينة، حينها فقط يمكنك أن تدفع ثمن الزينة.

هل يمكن لمن يملك الحد الأدنى من إنسانيته أن يقبل بهذا القول. الإسلام يحث على الاعتناء بالجار وهو جار فقط وليس من الأقرباء، وأوصى جبريل عليه السلام رسول الأمة صلى الله عليه وسلم بالجار حتى ظنّ الرسول أنه سيكون من ضمن الورثة. إلى هذا الحدّ يربي الدين في قلب المسلم حب الخير للناس وهم أغراب وليسوا من أهل الدار فما بالكم بالزوجة. ودعونا نتصور أن عائشة رضي الله عنها - تلك الحميراء التي يسابقتها رسول الله فيسبقها مرة وتسبقه أخرى - تصوروا لو أنها مرضت واحتاجت إلى دواء، هل سيتردد من جاء ليتمم مكارم الأخلاق في دفع أجرة الطيب أو ثمن الدواء إن كان مستطيعاً؟

وابن كثير على ما له من مكانة بين المفسرين يحط كثيراً من قدر المرأة إذا تناول بعض الآيات بالشرح والتفسير. ففي تفسير قوله تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ» قال: (السفهاء هم النساء

والأطفال⁽¹⁾. هكذا فهم الآية. وهكذا فسرها. وهذا يعني أن الرجل حتى وإن كان فاسقاً مقامراً مرايياً مصنّعاً للخمر أو متاجراً به أو شارباً له أو حتى وإن كان لواطاً فاجراً أو مجرمًا يشعل الحروب ويقتل الناس فإنه يخرج من دائرة السفهاء. والمرأة حتى وإن كانت صوامة قوامة ودود ولود طاهرة عفيفة. صادقة أمينة حافظة لكتاب الله محافظة على فرائضها. أو كانت متفوقة أو مثقفة أو عالمة فإنها تبقى سفيهة!

وفي كتاب بعنوان "نحو مجتمع أفضل وإعداد جيل مهذب" من تأليف عبد السلام هاشم حافظ والكتاب عبارة عن مقالات للكاتب نشرت في عدد من الصحف السعودية قال: (المرأة يجب أن تتعلم ولكن في حدود.. أجل يجب أن تتعلم في نطاق العلوم التهديبية المستمدة من كتب الدين.. ولا تتجاوزها إلا لتزيد ثقافة عامة.. لتصبح أكثر قابلية لمهامها كسيدة مصلحة منتجة في بيت أبويها أو زوجها أو المدرسة.. مجالاتها المشروعة وميادينها التي منها تتحرك وإلى قواعدها تعود وإلا فإنها إذا تجاوزتها فإنها تطفر طرفتها ولن يصلح العطار ما أفسدت هي)⁽²⁾.

وفي ذات الكتاب كتب المؤلف نقلاً عن غيره (التهذيب الديني ضروري جداً في مدارس البنات لأنه أقوى ضمان لسعادة الزوجين وينبغي أن يكون تعليم المرأة دينياً لا عقلياً لأن ضعف المرأة وتزعزعها في آرائها وحاجاتها المستمرة إلى سند تستند إليه وشعورها بالحاجة إلى من يساعدها كل ذلك يستلزم تثقيفها ثقافة دينية منظمة) نحو مجتمع أفضل/عبد السلام هاشم حافظ، ص 46.

(1) تفسير ابن كثير، الجزء الأول، ص 410.

(2) كتاب نحو مجتمع أفضل، ص 26. ونشرت هذه المقالة في جريدة المدينة المنورة في 16 و1377/10/23هـ.

وقد عاد المؤلف ليكرر عبارة (أن يكون تعليمها دينياً لا عقلياً) في ثلاثة مواضع من ذات الكتاب على الأقل. والكتاب مليء برؤية الكاتب للمرأة. وهي رؤية تكشف عن واقع النساء في المجتمع ونظرة الرجال لهن.

أعود إلى أول النصوص التي نقلتها هنا. وأقول هو أولاً منشور في صحيفة سعودية يمكن أن تعكس رأي المجتمع في الشأن النسوي في ذلك الوقت.

وثانياً: يرى الكاتب أن على القائمين على تأسيس تعليم المرأة أن يكون تعليمها دينياً فقط وأن لا تتعلم المرأة علماً عقلياً. وأظنه يرمي إلى جعل جميع المواد مواداً دينية فقط بحيث لا تفقه شيئاً في الجغرافيا مثلاً أو التاريخ أو الرياضيات أو الكيمياء أو اللغة العربية أو الإنجليزية... إلخ. وهذا فيما أعلم كان رأياً سائداً فيما مضى. إذ إن تعليم الفتاة أمور الدين لتعرف كيف تصلي وكيف تستسلم لزوجها في خضوع تام وتخدمه في تفران وإخلاص هو كل ما كان يراد من التعليم في بداياته عندما وافقوا على دخوله على مضض.

أما ملاحظتي الثالثة فهي تأكيد الكاتب أن مجالها البيت. وهي إما في بيت أبويها أو زوجها. ولا مجالات أخرى يمكن أن تكون فيها وإلا فإن العطار لن يتمكن من إصلاح ما سوف تفسده بخروجها من أحد المنزلين المسموح لها بالعيش فيهما.

نلاحظ أخيراً رأيه في المرأة كإنسانة. فهي مزعزعة وضعيفة ولديها حاجة مستمرة إلى سند وأي تعليم غير الدين سيؤدي إلى أن تطفر طفرتها حسب قوله. ولقد تأملت كثيراً عبارة - تطفر طفرتها - هذه. وتابعت قراءة الكتاب فأدركت أن الكاتب يرى أن على الرجل أن يحد من حركة المرأة ومن تعليمها وإلا فإنها ستفسد وتُفسد. أي أنه يرى كغالبية أهل وقته وكثير من رجال هذا الوقت

أن المرأة لا أمانة لها وستسارع إلى الخيانة ما لم يقف ببابها حارس يحمي عفتها. ولم يتحدث الكاتب عن عفة الرجل وكأن الزنا ليس محرماً على الرجال أيضاً.

ويقول في موضع آخر من ذات الكتاب في مقال له بعنوان - حطموا أصناف المودة⁽¹⁾ (من أخطر التقاليد الدخيلة في بلادنا تفنن المرأة في الأزياء وأصباغ الجمال وكان طبيعياً أن تتركب هذه المرأة المتفرنجة رأسها وتسائر جهالتها إزاء تسامح أولي أمرها. بل إهمالهم وتجاهلهم للواقع المريب بوجه أصح. كأنما الرجل شيئاً مهملاً. وهذا أصدق وصف لموقفه السليبي هنا. بعد أن غدا يتنازل عن مكانته الخطيرة كقيم وراع ومسؤول عن رعيته... إلى أن يقول في منتصف المقال - وأصبحت علبة الزينة تحتوي على أصابع الحمرة والمناكير وزجاجات الروج والماكياج بعد أن كانت مقتصرة على العطور والبودرة والكحل. وهكذا اختفى الحسن واختفت معه نضارة الحيا الطبيعية وأمواج وعقائص الشعر المسترسل البديع... ويختتم مقاله بقوله - يا قوم إن مسؤولية هذا العمل التي تتهدد تقاليدنا ومجتمعنا واقعة على هذا الرجل القيم على أسرته ولسنا في حاجة إلى إزجاء النصح وتكرار ما هو واضح كالنهار.. ونرجو أن ينتبه أولياء الأمر وأن يوجد الرجل الذي له كلمة في كل محيط مع التوعية الإسلامية ليحطم أصنام المودة التي غيرت من طبائع نساءنا وهي تعبت في الهيكل الناعم وحيويته وأوضاعه⁽²⁾.

من الواضح أن كاتب النص السابق يجب شعر المرأة مسترسلاً موجاً. لذا فقد أراد أن تلتزم كل النساء بذات التسريحة التي يجب أن يراها على زوجته أو ابنته. ونشر مقاله هذا خوفاً من تبدل الأحوال

(1) المودة يقصد بها الموضة.. وقد بدأ في تلك الآونة انتشار أدوات الزينة بعد أن كانت النساء لا تجد إلا الكحل والديرمة والقليلاات منهن لديها بودرة للخددين.

(2) نحو مجتمع أفضل، عبد السلام هاشم حافظ، ص 75.

وانتشار التسريجات المختلفة. فهل له الحق في فرض ما يجب حتى على أقرب قريباته ناهيك عن أن يطالب بأن يهب الرجال لمقاومة كل ما ذكر في مقالته وليست سوى عطور ومساحيق للزينة وأساليب في تمشيط الشعر؟ أم هكذا هو حال الرجال، فكلما حدث شيء ولو كان شكلياً وغير ذي قيمة تنادوا وتكتلوا لمنعه قدر استطاعتهم؟ وهل لا زالت النساء تعاني من مثل هذه الدعوات. أجيبيكم بـ نعم. نعم، فكل أساليب المنع والقمع في مدارس البنات وكلياتهن جاءت من هذه النظرة ومن هذا التنادي وهذا التصايح من قبل الرجال المتعصبين ضد المرأة. ولا زال ممنوعاً إلى اليوم في مدارس تعليم البنات قص الشعر بطريقة معينة. وكأن طول الشعر وقصره سيجعل من الطالبة طالبةً نجيةً وسيساعد على أن تنمو شخصيتها بشكل سليم.

هل كنا لنتصور أن هناك من يرى أن على الرجال أن يهبوا من أجل منع فلانة من قص شعرها أو إطالته؟ ولكم أن تتخيلوا وجود ضوابط لقص الشعر مكتوبة ومعمول بها رسمياً في مدارس تعليم البنات⁽¹⁾.

وإذا عكسنا الأمر. وتصورنا أن سيدة كتبت مقالاً تنادي فيه المجتمع للوقوف والتعاضد لمنع الرجال من إطالة اللحية. فهل ستنتشر الجرائد التي "يشرف على كل ما فيها رجال" مقالها الراض لإطالة اللحية. وإذا نشرت الجريدة مقالها ذلك فهل سيأخذ الناس رأيها مأخذ الجحد أم ستكون مجالاً للتندر والسخرية؟ وإذا نظرنا إلى الموضوع بروية وتعقل وموضوعية تامة. ألا نعتبرها قد تدخلت في خصوصيات الآخرين؟ أي أنها تدخلت فيما لا يعينها.

(1) الضوابط يتضمنها كتاب (قواعد تنظيم السلوك والمواظبة لطالبات مراحل التعليم العام) الصادر من الإدارة العامة لتوجيه وإرشاد الطالبات، تعد صبغات الشعر الغريبة مخالفة سلوكية من الدرجة الثالثة، ص 25.

ولا أستغرب هذا الوضع للنساء. فقد كان استعباد الناس موجوداً وكثير من البيوت بها مملوك أو مملوكة على الأقل وكانت كتب الفقه تزخر بأبواب الرق فتفصل المسائل في كل ما يتعلق بفقه الجواري والعبيد ولم يقل أحد الآن أن تحرير الرق عطل النص وتطبيق النص وألغى أبواب الفقه التي اشتغل بها الفقهاء فيما مضى.

ونعلم أن الإسلام فتح أبواباً عديدة ليساعد على تخليص الأرقاء من العبودية. فهل عمل بها المسلمون ليساهموا في إنهاء الرق في بلاد المسلمين؟ المسلمون لم يحرروا عبيدهم إلا بقرارات حكومية ألزمتهم بذلك. إذاً وبرغم كل ما أتى به الإسلام من وصايا من أجل إعتاق المملوكين لم تتحقق الحرية لهم إلا حين ألزمهم النظام بذلك.

وهكذا ظلت النظرة للمرأة دون مراجعة حقيقية برغم ما يحدث من تجاوزات لتعاليم الدين الحنيف في حقوق النساء. أليس طلب العلم فريضة على المسلمين؟ ألا يمتلئ القرآن الكريم بالآيات التي تؤكد على التفكير والتعقل والتدبر؟ وهذا يعني استخدام العقل. ومع هذا لم يقاوم - كثير من - الرجال تعليم المرأة في بداياته. وإذا كان تحرير العبيد عند غير المسلمين تطلب هذه الثورة العالمية على الظلم وتطلب وجود قياديين يؤمنون بحقوق الإنسان لمجرد إنه إنسان كرمه الله تعالى بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى كالدين أو العرق أو اللون أو الجنس. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء، 70).

فالإنسان مكرم من ربّ لمجرد إنه إنسان. ولا شك بأن كل انتهاك لهذا التكريم يكون مخالفة لما أمر به الله الناس كافة من أجل سعادتهم. أقول إن كان العالم كله عند غير المسلمين قد تطلب وجود قرارات تلزمهم بعدم استعباد الناس فإن المسلمين كانوا في غنى عن

تلك القرارات لأن دينهم يدلهم على الصواب. ومع وجود هذا الدين وتلك التعاليم عن كرامة الإنسان وحقوقه ووجود أبواب كثيرة لإعتاق المملوك ظل الرق منتشرًا وله أسواق يباع فيها الناس كما تباع البهائم. ولم ينته الرق إلا عندما ألزمتنا العالم المتمدن بإنهائه تمامًا⁽¹⁾. ولولا ذلك لكننا إلى الآن نبيع الناس ونشتريهم ولكننا نبرر موقفنا بأن الدين أتاح لنا هذا التصرف. فهل سنتظر إلزامنا من العالم المتمدن أيضاً لنحترم النساء ونرفض التمييز ضدنهن ونؤمن بأن الله كرمهن بمجرد كونهن من نسل آدم لأنه كرم بني آدم بصفة عامة. ثم كرم المسلمة بصفة خاصة بأن جعل لها حقوقاً لا يجوز لأحد استلابها تحت أي مسمى ولا بأية حجة. هل سنتظر المتمدنين ليفرضوا علينا احترام نساءنا ثم نقول حينها إن ديننا كان يأمرنا بعدم ظلمهن، تماماً كما فعلنا في مسألة العبيد. هذا ما سيحدث. فالكون كله يسير في اتجاه ونحن نسير في الاتجاه الآخر فإما أن نبقى خارج العالم وهذا ما لا نستطيعه على الإطلاق. وإما أن نكون معهم وفق ما يتقرر من حقوق للإنسان واحترام لكرامته. والإنسان تعني الأنثى والذكر - لا فرق -.

وإذا قلبنا أكثر في الكتب - حديثها وقديمها - والمطويات والندوات والمحاضرات وتابعنا بعض الفضائيات وقرأنا في مواقع تدعي أنها إسلامية على شبكة الإنترنت واطلعنا على الموقف في كل هذا من النساء أدركنا الأثر الذي تركته تلك الكتب والفضائيات والمواقع والأشرطة في نفوس دارسيها ومتابعيها. ودارسوها لهم تأثيرهم البالغ على الناس بشكل عام إذ إنهم بعد تخرجهم لا شك سيكونون خطباء وأئمة ومدرسين وأزواجاً وآباء وإخوة. يتشربون تلك التعاليم ويصدقون أنها هي الدين الحنيف ويتربون على النظر للمرأة بدونية.

(1) يمكن الاستزادة بالقراءة حول تاريخ الرئيس الأميركي إبراهيم لنكولن.

وفي أحسن الأحوال النظر إليها بشفقة على اعتبار أنها أقل مكانة وأضعف شخصية. فهل خلا الإسلام من الحب والخير إلى هذا الحد؟ وهل يرضى مسلم أن يكون الإسلام متهماً بالعنصرية ضد المرأة والظلم لها؟

وإذا كانت المرأة في نظر الرجل في الماضي شيطاناً يجب أن يعود بالله منه فإن من ينعتها بأي شيء آخر سيكون أفضل من ذلك الذي قال إنها شيطان مهما كان النعت الآخر مهيناً لها. وفي كتب التراث أن شاعراً قال:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين
لا شك أن بيتاً كهذا يسيء جداً لكل من تسمعه لهذا ردت
إحداهن عليه وقالت:

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شمّ الرياحين
لم تصر المرأة على إنها إنسانة. بل ارتضت أن تكون شيئاً آخر وهو نبات الريحان. ليس هذا وحسب. بل إن نبات الريحان هذا بطبيعة الحال لم يخلق لذاته ليستمتع بحياته كالبشر لكنه خلق من أجل البشر. وبهذا كان التشبيه، أي هي ترى أنها خلقت للرجل. ليستمتع بها. هو بشر.. هو إنسان. أما هي فشيء من أجله. هكذا صورت مكانتها عندما انبرت للدفاع عن نفسها. لم تدرك إنها إنسانة لكثرة ما قالوا لها إنها وردة وريحانة. وهذا على كل حال خيار أفضل بكثير من أن تكون شيطانة أو حية أو عقربة. لهذا قالت عن نفسها ريحانة يشتهي الرجل شمّها أما لو أنها ظلت ساكنة ولم ترد على الشاعر فهي شيطان يستعيد بالله منه.

لا شك أن في التراث الكثير من الخير والحق والصواب. وفيه أيضاً أخطاء لا تحصى ومواقف لا تعد كلها من أفعال البشر وليست

منزله. وحاشا لله أن يكون الظلم منزلاً والتمييز العنصري منزلاً والاستعباد منزلاً والقهر منزلاً.

كل ما ليس منزل من صنع البشر. ومهما كانت مكانتهم يقون بشراً ولهم أخطأؤهم. لكننا كمجتمع يأبى تنقيح ما لديه صرنا نجتر تراثنا لأننا اعتدنا أن ننظر للماضي بعين التبجيل. فبجلنا كل ما فيه من تراث وأخطاء ورجال. كل ما في الماضي مقدس لا يناقش ولا ينتقد وأي محاولة لإعادة تنقيحه أو اعتباره غير مناسب لتطور حياة اليوم يعد خروجاً عن الدين ذاته في نظر كثيرين. فأصبحنا كمجتمع غير قادرين على استبدال الخطأ الذي في التراث بالصواب والناس ليسوا كلهم على قدر من العلم ليتمكنوا من تجاوز ما يقدم لهم على أنه صواب وليبحثوا عن تفسيرات جديدة للنصوص الإسلامية تجعل حياتهم أكثر يسراً وسعادة. إذ إن الدين لا يشقى أحداً وليس عسيراً على أحد إلا إذا جعله الإنسان كذلك.

انغلقتنا على ذواتنا. ورفضنا التعرف على الرؤى الأخرى. تفوقنا على ما لدينا. والمجتمع المغلق على ذاته دائم التوجس من خطر قادم.. دائم التشكك في نوايا المجتمعات الأخرى التي لا هم لها - كما يزعم - إلا سحقه وذلك بالسطو على خصوصيته التي تشكلت من عادات يحرص على الحفاظ عليها والاستماتة في الدفاع عنها بغض النظر عن كون هذه العادات جيدة أو غير جيدة. إنها تمثله.. بل يكاد يكون لا أحد بدونها. وانطلاقاً من هذه القناعة التي مؤداها أن هناك مؤامرة كبرى يخطط لها الجميع لاغتياله، انكفاً على نفسه وتقوقع عليها وصار يقاوم كل جديد سواء كان مادياً أو معنوياً. ولا فرق إن كان الجديد من إنتاج الغرب المتأمر عليه حسب ما تصوره له مخاوفه أو كان فكراً من عقول ناقدة لأبناء ذات المجتمع أو حتى مطلباً من مطالب التقدم الحضاري لبناء الأمم. مؤكداً أن أي

قادم يستهدف الهدم لا البناء ووفقاً لثقافة مجتمعنا.. المتأثرة بالبيئة الصحراوية التي اعتادت على أحادية الرأي... توهم أنه مجتمع مثالي متمسك بالحق.. مالك للحقيقة. ولأن الحقيقة دائماً مجوزته كما يرى فإن كل ما يخالف ما لديه باطل بالضرورة. وعلى الجميع أن يتصدوا للمختلف بكل وسيلة.

وللمجتمع المغلق سلطة رهيبية، يستطيع بها وبضغط عاداته أن يجبر أعضائه على اعتناق ثقافته التي تعج بالأساطير والخرافات. يستطيع المجتمع المغلق بسلطته على أعضائه أن يفرض على الناس ما لا تستطيع فرضه قوانين الدولة. والإنسان في مجتمعاتنا - أنثى أو ذكر - يولد ليعيش ويموت على طريقة المجتمع وكما يريد له. فالإنسان في مجتمعنا يتحرك وفق ما يراه المجتمع مناسباً وليس حسب ما يريد كفرد. وفي اعتقادي أنه لا شيء يقهر الإنسان ويحد من إرادته أكثر من إرادة وسلطة المجتمع المغلق. فالجميع يخضع لقراراته. وحتى الدين المنزل من عند الله بأصدق ما فيه من نصوص قرآنية تم تأويلها وفق تقاليد وأعراف المجتمع.

وإذا كانت العادات والبيئة قد شكلت للإنسان هذه النظرة. فقد جاء التعليم والإعلام ليرسخ مفهوم الخصوصية وأهمية الحفاظ عليها بكل ما تحويه ويساهم في ترسيخ مكانة المرأة الأدنى في المجتمع من الرجل. ثم يعمل التعليم على توسيع الهوة بينهما أكثر وأكثر.

ودون فرز أو مراجعة أو مقارنة صارت كلمة خصوصية ذات قداسة معينة. ومن هنا صار واجباً على الجميع - من منطلق القول بالخصوصية - أن يتوحدوا في معتقداتهم.. ليس هذا وحسب.. بل وحتى في رؤاهم وأحلامهم مع ترديد عبارة أن الاختلاف ممكن ومشروع.

وبرغم أن هذا الاختلاف الذي قالوا بمشروعته لا يتعدى بعض المسائل الفقهية الخلافية - كغطاء وجه المرأة الخلافي في الأصل - ظل هذا القول لا يتجاوز الحناجر. أي أننا كمجتمع نردد معاً أن الاختلاف لا يفسد للود قضية. أما على أرض الواقع فإن الاختلاف في أمور ثانوية أو خلافية في أصلها. وحتى التي سكت عنها الشارع.. ودخلت ضمن معنى الحديث الشريف (أنتم أعلم بأمر دنياكم) تجعل من يقوم بها يدفع ثمناً غالياً جداً معنوياً أو مادياً أو الثمنين معاً. ودفع الثمن هذا هو ما يتجنبه الناس عادةً، لأنه يطال السمعة ويزلزل المكانة الاجتماعية للأفراد والعوائل. وقد يهدد وظائف المعلمات أو أي عاملة في أي قطاع حكومي أو حتى أهلي. والنتيجة هي وجود قوالب محددة سلفاً تقولب أعضاء المجتمع وتعطي نسخاً متطابقة في التفكير ونمط الحياة. ومن هنا رأينا كيف أن مجتمعنا يريد أن يصبح الناس كلهم مؤمنين بما لديه بل ويجبون ما يحب ويكرهون ما يكره.

إن الاستمرار في استرجاع الماضي والتأكيد على أن كل الصلاح في اجتراره وعدم نقد محتواه يعني تعطيل العقل الناقد والعقل المنتج المبتدع. إن هذا التعطيل يؤدي بالضرورة إلى الجمود بل والتراجع في المجتمع بأكمله. لأن كل ما لا ينمو سيضمحل بالتأكيد. وكل ما لا يتقدم سيتأخر. لكن المجتمع يخاف من التجديد والتغيير باعتبار أن الابتداع بدعة والبدعة ضلالة.

مجرد أسئلة

مما قال ابن تيمية رحمه الله: إن إن صريح المعقول
لا يعارض صحيح المنقول.

لم تكن صلاة التراويح في المساجد بهذا الشأن في عهد رسول
الله ولم يأمر بإقامتها كل ليلة صلى الله عليه وسلم. لكن عمر بن
الخطاب ابتدع إحياءها في المساجد في رمضان. فهل يجوز أن نقول
عنها ضلالة؟! لم يكن الناس قد درسوا علم النحو ولا العروض في
عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا فإن دراستهما بدعة. ويمكن
أن نرى ونلاحظ كم البدع التي في حياتنا. إنها تفوق تصورنا.
موقف آخر يسجله التاريخ لعمر أيضاً رضي الله عنه إذ إنه
رفض تقسيم أرض في ريف العراق بعد فتحها اقتداء برسول الله
صلى الله عليه وسلم الذي قسّم أرض خيبر بعد فتحها. وهو هنا
يخالف سنة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم. عندما قال
للصحابه رضوان الله عليهم: إن قسّمتها بينكم فما يبقى لمن جاء
بعدكم من المسلمين؟⁽¹⁾.

أما أقوى المواقف التي اتخذها عمر بن الخطاب رضي الله عنه
فهو ما فعله بشأن حدّ السرقة وقطع يد السارق. لقد أوقف الحدّ
عندما وجد أن الجوع يجتاح الناس، لعلمه أن الحدود لحفظ الحقوق
وليست تعسفية ظالمة⁽²⁾.

(1) نقد العقل المسلم، عبد الحليم أبو شقة، ص 70.

(2) موسوعة فقه عمر بن الخطاب، د. محمد رواس قلعه جي.

إذاً عمر رضي الله عنه ربط الأحداث بواقعها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حدث فيه وظروفها التي أحاطت بها ولم يتجمد عند نص معين يرى أن عليه تنفيذه حتى وإن تبدلت الأحوال وتغيرت دواعي التطبيق وستختلف نتائجه بالضرورة، وليس هذا حال عمر مع السنّة وحسب، بل مع الحدود أيضاً. لقد ابتدع رضي الله عنه في مواقفه كثيراً. ففي المثال الأول ابتدع شيئاً لم يكن موجوداً بصفته الحالية، وفي المثال الثاني ألغى شيئاً كان قد قام به الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي الثالث أوقف ما كان معمولاً به ومنصوصاً عليه في كتاب الله وهو حدّ السرقة.

فإذا كان صحابي جليل، كعمر رضي الله عنه شخصياً. وبمقام عمر كخليفة للمسلمين يتعامل مع أمور جليّة كالصلاة وحدّ السرقة وتقسيم الأرض المفتوحة على المسلمين بطريقة مغايرة لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم برغم قرب العهد بالرسول وتشابه زمانيهما تشابهاً كبيراً. فمن باب أولى أن ينظر فقهاء زماننا هذا والذي يبتعد بما يقارب ألفاً وأربعمائة عام عن زمن الرسالة وتختلف ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والبيئية عن الظروف التي كانت في ذلك العصر اختلافاً كاملاً. من باب أولى أن ينظروا إلى أمور أبسط وأقل شأناً من هذه بكثير. وبعضها ليست حتى من الدين أصلاً بل هي من أمور الحياة، لكنها ألّبت لباس الدين وتمّ تضخيم صورتها في أعين الناس. ومجرد الحديث عنها ونقدها يعدّ ضلالة. والضلالة ترمي بصاحبها في النار. فكيف لو فكّر شخص بتغييرها؟

وتضخيم النص وإبرازه للناس هو أود طرحه هنا. فقد أورد كثيرون نصاً ثم جعلوه يبرز بشكل جلي وواضح. وتمّ السكوت عن غيره الذي يتعارض معه. ليجعلوا رأياً يرجح على رأي. أو وبعبارة

أكثر دقة، ليغيبوا رأياً ويظهروا آخر. ليس إظهاراً وحسب، بل وبصورة لا تقبل المناقشة أو التفكير. ومن ذلك حديث: «لعن الله النامصة والمنتمص». .

كلنا يعلم أن اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله. وقد خطر ببالي منذ أن كنت ابنة الثانية عشرة عاماً سؤالاً لم يحرص أحد على أن يعطيني إجابته. ولكني أؤمن حتى وإن لم أجد الإجابة أن صريح المعقول لن يعارض صحيح المنقول. لأن هذا الدين من عند الله تعالى.

وسؤالي القديم يقول: إذا قتل رجل رجلاً خطأً أو قتل عمداً. فهل في القرآن الكريم أو السنة النبوية نصاً واحداً يقول بطرد القاتل وإبعاده من رحمة الله؟ على أن القتل - والكل يعلم هذا - إزهاق للروح التي هي من عند الله بدون وجه حق. ومع هذا يبقى القاتل ضمن رحمة الله ما دام من عباده الذين يؤمنون به ولا يشركون به أحداً. فكيف تطرد من رحمة الله امرأة نزعت شعرة من حاجبيها ولا يطرد القاتل؟

القتل جريمة.. والنمص نزع شعر.. ويا للمقارنة.. القاتل لا يُلعن.. والنامصة ملعونة.

النص يقول بلعن النامصة تحديداً.. ماذا لو نمص رجل شيء من شعر وجهه لأي سبب كان؟ هل ينطبق عليه النص حينها.. بالطبع لا، فاللعن للنامصة فقط.

هل يرى الفقهاء بأن عقوبة النمص تتناسب والجرم المقترف؟ هذا في حال التسليم لهم بأن النمص جرم. (وهذا ما لا أستطيعه أنا على الأقل).

إذا فعل الإنسان معصية، كأن يشرب الخمر أو يلعب القمار أو يمارس الزنا. فهل هو بهذه الأعمال كلها أو بعضها يكون مطروداً من

رحمة الله؟ إن المسلم لا يُلعن بحسب النصوص الصحيحة إذا فعل هذه المعاصي ويبقى تحت رحمة ربّ رحيم قال في كتابه العزيز: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر، 53).

إن الله يغفر الذنوب جميعاً. ثم يأتي بعدها (إنه هو الغفور الرحيم). فإذا كان المسلم قد أسرف، لم يذنب وحسب، بل أسرف في الذنوب فعليه أن لا يقنط من رحمة الله بحسب نص القرآن الكريم لأن الله يغفر الذنوب جميعاً. وهذا يعني أن المسلم إذا شرب الخمر أو قتل أو زنى أو عقق والديه أو فعل ما فعل من الذنوب والمعاصي فإنه يبقى تحت رحمة الله، ولا يطرد منها برغم كل ذلك الإسراف. فهل يمكن - عقلاً - أن تطرد من رحمة الله امرأة انتزعت من حاجبيها خمس شعيرات أو أقل أو أكثر؟ لماذا؟ وكيف؟ هل كونها امرأة سبب كاف للبحث لها عن ذنب لتطرد به من رحمة الله؟ البحث عن ذنب.. ماذا إذا لم تقترف الذنوب؟ ستطرد.. ستطرد ولو لم تفعل شيئاً سوى التخفيف من كثافة حاجبيها!

إن تبرير وجود نص اللعن للواتي يهذين شكل حواجهن يقول بأن سبب اللعن هو تغييرهن لخلق الله. لا بأس.. لماذا هذا النوع من التغيير فقط هو الممنوع. وليس منعاً كباقي الممنوعات. بل منعاً شديداً جداً إلى حدّ أن من تخالفه تذهب إلى النار فوراً فهي مطرودة من رحمة الله. إن هناك الكثير من الأساليب لتغيير الخلقة إذا كانت مثل هذه الأمور تدخل في مجال تغييرها. فلماذا النمص بالذات هو الذي يتطلب أقصى أنواع العذاب - وهل بعد الطرد من رحمة الله عذاب أشد؟

نأتي إلى أنواع وأنواع من تغيير الخلقة. والتي يقال أنها سبب اللعن. أليس تخضيب اللحي بالحناء وغير الحناء تغيير لخلق الله؟ ألم

يخلق الله شعر اللحية أسود ثم يجعله بمرور العمر أبيض فيعمد الرجل إلى صبغه بالحناء ليغير اللون الذي جعلها الله عليه؟ فلماذا حينها لم يلعن الرجل ما دام مغيراً للون الذي خلقه الله؟ بل هو مطلوب أن يغير لون البياض في لحيته حسب نصوص الأحاديث. كيف يلعن الحديث المرأة إذا نمت لأفها غيرت خلق الله ويطلب حديث آخر من الرجل أن يغير خلق الله بتخضيب لحيته البيضاء وتغيير لونها بالحناء؟ وفي البخاري في كتاب اللباس باب الخضاب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالقوهم». أليس في هذا النص أمر بتغيير ما فعله الله بالشعر الأسود حين جعله أبيض بقدرته. وكذلك خلق اللحية. أليست السنّة في إعفائها. فإذا حلقها الرجل خالف السنّة. وهو بحلقه للحيته يزيل ما يقارب المئة ألف شعرة وليست خمس شعرات. ولم نسمع أنه سيطرد من رحمة الله إذا فعل هذا. فغاية الأمر أنه خالف السنّة، أو أتى مكروهاً، أو على أعلى تقدير وحسب الآراء المتشددة جداً، قد فعل حراماً. لكنه ليس ملعوناً على كل حال. فلماذا لا يلعن مع أن تغييره لخلق الله أشد بكثير من تغيير المرأة لحاجبيها.

عندما يزيل الرجل مئة ألف شعرة من وجهه لا يقول أحد بأنه غيّر خلقه الله ولا يطرد من الرحمة. وتزيل المرأة خمس أو عشر شعرات فتطرد من رحمة الله!! على أي لا أرى أن الواجب هو لعن الرجل الخليق. لا.. فشعر وجهه على وجهه ولا يحق لي أن أملي ما أراه مناسباً له. لكنني أقارن لمجرد المقارنة لعل المقارنة برغم التفاوت الكبير بين كمية الشعر المزال من ذقن الرجل وحاجبي المرأة توضح الصورة.

ثم لماذا يصل الأمر في الحاجبين تحديداً إلى مستوى الطرد والإبعاد من رحمة الله بينما يحث الدين ذاته على إزالة الشعر من

الجسد في مواضع أخرى. أليست الإزالة تغيير لما خلق الله في كل الحالات؟ أم أن باقي مناطق الجسم ليست هي أيضاً من خلق الله؟ كيف وجب انتزاع الشعر من مكان وتم فهم نزعه من مكان آخر على أنه تغيير لخلق الخالق؟ وعلى فرض.. على فرض وجود ضرر من نزع شعر الحاجبين، مع أن هذا غير صحيح. فهل يعني ذلك لعن كل من فعل أمراً يؤدي إلى الإضرار بجسده؟ الخمر يؤدي الجسد قطعاً وليس فرضاً ولم يلعن شاربه. اللحم وهو لحم إذا أكثر منه الإنسان أدى إلى داء النقرس. فهل يُلعن من يكثر من أكل اللحم لأنه يضر بجسده؟

لم أستنتج بعد ما الفائدة المرجوة من وضع نص اللعن للنامصات ضمن هذا الإطار الضخم جداً. فالإسلام ليس ديناً تعسفياً ولا ملغياً للعقول. ولكن بعض الفقهاء أراد أن يعطي النساء مزيداً من الشعور بالدونية ما دام يورد اللعن ثم يضخمه إلى هذا الحجم دون إيراد للنصوص التي تدل على استحباب التزين للنساء. وبهذا فالنساء آثمات مهما تعبدن لله ومهما ابتعدن عن المعاصي. هن آثمات وسيقين في النار مطرودات من رحمة الله حتى لو لم يفعلن في حياتهن شيئاً سوى نزع بعض من شعيرات الحواجب ابتغاءً للتجمل. إن أبسط ما يطمحن إليه وهو تجميل شكل حواجبهن فقط يؤدي إلى إحراقهن في النار إلى أبد الأبد فهن مطرودات من الرحمة الإلهية فماذا لو اقترفن ذنباً أكبر!! أما الرجل فحتى وإن اقترف المعاصي كلها فإنه يظل يرحو رحمة ربه!!

كثيرة هي الأشياء التي تدهشني في مجتمعنا. لكن أمر الحاجبين هذا هو أكثرها غرابة. إن أمر الحاجبين وتهديهما صدرت به تعاميم عديدة ولوائح وأنظمة تجعله من أولويات العمل في المؤسسة التعليمية التربوية بل من أهم الأولويات. وانشغلت به العديديات انشغالاً فاق

تصور المتصورين. أقيمت من أجل الحواجب محاضرات وندوات وطُبعت كتيبات وحُسم على الموظفين درجات في تقييم أدائهن الوظيفي. لقد صار المجتمع كله يرى ما يرى من المشكلات والمهموم فلا يكثرث. ثم يسمع عن حاجبين مهذيين فتثور ثأثرته.

أيعقل أن تكون المعلمة ذات أداء ممتاز فلا يُنظر إلى أدائها ولكن إلى حاجبيها؟ إن في التعاميم التي تصل إلى المدارس أمر بالحسم من درجات تقييم الأداء الوظيفي للمعلمات إذا كانت بعض الشعر حواجبهن قد تمت إزالته.

متى يعمل الأئمة على درء تعارض العقل مع النقل بدلاً من تضخيم النقل وإلغاء العقل؟

وكنت قد سمعت الشيخ علي الطنطاوي رحمة الله في أحاديثه التي كان يبثها التلفزيون السعودي والتي أتمنى أن يعود التلفزيون لبثها من جديد يقول: النمص هو انتزاع الشعر. والحديث لم يحدد أي شعر هو المقصود والمسلمة عليها أن تزيل شعر بعض المناطق في جسدها وبالتالي فليس من المعقول أن يطالبها بأمر ثم يلعنها إن فعلته. لم يتناول الناس، ولا الأئمة والخطباء حديث القرع الموجود في البخاري إذ يقول: (عن نافع مولى عبد الله أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن القرع. قال: قلت: وما القرع؟ فأشار لنا عبيد الله قال: إذا حلق الصبي وتركها هنا شعره وها هنا، فأشار لنا عبيد الله إلى ناصيته وجانبي رأسه). إذاً قص شعر الصبي الذكر بالقصات التي تخفف من الجانبيين وتبقي ما بأعلى الرأس منهي عنها. لكن الكثيرين يعمدون إليها دون تردد أو حتى علم بوجود النهي. ليس لمثل هذا الحديث أي أثر في الحياة العامة. ولم يركز المحدثون والخطباء على مثل هذا الأمر

برغم انتشاره. لا شك لو أنه ينهى المرأة لما بقي في طيات الكتب. ولتردد بين الناس وانتشر انتشار النار في الهشيم.

ونأتي على حديث في صحيح مسلم في باب غلظ تحريم النميمة يقول: (عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث فقال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل الجنة تمام». وفي البخاري عنوان "باب النميمة من الكبائر" أورد فيه الأحاديث التي تدل على أنها كبيرة.

لا يدخل الجنة تمام حديث لا يتداوله الناس ولا يعلنه الذين يعلمون الناس. مع أنه حديث يربي الإنسان على الأخلاق الحميدة والتهديب العالي. أي أنه يهتم بالمخبر لا بالمظهر. ومع هذا لم يترسب في ذهن أحد غلظ تحريم النميمة، بعكس شكل الحاجبين اللذين لم يبق طفل ولا كبير إلا وأدلى بدلوه فيهما.

وفي صحيح مسلم في باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة حديث (عن المعرور بن سويد قال: سمعت أبا ذر يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»).

إذاً.. المؤمن بربه الموحد له يدخل الجنة حتى وإن جاء بما يوازي البحر ذنوباً، لأن الله لديه ما يوازيها مغفرة وأكثر أضعافاً مضاعفة. وبهذه المغفرة التي وسعت كل شيء يدخل المؤمن جنة الله. فكيف لم يحاول العلماء والفقهاء والأئمة درء هذا التعارض بين هذا النص وبين نص النمص؟ وأيهما أولى بالنشر بين الناس. حديث الرحمة والمغفرة التي وسعت كل شيء الذي يصور الإسلام دين رحمة ومغفرة؟ أم أحاديث الطرد والإبعاد من رحمة الله حتى وإن لم تقترب النساء ذنباً يذكر. ولكن تم تصوير نزع الشعر ذنباً.. وأي ذنب!

إذا كان كثير من الناس يرون أن تأمل نص حديث النمص ورفض التسليم لمعناه يؤدي إلى المعصية، إذا كان هذا هو رأي كثير من رجال الدين في هذا الحديث فإن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قد سبقتنا نحن - نساء اليوم - برفضها لحديث في صحيح مسلم نصه (المرأة والحمار والكلب يقطعون الصلاة) وفي صحيح مسلم أيضاً رواية أخرى لذات الحديث أضاف فيها "الكلب الأسود".

وأنا هنا أتناول النص كنص في حد ذاته مثبت في صحيح مسلم في كتاب الصلاة، بغض النظر عن موقف الفقهاء منه وعدم أخذهم به.

نص حديث يُخرج الخنزير وسائر الدواب من دائرة قطع الصلاة ويبقي المرأة والكلب والحمار. وفي رواية الكلب الأسود، أي أن الأبيض أو البني أطهر من المرأة أو أنها هي أنجس منه. وبحسب النص فإن الرجل الواقف للصلاة يعيد صلاته من جديد إذا مرّ أمامه كلب أو حمار أو أمه أو أخته أو زوجته أو ابنته. ولا يعيدها إن مرّ من بين يديه قط أو فأر أو خنزير.

هل يعقل أن يخرج مثل هذا القول من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لقد أغضب هذا النص أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ولهذا أخبرتنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهي معترضة بينه وبين القبلة وعندما يسجد تكف ساقها ليضع جبينه الطاهر صلى الله عليه وسلم مكان قدميها رضي الله عنها، وعندما يرفع من السجود تمدهما من جديد. ففي صحيح البخاري ومسلم إنها رضي الله عنها قالت: (كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي وإذا قام بسطتهما، قالت والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح).

رسول الله صلى الله عليه وسلم لكي يسجد يضع كفه الطاهر على رجليها لينبها فتفسح لجبينه مكاناً للسجود فإذا عاد واقفاً في صلاته تمد رجليها لترتاح في نومها إلى أن يسجد من جديد. فكيف اهتموا رسول الله بأنه يضع النساء مع الكلاب والحمير من حيث النجاسة؟

وفي البخاري عدد من الأحاديث التي تعترض فيها أم المؤمنين على مساواة النساء بالكلاب والحمير ومنها ما قالته رضي الله عنها: (بئسما عدلتمونا بالكلب والحمار، لقد رأيتني ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وأنا مضطجعة بينه وبين القبلة فإذا أراد أن يسجد غمز رجلي فقبضتهما).

إن وجود نصين في صحيح البخاري ومسلم أحدهما يقول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع النساء في صف بعض الحيوانات ونص آخر ينفيه بشدة بمدنا بالجرأة المطلوبة لكي نتساءل عن النصوص التي تلعن النساء لكونهن نساء حتى ولو لم يفعلن شيئاً سوى التزين بتهديب الحاجبين.

ومن بعد إصرار السيدة عائشة رضي الله عنها على عدم صحة ما قيل نقلاً عن رسول الله وتكذيبها لمن قال بأنه جعل النساء والحمير والكلاب في دائرة واحدة أقول بأنها رضي الله عنها أول امرأة ذُبت عن كرامات النساء ورفضت امتهاً. تمثل هذه الألفاظ وأكدت للأمة الإسلامية بأن أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم تتناقض تماماً مع ما قالوا أنه قاله. فمن أين جاءت تلك المساواة بالكلاب والحمير.

من وراء السور

إذا غنيت في الظلام فأنت تنكر قلقك لكنك برغم ذلك
لن ترى بوضوح أكثر.

لم أعد أستغرب وجود أكاديميات يرفضن مشاركة النساء في الحياة ويوقعن على العرائض التي يطالبن فيها منع النساء من قيادة السيارة. إذ حتى وإن كنّ أكاديميات وطبيبات ومعلمات فعقولهن أخذت كل ما فيها من المصدر الذي يقول بدونية المرأة. وحياتهن تسير وفق مجتمع الـ "حریم" القائم في بلادنا حتى اليوم. لذا فإن من الصعب عليهن هدم قناعاتهن التي رضعنها منذ الطفولة والتي بتجذرها في أعماقهن فقدن القدرة على استقبال أي رأي أو رؤية غير ما اعتدن عليه. لا ألومهن وإلا سأكون كمن يلوم الأعمى الذي لا يذهب خارج المدينة ليتأمل النجوم في ليالي الصيف.

يعلم كثيرون أن فكرة الحریم كنظام حياتي وما يتطلبه من نظام معماري يتم تصميم البيوت الصغيرة والكبيرة على أساسه ليتواءم مع نظرة المجتمع للمرأة بحيث يعزلها في مجتمع خاص بها قد وجد في المجتمع البيزنطي والفراسي قبل الميلاد. وفي ذلك الوقت من الزمان كان مفروضاً على النساء أن يغطين وجوههن لأسباب دينية وثنية لا نزال ندافع عنها ونصر إلهما إسلامية خالصة.

إن تلك المجتمعات بما لديها من عادات وتراث أثرت كثيراً في المجتمع العربي في نهايات الخلافة الأموية وعلى امتداد الخلافة العباسية. بعكس ما كان عليه المجتمع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين. هذا التحول في النظم الاجتماعية وتقاليدها بتأثير

الثقافات المختلفة أثر بشكل جذري على الفكر الفقهي في الإسلام وأنتج نظرة دونية للنساء الإسلام بريء منها كل البراءة.

المرأة إنسانة لها حق كأى مواطن على أرض وطنه. ولكن وبرغم كونها مواطنة لها حق على أرض وطنها فما أكثر الإساءات لها وإهانتها بشكل نظامي ورسمي عبر موظفين تخصصوا في متابعتها فلم يفرقوا بين عفيفة أو غير عفيفة. إذ إن كل من ارتدت السواد في ظنهم تستحق الكلمات النابية والتجريح والتلويح بالعصا، إن لم يكن التشهير وإساءة التعامل. ويظل ما يفعلونه قانونياً ولا حق لأحد في الاعتراض عليهم.

التنمية البشرية تجاوز مفهومها حدود إشباع الحاجات المادية الأساسية لدى الناس وصار يشمل كثير من الأشياء التي تحدد نوعية حياتهم وتوسع من مجالات اختياراتهم وتتيح لهم وجود العديد من البدائل. فهل نحن في مجتمعنا نعي دور التنمية وعلاقتها بالمواطن ونتعامل مع المرأة انطلاقاً من كونها مواطنة فعلاً؟ الحق أننا لا نزال - نحن النساء - نحاول أن نثبت داخل مجتمعنا أننا لسنا أنصاف بشر. وأكداد أجزم أن كل الندوات والمحاضرات واللقاءات والفتاوى والبرامج الدينية التي تتناول موضوعاً عن المرأة. مهما كان هذا الموضوع. لا تبدأ ولا تنتهي إلا وقد تضمنت التأكيد على أن ما ورد فيها جاء حسب الشريعة الإسلامية وكأن الرجل ليس مطالباً بأن يسير حياته هو أيضاً وفق الشريعة الإسلامية بل هو خارجها وفي حل من تطبيقتها. وعلى المرأة فقط الالتزام بتعاليم الشرع. ولم يمتلئ السمع والبصر بالندوات والكتيبات والمطويات التي تخص الرجل وتتحدث عن سلوكه وعاداته والقواعد التي يجب أن يسير عليها حياته حسب تعاليم الشريعة الإسلامية.

لا زال يلح على رأسي سؤال الكاتبة "فرجينيا وولف" مخاطبة النساء: (هل تعلمن أنكن ربما كنتم أكثر المخلوقات موضوعاً للنقاش

في الكون؟) نعم.. نحن النساء موضوع للنقاش. ليس إلا.. حتى الآن.
ولا أرى اقتراباً للوقت الذي ستكون فيه المرأة إنسانة بذاتها.

وإذا كانت المجتمعات المتقدمة قد انتقلت إلى الاهتمام بقضايا إنسانية مختلفة وعديدة كقضايا المستضعفين والمشردين والأقليات أو بحث سبل السلام... إلخ بحيث لا يفرق الطرح بين المرأة والرجل فيما يناقشه المجتمع المتقدم فإننا لا نزال نمارس تمييزنا المشرعن⁽¹⁾ والنظامي وتمييزنا غير المشرعن وغير النظامي ضد المرأة في مجتمع خاص بما يعزلها عن ممارسة الحياة الحقيقية. ولها في مجتمعها الخاص منذ ولادتها وحتى مماتها ولي أمر يمارس حياتها عنها حتى وإن تجاوزت الأربعين أو الخمسين أو المئة، لا فرق. فيما عدا التنفس والأكل والشرب. ولعله كان سيأكل عنها ويشرب ويتنفس لولا استحالة هذا الأمر. ثم يتردد في كل اجتماع أو مقال أو شريط أو كتيب - المرأة عندنا مكرمة معززة!! ويتم تصوير سلب الحقوق كرامة. والإصرار على أن ممارسة الحياة نيابة عن النساء راحة لهن وحفاظ عليهن.

المرأة ضمن مجتمع الخاص بها، هذا المجتمع النسائي المعزول عن عالم الرجل والذي من جهة يكاد يكون مخفياً عنه تماماً، ومن جهة أخرى يفرض الرجل سيطرته الكاملة عليه ويرسم للمرأة حياتها بكل تفاصيلها. فهو ولي الأمر.. وهو المحرم. وهو المسؤول في التعليم. والقاضي في المحكمة الشرعية. والشيخ في القبيلة، وهو المستقدم ليقود سيارتها، وهو الحارس على مدرستها، وهو الذي وضع المنهج المدرسي أو وافق عليه وهو الذي أصدر التعميم الخاصة بكيفية

(1) يتم إعطاء التمييز ضد المرأة صفة شرعية وصفة نظامية باستصدار فتوى واستصدار أنظمة. أما التمييز غير المشرعن وغير النظامي فهو ضمن الأعراف والتقاليد.

تعليمها مع أنه لا يراها ولا يعلم بكثير مما يحدث لها.. وهو الذي صمم مدارس تعليم البنات أو استأجرها لمن وفق ما يظن أنه مناسب لمن وهو الذي يلقي الخطب والمحاضرات لها وعنهما.. إلخ إذاً هو في أدوار عديدة يصوغ للمرأة من خلال أدواره تلك حياتها ويدعمه في ذلك أعراف المجتمع وتقاليده، فيسن وفق تلك الأعراف والتقاليد أنظمة للمرأة يوافق عليها الجميع ما عدا المرأة.

إن عزل المرأة ومنعها عن المشاركة في النهوض بمجتمعها من خلال التعليم والعمل والثقافة والفكر وفي شتى مناحي الحياة وحصرها في أدوار تحدّ من فاعليتها وتحجم دورها يجعلها تعود إلى المجتمع بصورة أخرى قد لا تكون هي الأمل. فالخروج إلى الأسواق بشكل متكرر دون حاجة، والتحول إلى الأساليب الاستهلاكية في أوسع صورها، أرى أنها محاولات للبحث عن معنى وقيمة لذاتها التي أضاعتها منها التقاليد حين منعها من تحقيق تلك الذات في معترك الحياة الحقيقية بحيث تكون عضواً نافعاً وفعالاً.

لا أحد ينتقص من قيمة البيت ودور المرأة فيه. بشرط أن يكون بيتاً فعالاً وليس مكاناً تسجن فيه المرأة. ولا أحد يقلل من شأن تربية الأطفال. بشرط أن لا تكون تربيتهم ذريعة لحرمانها من تحقيق ذاتها وإبعادها عن مجالات العمل والإنتاج والمساهمة في النهضة والتنمية بشكل فعلي. هذا مع العلم أن المرأة ليست في كل مراحل حياتها تدهد طفلاً على حجرها. فالطفل يكبر وتظل هي وفق أنظمة المجتمع خلف الأسوار. إذاً تربية الطفل ليست إلا ذريعة لعزلها عن الحياة.

ولا تزال كلمة حريم هي الكلمة الأكثر استعمالاً عند الحديث عن النساء والشأن النسوي في أوساط العامة - ولكلمة حريم دلالاتها الخاصة فهي قادمة من عهد الجوّاري وتخصيص قسم لمن في البيوت.

فهل لا تزال النساء مجرد جوارٍ يملكهن الرجل الشرقي، يشترهن من سوق للنخاسة؟

يقول الرجل لصاحبه متذمراً: يا أخي كذا الـ "حريم". وهو يقصد النساء. وتردد المرأة أمام صديقاتها مواسية لمن لديها مشكلة: الله يعين.. كلنا الـ "حريم" نعاني. وأخرج من بيت صديقتي التي جمعت صديقاتها ذات مساء لأتجه إلى سيارتي فإذا بسائق هندي لا أعرفه يناديني - يا هورما.. يا هورما.. فلا ألتفت باعتبار أنني سيّدة.. وأن هورما هذه لا أعرف معناها.. فيقترب أكثر وهو يقول: هيه.. هيه.. يا هورما.. كلم مدام جوا فيه بيبي فيه مشكل في بيت.

وبرغم عدم ورود كلمة (حريم) بهذا المعنى في كتاب الله عزّ وجل على الإطلاق. إذ إن القرآن استخدم كلمة نساء وواحدتها امرأة عند الحديث عن الإناث في الجنس البشري. إلا أن الرجال استخدموها، والنساء لم يرفضنها بل رددتها بالضبط كما نطقها الرجل. وبرغم خلو القرآن الكريم كما أسلفت وخلو لسان العرب من إطلاق (حريم). بمعنى (النساء) إلا أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أضاف: (والمرأة) إلى المعاني العديدة لكلمة حريم. وكأن لغة اليوم بحاجة إلى مزيد من المفردات التي تسجن النساء خلف الأسوار.

قلت (لغة اليوم) منعاً للإطلاق فيحتج عليّ من يجادل في كون اللغة تميزت كثيراً للمذكر⁽¹⁾.

ولعل إطلاق نداء (الحريم) على ما فيه من مجانبة للذوق وعلى ما فيه من عدم التهذيب وقلة الاحترام يبقى هو الأقل إهانة للمرأة برغم أنه مهين جداً. لكن هناك من يناديها بـ (يا هيه - أو يا هيش) أو (يا ولد) من باب التأكيد على إلغاء وجودها تماماً. وهذه مرحلة أبعد من

(1) يمكن الرجوع في هذا الشأن لكتاب الدكتور عبد الله الغدامي، المرأة واللغة.

إخفاء اسم المرأة الذي تعارف عليه الذكور واتفقوا على الالتزام به فاستعاضوا عن أسماء النساء بكلمات مختلفة مثل (الأهل أو الجماعة أو العيال). ولكم أن تتخيلوا أن رجلاً يذهب بزوجه إلى المستشفى ويتصل به صديقه فيخبره أنه يتجه إلى المستشفى لأن (الأهل) يعانون آلام المخاض!! أو أن الجماعة لديهم حالة ولادة..

إن نداءها بـ (يا ولد) إنكار لذاتها، وشطب لكل مفردة تدل على كونها أنثى. وفي (يا ولد) هذه معنى آخر.. وهو أنها لم تبلغ مبالغ الرجال في أي شيء.. لذا لم يقل (يا رجل) فذلك يجعلها تتساوى معه، لأنه رجل. وكلمة رجل تطلق على كل ذكر من جنس البشر سواء عرف معنى الرجولة أم لم يعرفه. وتختلط لدى الرجال في مجتمعنا معنى الرجولة بمعنى الفحولة. فيظن كل فحل أنه رجل، حتى وإن لم يكن لديه من معاني الرجولة شيء على الإطلاق. ولا يملك إلا فحولته التي يمثاله فيها كل الذكور التي خلقها الله في الطبيعة. إذ لا يخفى على أحد أن الذكر ذكر في الحشرات والحيوانات والإنسان. وأن الأنثى أنثى كذلك في الحشرات والحيوانات والإنسان.

ولأن الرجل يحمل لقب "رجل" خاف أن يمنح المرأة لقبه عند مناداتها فيجعلها في ذات الصف الذي هو فيه ويؤمن بأنه متقدم به عليها. ولم يشأ أن يقر بوجودها أمام غيره من الرجال ويذكر اسمها لذا اختار لمناداتها (يا ولد). إنه يرفع صوته بـ (يا ولد) ثم يصدر أمراً مثل (هات الشاهي) وجملة (يا ولد هات الشاهي) لها معنيان الأول إلغاؤها كأنثى.. والثاني حضورها لخدمته.

إذا.. ليست هنا كإنسانة.. لكن يجب أن تكون هنا لتلبية نداءه وتنفيذ أوامره. وقد يستعاض عن اسمها في أحسن الأحوال بقولهم (أم فلان) وفي مناداتها بهذا الشكل تأكيد على أن ما اتفق عليه المجتمع بشأن المهمة الحصرية للمرأة وهي الزواج الإنجاب وتلبية الحاجات

الأولية للعائلة داخل البيت هو المسموح لها فقط وبهذا تكتسب هويتها وتعرف حدودها. ثم إنها ليست - كما أسلفت - ذاتاً مستقلة على الإطلاق. إنها دائماً موجودة من أجل الرجل ومن خلال الرجل. فهي أم فلان، وليست فلانة بعينها. وهي زوجة فلان وابنة فلان وأخت فلان. ودائماً حولها كتيبة من الرجال يقومون عنها بأمر عدة كان يمكن أن تقوم بها كأى إنسان طبيعي.

إن العقلية الجاهلية المتحجرة التي تمجد الرجل وتقلل من شأن المرأة لم تستطع تحمل نظرة الإسلام للمرأة، تلك النظرة التي ساوت بينها وبين الرجل حين جعلت النساء شقائق الرجال. وهذه العقلية الجاهلية هي ما جعل التمييز ضد المرأة يستمر كل هذه العصور ويرمي بتعاليم الدين الحنيف عرض الحائط ويصر على أن الإرث الرهيب القادم من حضارات مختلفة وديانات عديدة تحتقر المرأة وتقلل من شأنها هي الصواب وليس ما قاله الله في كتابه وما فعله محمد صلى الله عليه وسلم مع نسائه.

ينظر الرجل إلى المرأة على أنها ملكه الخاص الذي يخشى عليه من العيون. وتمادى الرجل، ثم تمادى فإذا به يعاملها على أنها ليست إلا له وليست بمعزل عنه. فإذا خرجت برفقته وهذا يحدث عند ضرورات فقط. فإن كانا في سوق مثلاً سبقها بما لا يقل عن عشر خطوات وظلت تحاول اللحاق به كي لا تضيع بين الناس وهي لا ترى طريقها إلا كما يرى الأعشى في الظلام. فإذا شاهد الرجل أحداً يعرفه أدار رأسه ليتأكد أنه لا ينظر إلى "الحرمة" التي خلفه. ثم سارع في خطواته أكثر لكي لا يعلم أحد أنه معها، رجل مع زوجته أو إحدى قريباته! يا للخجل.. يا للعار.. لو أنه وحده لألقى السلام على من عرف وربما على من لا يعرف لكنه لن يسلم على من تصادف وجوده في ذات المكان من أصدقائه أو معارفه وهي معه مهما كانت محجبة. وكلما زاد

حجابها زاد حجله من وجودها. ومع أن السلام سنّة ومع أنه حريص على السنن لكنه هذه المرة سيتخلى عن حرصه السابق. وإن اضطر للسلام سلّم بإيماءة من رأسه ومشى بسرعة لكي لا يرى الآخر زوجته. والآخر الذي سلم عليه لم يكن ليكلمه ما دامت معه "حرمة" حتى ولو كان من أصدقائه المقربين. يا الله.. إن وجودها يججل الرجل ويربكه ويحمله عناء المراقبة والحذر والقلق.

ويقولون معززة مكرمة، فأى كرامة لإنسانة يججل أقرباؤها من كونها معهم أمام الآخرين؟

ويحق للقادم إلى بلادنا أن يتعجب من طريقتنا في التنزه والترويح عن أنفسنا. فنحن من بين دول العالم كله لنا طريقتنا الخاصة في الترويح عن النفس ويحق لنا هنا أن نؤكد على أن لنا - خصوصية غريبة بعض الشيء - فإذا ملّت العائلة الجلوس الطويل داخل البيوت. الأطفال يصرخون. والمراهقون يحدثون الفوضى. والنساء غير قادرات على احتمال مزيد من الضغط لذا يقرر الأب والعم أو الخال وبعض الأقارب الموافقة على اصطحاب الجميع في رحلة برية. وأول ما يفكر فيه مقرروا الرحلة هو عدد السيارات. ليس ليتأكدوا أنها تكفي الجميع بل ليصنعوا بها سوراً حول النساء إذا جلسن أثناء الرحلة. ولنا أن نتصور أن من كنّ في منزل لن تقل مساحته عن ثلاثمائة متر مربع إذا كان صغيراً، وكنّ يتحركن فيه بلا عباة يتركنه ويذهبن إلى البر ليجلسن بين السيارات في مساحة لا تزيد عن عشرة أمتار مربعة، متجمعات تلتصق الواحدة بالأخرى متلففات في عباةتهن تتوسطهن المشروبات الساخنة والباردة وبعض الأطعمة. لا يتحركن إلا لمناولة الرجال في الجهة الأخرى من السور المصنوع بواسطة السيارات أدوات القهوة أو الشاي أو الطعام. فأى نزهة قمن بها وأي تغيير حصلن عليه. وأي ترويض للجسد

وترويح عن النفس حققته؟ وإذا كان مرض هشاشة العظام يهاجم النساء بشراسة ويفترسهن افتراساً. عدا الأمراض المصاحبة للسمنة التي لا تنتهي. وإذا كان كل هذا الوضع الصحي يتطلب الحركة والهواء والشمس فأين تجدها النساء؟ حتى فتح النوافذ في البيوت يكاد يكون ممنوعاً ما لم يكن السور عالياً حول البيت بحيث يضمن الرجال أن من يمشي في الشارع لن يلمح شبح امرأة من خلف الستائر داخل البيت.

حكيت إحداهن فقالت: كنا في نزهة محاطات بالسيارات. ولأن عدد السيارات كثير فقد بقيت سيارة لأخي ليس لها مكان فظل ينظر أين يضعها ليسترنا بها. لكن نحن محاطات بالشجر من ناحية وبجزء من بقايا خيمة مربوط بين الشجرة والسيارة من ناحية أخرى وبسيارتين مما تبقى من الجهات. وظل أخي ينظر ويتأكد من سدّ كل المنافذ ويقترّب ويتعدّ ليتأكد أن لا أحد سيكتشف أن خلف هذه السيارات نساء فقلت له: بقيت هذه الناحية يا أخي.. هنا.. هنا.. - وأشارت بيدها إلى السماء.

والسيارات في بلادنا زجاجها مظلل بحيث لا يمكن لأحد أن يعلم ما إذا كان بداخلها أحد أم لا. وكلما صدر قرار بمنع التظليل، عاد الناس إليه من جديد. إذاً المسألة ليست مسألة حجاب، ولا غطاء للوجه. فالمرأة في السيارة محجبة تماماً، لقد أصبحت المسألة إلغاء للوجود. نفي.. دفن في تابوت يتحرك.

أما في مدارس البنين فمن الأسرار التي يحرص على أن يخفيها المراهق أسماء أخواته ووالدته وكل عماته وخالاته ومن لها صلة قرابة به، لأن معرفة أسمائهن تساوت والعار الذي يطأطئ له الرجل رأسه. هكذا يتربى الرجال في تقاليدنا. وتزايدت هذه السلوكيات إلى أن أصبحت شأنًا عاماً محموداً بين الجميع يؤكّدون على ضرورة المحافظة عليه لأنه من ضمن "خصوصيتنا" كسعوديين.

خصوصيتنا التي تعني ضمن ما تعنيه أن العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة السلطة التي تعني تحكّم وسيطرة وإلغاء عقل المرأة وإرادتها فلا يتم التعامل معها حتى من قبل بعض مؤسسات الدولة إلا بولي أو محرم مع أن المفترض أن تكون مواطنة مثلها مثل ذلك الولي الذي هو وسيطها في كل أمورها وهذا يعني أنها لا ترتقي إلى مستوى البشر والبشر هم الذكور فقط.

وتعطينا الثقافة الشفوية والمكتوبة تصوراً مفاده أن المجتمع كله ليس مكاناً طيباً مطمئناً يتعايش فيه أعضاؤه بسلام وتواد وتراحم. بل هو مكان الرجال فيه ذئاب مفترسة تتربص بالمرأة وتريد الانقضاض عليها إذا وجدت الفرصة المناسبة.

ونلاحظ أن كتابة بعض الشروط في عقود الزواج لا تحمي المرأة أيضاً. ففي العقد قد يضع - ولي أمرها - شرطاً بأن راتبها كموظفة لها. وأن لا يمنعها زوجها من التعليم أو من العمل. ولكن بعد الزواج تجد كثيرات أن الراتب في الحقيقة ليس لها بالمعنى الفعلي الذي تمت كتابته في العقد. وأن الرجل يستطيع أن يمنعها من العمل بممارسة أنواع مختلفة من الضغوط النفسية إذا شاء. وهذا يعني أنها تخضع لسلطانها فإن عملت أو تعلمت فلأنه وافق وإن امتنعت فلأنه رفض. وليس لها قرارات مستقلة بعيدة عن إرادته وهيمنته. وجاء خطاب التيارات إسلاموية لمجتمعنا مؤصلاً لهذه الهيمنة على المرأة بدعوى الخوف عليها تارة والخوف منها تارة أخرى وفي بعض المواقف نلاحظ الخوفين معاً.

وتحققت هذه الهيمنة أكثر وأكثر من خلال اجتراء آيات قرآنية أو أحاديث نبوية تم التأكيد على فهم واحد لها وأي فهم غير الذي انطلقوا منه يكون مجانباً للحق إضافة إلى إهمال الآيات والأحاديث الصحيحة التي تشير إلى علو مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي وإلى نصرة الدين لها ومنحه إياها كافة حقوقها. وبهذا كانت الهيمنة ومن

يعترض أو يناقش أو يتساءل عن ما يجاهدون لفرضه على الناس فإنه لا يدخل معهم هم في مواجهة بل مع الدين نفسه باعتبار أنهم الممثلون الحصريون للدين على الأرض.

وظل موضوع المرأة هو الموضوع الأساسي والأول على اللائحة عند الكثير - ولا أقول الجميع - ولم يتصد رموز تلك التيارات لمواضيع أخرى ككثير من المشكلات في المجتمع ومؤسساته المختلفة ولم يحاولوا التأكيد على القيم الإنسانية التي أكد عليها الدين ليرتقوا بالجتمع من خلال ما يقدمونه باسم الدين. لم يسلطوا الأضواء على الفساد الإداري وبيروقراطية الأنظمة في بعض المؤسسات الحكومية. لم يعالجوا البطالة أو المخدرات أو الفقر - فيما عدا توزيع بعض الصدقات فليست هناك خطط لمعالجة الفقر لتحويل من يتلقى الصدقات إلى منتج فيما بعد - لم ينشغلوا بشيء كانشغالهم بموضوع المرأة. فتارة هي مستهدفة من الخارج عندما يقدم الغرب ضمن وسائل الإعلام ما يقدمه من برامج أياً كان موضوعها. فكلها ليست سوى استدراج للمسلمات حسب زعمهم. وتارة هي مستهدفة من داخل المجتمع ذاته، ففي نظرهم أن بعض أبنائه الذين ينادون بالإنصاف إنما فعلوا ذلك لانتماءاتهم الغربية أو الماسونية أو.. إلخ. ومثال على هذا عندما يناقش موضوع قيادتها للسيارة أو عندما تم دمج تعليم البنات بتعليم البنين - برغم أن الدمج لم يتعد حذف مسمى الرئاسة وإعلان الدمج إلى الآن على الأقل - وخوفاً عليها من كل هؤلاء المستهدفين - بكسر الدال - يجب أن ترتفع الأسوار ويُحكم الإغلاق وينوب ولي الأمر عنها في شؤون حياتها. هذا التوتر والانفعال الذي يحدث بسبب القيادة أو الدمج أو أي شأن من شؤون النساء ليسوا فيه مستندين على أدلة شرعية واضحة وثابتة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لكي يجزموها بجرمة

الدمج أو قيادة السيارة. ويستحيل أن يكون في دين نؤمن أنه من عند الله شيء كهذا. لكنهم يعتمدون على التراث الفقهي والثقافي للمجتمع والذي انطلق أساساً من تراكمات قبلية هي بطبيعتها تسعى لفرض هيمنتها على المجتمع كافة بغض النظر عن التفاوت المذهبي أو الفكري أو الطائفي أو البيئي داخل المجتمع الواحد.

في مجتمعنا تطالب المرأة بقيادة السيارة فيرفض من يرفض بدعوى ضعفها وقلة حيلتها والخوف عليها من أي شيء وكل شيء، وقد كان الرفض في الماضي يركز على مبررات دينية بشكل مكثف. فكانت الفتاوى تملأ الدنيا وتشغل الناس بتحريم قيادة المرأة. أما اليوم فإن رفض قيادة المرأة للسيارة صار يركز على أسباب اجتماعية وثقافية تخص عادات وتقاليد المجتمع السعودي. والحزن - الحزن لي - أن المعنيين بالرفض يريدون لتلك العادات والتقاليد أن تبقى إلى الأبد برغم كل التغييرات التي حدثت في المجتمع السعودي. إذاً.. كيف تخلى المعارضون لقيادة المرأة عن مبرراتهم الدينية وقد كانوا يعتمدون عليها لمنع القيادة؟ كيف تنازلوا عن كلمة "حرام"؟ لقد فعلوا ذلك لأنهم اكتشفوا أخيراً عدم صحة تلك المبررات. ولكن ماذا لو أن امرأة قالت في ذلك الحين الذي كانوا يلوحون فيه بالنصوص الشرعية لتحريم القيادة، ماذا لو أنها قالت: استدلالكم غير صحيحة وفتواكم خاطئة. ماذا كان سيحل بها.

إن المتحدث عن ضعف المرأة السعودية وقلة حيلتها لم يسمع أو سمع وتجاهل أن النساء في العالم قدن الطائرة وصعدن بالمكوك الفضائي إلى خارج أقطار السماوات والأرض وتخرجن من الكليات العسكرية. فهل هم بهذا يتصورون السعوديات من مادة أخرى غير التي خلق الله بها نساء الأرض ورجالها؟ أو أن لها خصائص تختلف بها عن باقي النساء في كل الدنيا. نعم.. يمكن أن يكون الحرمان الطويل من الشمس والهواء النقي قد أضعف أجساد الكثيرات منهن

وشوهها، من الجاني عليهن بهذا؟ وإلى متى تستمر الجناية؟

ولأن المجتمع مغلق على ذاته - يستبدل المجتمع كلمة مغلق ويقول عن نفسه إنه مجتمع محافظ - فإنه يستقبل الأنظمة التي تحدّ من حرية المرأة والفتاوى التي تقيدّها أكثر وتجبرها على انتهاج أسلوب معين في حياتها يخالف سائر نساء الكون بحماس عند ظهورها في البداية لكنها أشبه ما تكون بالشائعات التي تلقى الراجح لأن الجمهور يميل إلى تصديقها. ومع مرور الوقت تعود وتخبو بعد خضوعها لتجربة الزمن لتظهر أنظمة أخرى وفتاوى مشابهاً جديدة.

أكاد لا أذكر في هذا الصدد عدد المحاضرات التي ألقاها أستاذ جامعي بعينه في كلية التربية للبنات عندما كنت طالبة - قبل أكثر من عشرين سنة من الآن - لكثرتها فما بالكم لو أضفنا عدد محاضرات غيره من الذين كانوا بذات الثقافة التي لا زالت حتى اليوم مهيمنة والتي تبعد كثيراً عن العلم وترتكز على الدمج بين الخرافة والعادات التي تمّ إلباسها لباس الدين. ومن قال إني بالغت كثيراً إذا قلت - خرافة - فليتذكر معي جانباً واحداً فقط ويدع باقي الأمور. ليتذكر كم الكتيبات والمحاضرات والندوات والمطويات التي انتشرت بين الناس عن الحرب في أفغانستان بين - المسلمين والسوفيّات⁽¹⁾ - . ويعلم العقلاء أن الخرافات لا تنتشر بين الناس إلا إذا انحسر العلم وتراجعت مكانته ولم يعد له مساحة في عقولهم.

أثناء تلك المحاضرات التي لا أذكر عددها لكثرتها، كم أكد لنا حينها ذلك الأستاذ الجامعي وغيره من المحاضرين أن رائحة دماء

(1) قلت بين السوفيّات والمسلمين لأنني لست بصدد الحديث عن الأطراف التي كانت في تلك الحرب ولا عن أسبابها ولا عن نتائجها. فقط أريد أن أستشهد بما كشاهد على قبول المجتمع بكافة أطيافه - يشذ عن القاعدة بعض الناس طبعاً - للخرافات التي كانت تروى بشكل متواصل.

"الشهداء" في أفغانستان أيام الحرب التي آمن الجميع أنها مقدسة كانت كرائحة المسك أو أزكى. وأن المؤمن هناك يرمي بحفنة تراب على الدبابة السوفياتية فتفجر، أي أن حفنة التراب في يده تتحول إلى قنبلة. وأن نوراً يخرج من القبور ليلاً فيمتد إلى السماء وأهم يحفرون القبر على مقاس الرجل وبعد أن يدفونه يعودون لحفر القبر بعد عدة أيام من الدفن فيجدون القبر متسعاً جداً ورائحته زكية وقد نبتت الزهور في داخله - حينها تساءلت ولماذا يعودون لحفر القبر من جديد بعد أن دفنوا فيه رجلاً مات في الحرب. ألم تشغلهم الحرب بويلاتها عن الذهاب والعودة لتأمل ما بداخل القبر؟ ولم يجيني أحد حتى اليوم - إلى آخر ما هنالك من خرافات لا يقر بها عاقل، ولكن أقر بها من يفترض أنهم ضمن تجمع للعلم والمعرفة داخل الكليات التربوية للبنات ومن قبل أساتذة جامعيين. كان يأتي الأستاذ منهم ليرويها لنا وجميع الطالبات الحاضرات في المدرج - أستطيع هنا أن أقول جميع لكثرة ما تساءلت ونهرني بقسوة عن كثرة السؤال لكي لا أترف المزيد من الآثام - كن مصدقات يعشن حالة ذهول ورهبة وإيمان عميق بأن أفغانستان هذه ينصرها الله دائماً لأن أهلها شديدي التدين. هذا عدا تلك المحاضرات التي عن النساء اللواتي هن أكثر أهل النار فتؤمن المتعلمات وغير المتعلمات أن إغضابها لزوجها - مجرد أنه ذكر - ليلة واحدة كفيلاً بإدخالها النار. مهما كان تقاها شديداً ومهما كان فجوره هو شديداً. يكفي أنه زوجها وأنه بات غاضباً لتشوى بذلك في جهنم الحامية. ويذهب هو إلى النعيم مع الحور العين. ضمن هذا الإطار كانت تأتي المحاضرات ولا زالت⁽¹⁾. فإما أن

(1) في لقاء مع أحد رجال الدين في التلفزيون أكد لإحدى السائلات التي اشتكت من بداعة زوجها العصبي أن احتمالها له سبب في دخولها الجنة. أي أن رجل الدين بدلاً من أن يؤكد للرجل أن الرسول أمر بالنساء خيراً وأن القرآن الكريم يلزمه بعشرتها بالمعروف وأن المودة والرحمة هي الأساس الذي يبنى عليه بيت الزوجية سكنت عن أفعال الرجل وأمال على المرأة يعلمها كيف تطرق أبواب الجنة بالصمت إزاء أذى زوجها لها.

تزداد فيه عدد الصور وإما أن تنقص لكنها في النهاية لا تتوانى عن تناول النساء والنار والعذاب. ومن هنا يمانهن بدونيتهن صار أكبر. وصارت أسئلتهن لتجنب الوقوع في الخطأ الذي سيرمي بهن الله في النار بسببه كثيرة وغريبة أو ساذجة وسخيفة. تساءلن حتى عن وجود (السستة أو السحاب) في ملابسهن هل هو حلال أو حرام - لبس الدبلة دليل الزواج - لبس العدسة الملونة - لبس الحذاء بالكعب العالي - أكل أكثر من سبع تمرات في اليوم أو أقل من ثلاث تمرات - أكل سبع حبات من حبة البركة في اليوم - استخدامات زيت حبة البركة - الحيض. عدد أيامه. لونه. غزارته.. وأسئلة من نوع إذا أراد زوجي أن أطيل شعري ولكن شعري لا يطول فهل عليّ إثم يا شيخ؟ وإذا قال زوجي أريد الفطور فلم أستطع لأني مريضة فهل عليّ ذنب يا شيخ وإذا لبست الحذاء ذا الكعب العالي فجعلني طويلة بزيادة سبعة سنتيمتر أو خمسة سنتيمترات فهل هذا تغيير لخلق الله يا شيخ؟... إلخ.

لم تكن محاضرة أو اثنتين. ولم يكن يوماً أو اثنتين ولم يكن مكاناً أو اثنتين. ولم يكن أستاذاً أو اثنتين. كل شيء كان كثيراً ومستمراً لسنوات وسنوات. وإلى اليوم. وأذكر في تلك الأيام رواية ترددت في كثير من الأشرطة والكتيبات عن فتاة ماتت ودفنوها. وبعد أن عاد أخوها من المقبرة بحث عن محفظة نقوده فلم يجدها فتذكر أنه عندما كان منحنياً ينزل أخته في قبرها رأى محفظته وهي تسقط من جيبه - لم يلتقط المحفظة حين رآها تسقط - رجع مرة أخرى وحفر القبر من جديد ليسترجع المحفظة. إلى هنا والتكرار بذات الكيفية. وبعد ذلك تتغير الرواية فنجد من يقول في شريط: عندما فتح القبر رأى ثعباناً طويلاً وضخماً في قبرها. ورواية أخرى أنه رأى النار تخرج من القبر.. إلى ما لا نهاية من الروايات. وفي نهاية كل رواية يعدو الشاب إلى أمه ويسألها: رأيت كذا وكذا في القبر فماذا

كانت أحتي تصنع. وتكتشف الأم سبب العذاب الذي وقع على ابنتها فتحبره مرة إنها كانت تحمل الصلاة ومرة أنها اكتشفتها تتحدث إلى رجل على الهاتف ومرة إنها كانت تخفف غطاء وجهها.. وتتعدد الأسباب التي ترويها الأم حسب رؤية الراوي ورغبته في التسويق لفكرة ما.

هذه الرواية المتداولة بأشكال مختلفة سمعتها قبل ما يزيد على خمس وعشرين سنة. ولا زلت أسمعها إلى الآن. ولا زالت تأخذ من سامعاتها وقارئاتها كل مأخذ.

ثم ماذا؟ أولئك الطالبات أصبحن أمهات فيما بعد. بعضهن صار ابنها الآن متجاوزاً العشرين من عمره. ولا يمكن أن تكون أي واحدة منهن قد قالت لولدها ذات صباح: هيا يا بني تمنطق بهذا الحزام الناسف وفجر هنا أو هناك. بالتأكيد ليس هذا ما حدث. ولن يستيقظ الشاب الصغير ذات صباح فجأة ليجد في داخله ومن تلقاء نفسه رغبة جامحة في الانتحار بحزام ناسف أو سيارة مفخخة داخل مبنى أو خلف وزارة أو في مجمع حكومي. لن يمشي في الشارع فيشعر أن لديه حب القتل والتدمير. ما يحدث هو أنه يتلقى ما يتلقاه من أساتذته. والأمهات المترمات يهيئن البيئة المناسبة للتطرف بغلوهم وجهلهم داخل المنازل ويؤكدن لأبنائهن على وجوب التصدر لإصلاح المجتمع الفاسد، متصورات أن كل ما لا يوافق عليه المحاضر في محاضراته القديمة عن المجتمع كله والنساء بشكل خاص فساداً.

من أولئك النسوة ستقول عن نفسها إنها مغالية أو مترممة أو متطرفة؟ كلهن مهما ابتعدن عن وسطية الدين يقلن بوسطيتهن وفهمهن للدين كما أنزل. المذهل أن أولئك المغالين الذين قدموا الغلو في محاضرات عديدة عادوا بعد ظهور موجة الإرهاب ليؤكدوا

موقفهم الرفض بشدة لكل تصرف إرهابي وكأن هؤلاء الشباب الصغار هبطوا علينا من السماء ولم يتربوا على أيديهم بيننا.

هل تغير حالنا الآن عن ما كنا عليه قبل عشرين سنة؟ ليس كثيراً فدائماً هناك صراع يحدث بين التفكير الناقد وبين ما ألفه الناس، لأن العقل الناقد لا يطمئن إلى المؤلف مجرد أنه مؤلف ولا يستريح إلى أمر لأن الناس أجمعوا على الأخذ به ولا يقدر الماضي مجرد أن الزمن قد مرّ عليه فمرور الزمن على ما سلف ليس دليلاً على صحة أمر ما. إن العقل الناقد بحاجة إلى الاقتناع لأن الأمر مقنع لا لأنه محبب إلى المجتمع أو من ضمن عاداته أو مقدس عند الناس.

أما الفرد من العامة والبسطاء فينظر إلى معالجة أي خلل في المجتمع على أنه نقد له هو شخصياً. أي أنه هو من يُنتقد. فينبري للدفاع ويستमित في تأكيد صحة ما هو عليه داخل مجتمعه وتصبح القضية شخصية بينه وبين الناقد. هكذا يرى الأمور ولهذا لا يوافق على الاعتراف أولاً بوجود خلل ما لأن اعترافه يعني أنه هو شخصياً من سينتقد. ولكن وبرغم هذا التعصب ضد النقد وبمرور الزمان تبدأ المواقف المتعصبة بالتراخي. والأفكار المألوفة بالاختفاء التدريجي إلى أن يصبح العامة أنفسهم الذين اتخذوا موقفاً متشدداً في البداية مع القديم يدافعون من جديد عن شيء آخر كان جديداً في بداياته لكنه صار قديماً فتعصبوا له. ولو سألنا أي مواطن بسيط ما إذا كان موافقاً على أن تعمل ابنته معلمة على بعد مئة كيلومتر من منزله؟ هل يوافق إذا كان هذا هو الخيار الوحيد. سنرى أنه يوافق مع أن المجتمع يرفض خروج المرأة إلا مع محرم لها. وذات المجتمع كان يرفض عمل المرأة جملة وتفصيلاً ثم وافق على عملها في المجتمع النسائي فقط بعد أن كان قد رفض منذ البدايات تعليمها. ثم صار يوافق على أن تسكن بعيداً عن أسرتها في القرى التي تعمل بها معلمة أو أن تخرج مع

سائق ليس. محرم قبل الفجر لتصل إلى المناطق النائية التي تعمل فيها. يستمر المجتمع في خلق تعصبه مرة تلو أخرى. أي أنه لم يستقبل أي جديد ذات مرة بتعقل - خصوصاً فيما يتعلق بالمرأة - لم ينظر إلى أي أمر بموضوعية وهدوء. فمن الذي يقوده في طريقة تفكيره هذه؟ لماذا يرفض ويقاوم ثم ينسى مع الوقت ويستسلم. وبعد الاستسلام يتعامل مع الأشياء التي رفضها وكأنها من ضمن أساسيات حياته؟ وقد لا نستطيع حصر عدد الأفكار والأشياء التي قال المجتمع بحرمتها أو بعدم جوازها ثم عاد واستغفر ربه ووافق عليها بعد مرور الوقت. وهذا الوقت يطول ويقصر حسب مساحة القناعة بالتحريم في عقول الناس. ويعرف جيلي والجيل الذي سبقني أن كتب الفقه التي درسناها كانت تؤكد على تحريم التصوير. ولا تزال بقايا ذلك التحريم ماثلة أمامنا في وضع خط يقطع رقبة كل صورة ترسمها أي طفلة في المرحلة الابتدائية. إذا.. درسنا وحفظنا عن ظهر قلب أن الصور والتصوير ورسم ذوات الأرواح حرام. فالتلفزيون وجاء الفيديو.. ثم جاءت الكاميرات وأغرقت الأسواق بنوعيات ذات جودة عالية.. وانتقلنا إلى كاميرات الديجيتل وجاءت الأجهزة تلو الأجهزة إلى أن صار البلوتوث حتى مع المراهقين والأطفال.

كان التحريم في بداياته دليلاً على عدم القدرة على استقراء المستقبل القريب. أو عدم القدرة على متابعة الواقع المعاش على أقل تقدير؟ أم كانت محاولات مستميتة لغلق المجتمع وعزله وإبعاده عن كل ما يمت للتكنولوجيا بصلة؟ باعتبار أن وجود التكنولوجيا يغير ولو ببطء شديد بعض عادات الناس وبالتالي أفكارهم.

ربما تكون الدراجة من أوائل ما رفضه الناس في الماضي. إذ كانت أول ما ظهرت تدعى بـ (دابة بليس) ثم توالى الأشياء، تبقى محرمة على المستوى الاجتماعي وأحياناً على مستوى المؤسسة

الدينية. ثم تطوى صفحة التحريم لتُفتح صفحة أخرى ضد فكرة أو منتج آخر. حتى لعب الأطفال وعرائس البنات الصغيرات مع أنها مجرد عرائس للصغيرات، وأفلام الكرتون ومسلسلات التلفزيون، لم تسلم من فتاوى التحريم وبعد عدة شهور أو سنوات ينسى الجميع حرمتها وتصبح حلالاً. وبسبب التحريم تظهر البدائل الغريبة. فانتشر بيع العرائس التي بدون ملامح وكأنها أمساخ، أخبرني البائع أنها عروسة إسلامية. يا للعجب. هل نسمي هذا الأمر - أسلمة العرائس؟ لو أن الأمر يرتبط بالباعة والبسطاء من المشتريين لما تناولت الموضوع هنا. لكن ما حدث جاء وفق رؤى تيارات بعينها تقول إن همها أن يعلو الإسلام وينتصر على أعدائه. فهل يتم تحرير القدس إذا حاربوا العرائس العادية وقاموا بنشر العرائس "الإسلامية".

يقبل الناس على مثل هذه الأشياء بفرح لأنها في ظنهم هي الحلال ولأنهم أخيراً عرفوا أن ما كانوا عليه حرام وابتعدوا عنه. ظهر الآن الفرح الإسلامي بحيث يتحول الحفل إلى محاضرة تهدد بالنار والخلود فيها لمن فعلت كذا وكذا - ولا أدري كيف تكون المحاضرة فرحاً. وظهر "طلاء الأظافر الإسلامي" فهل انطلق من سمي نوعاً من طلاء الأظافر للأطفال بهذه التسمية من ذات الفكرة؟ فكرة أن إعلاء الإسلام تنطلق من أسلمة أدوات الزينة وأسلمة العرائس وما شابهها؟

على أن للأسلمة في مجالات التقنية والعلوم الحديثة المختلفة دلالة واضحة على الاعتراف بتفوق الآخر وتغلغل إحساس عميق برفض هذا التفوق. وصاحب هذا الرفض عجز تاماً عن الإبداع والإتيان بما أتى به ذلك المتفوق. ولهذا ابتدع الأسلمة. وأسلمة أي منتج لا تعني إضافة مزيد من البحث والتطوير. بل تعني تغيير بعض الأسماء والكلمات فيصبح المنتج متأسلاً. وكان التقنية والعلوم قبل تلك التغييرات كانت كافرة ثم تمت أسلمتها.

إن العلوم الحديثة نسبياً كعلم النفس والأنثروبولوجيا مثلاً تناولت بالدراسة والبحث مجتمعات عديدة في مختلف القارات. والباحث فيها يتناسى عقائده وميوله الخاصة ويتسامى عليها ويرتبط بموضوع الدراسة في موضوعية وتجرد. والعلم المعاصر ليس مجنساً. والكتاب في أي علم ليس حكرًا على لغة ولا دين ولا دولة. إنه علم عام يتعالى على الأطر الاجتماعي الضيقة. يتلقاه التلاميذ من الأساتذة فيضيفون جيلاً بعد جيل دون أن تتدخل الحدود السياسية أو الأيديولوجيات - التي سلبت العقول قدرتها على التجرد والموضوعية - في نزاة العالم الحقيقي. وليس هناك ثقافة نقية تماماً لجماعة ما منذ بدايات التاريخ البشري وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فالثقافات في حالة تأثر وتأثير مستمر - باستثناء وجود جماعات بدائية منعزلة تماماً - . وهذا يعني أن العلوم والمنجزات الإنسانية تنتقل في مشرق الأرض ومغربها وأن الثقافات والعلوم على اختلافها في تداخل مستمر عبر التاريخ. وهذا يعني أن المعرفة والفكر ليست ذات هوية خاصة بما بل هي تراث إنساني للبشرية كلها نتجت عن عملية المتاقفة المستمرة والتلاقح المتواصل للحضارات عبر العصور.

وعندما أخذت أوروبا عن المسلمين الشيء الكثير من علومهم ومعارفهم ونتاج عقولهم وترجماتهم وحضاراتهم في وقت تفوقهم، لم يكن من المقبول أن تتم "أوروبا" تلك العلوم أي جعلها أوروبية. أو نصرنتها. لقد أخذوها دون تسميات تنزع عنها الاعتراف لأهل الفضل فيها. ثم أضافوا وأضافوا حتى جعلوا تلك المعارف والعلوم أضعاف ما كانت عليه آلاف المرات.

وإذا نظرنا إلى اليابان رأينا هضمتها الحديثة بسبب استفادتها من تراكمات الخبرات الإنسانية وليس بسبب العلم الياباني بمعزل عن العلوم الغربية. وهذا ينطبق على كل الشعوب التي بدأت في النهوض في العصر الحديث.

العنب المحرم

الرجال للمدح والـ "حريم" للـ "لدح"، مثل
محلي.

عاش المجتمع في الجزيرة العربية قروناً عديدة وفق عادات وتقاليده
تحدّ من حرية الإنسان الشخصية بشكل عام، ولكن كانت كل تلك
التقاليد وإن هي قاسية في كثير من الأوقات بريئة من الشك الذي
حوّل مجتمع كامل إلى التزمّت والتشدد والتعسير بدلاً من التيسير.
هذا الشك ولد العديد من التدابير الاحترازية لحماية الناس بعضها من
بعض. ومن تلك التدابير إنشاء مؤسسات يدخل ضمن مسؤولياتها
الحدّ من الحرية الشخصية للفرد.

حرّم الله سبحانه وتعالى الزنا ووضح عقوبة الزانية والزاني في كتابه
العزیز وأمر المؤمنين والمؤمنات بغضّ البصر وحفظ الفرج. قال تعالى:
﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ
وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾ (سورة النور،
30 - 31). نلاحظ أن الله تعالى أمر الذكور أولاً قبل النساء بغضّ
البصر. ونلاحظ أيضاً أن الآية تقرأ وتكتب مجتزأة عند بعض الدعاة
والفقهاء فيبدأ من عند ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ...﴾
وكان النص القرآني لم يبدأ بالتنبيه على الذكر بضرورة غضّ البصر.

وأمر كذلك بحفظ الفرج للرجال والنساء. وطالب المرأة أن لا
تظهر زينتها إلا ما ظهر منها - وما ظهر منها هذه اختلف في
تفسيرها المفسرون - على أن تفسير المفسرين على أهميته يبقى تفسيراً

لبشر. وكل بشر لن يكون إلا بشراً مهما علت مكانته. ويمكن أن يقبل الاختلاف بين المفسرين في فهم الآيات.

وكان يمكن أن لا يكون في الآية استثناء. كان يمكن أن تأمر الآية المؤمنات بأن لا يبدن زينتهن فقط. وتسكت إلى هنا فلا يكون فيها «إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا». فيصبح إبداء الزينة ممنوعاً على الإطلاق - كما يحدث الآن بارتداء بعض النساء العباءة السوداء الواسعة وغطاء الوجه الكثيف والجوارب السوداء وكفوف في اليدين سوداء فلا يظهر منها شيء على الإطلاق - لكن الآية استثنت ما يظهر من الزينة. والزينة لن تظهر بمعزل عن المرأة. أي لن يظهر الخاتم مثلاً في صندوق المجوهرات ملقى على قارعة الطريق، بل ستظهر معه الكف التي هو زينة فيها بالضرورة. ولن يظهر كحل العين في شنطة يد المرأة كزينة بل في عينيها.

إن غض البصر للرجال لا يعني أن يبقى الرجل خلف الأسوار لكي يكون قادراً على تطبيق الآية التي تأمره بشكل صريح وواضح بهذا الأمر. ولم يجد الفقهاء حاجة إلى سدّ الذرائع في هذا الباب. لذا بقيت حياة الذكور طبيعية. وبحثوا في كيفية منع النساء من الحياة.

إن غضّ البصر الواردة في النص تعني أن ينشغل كل طرف بنفسه ومشاغله من الذكور والإناث. وأن لا يلاحق أحداً أحداً بنظراته المتطفلة. وهذه مدنية ورقية وآداب في التعامل وتهذيب سبقنا إلى تطبيقها كثير من الأمم وبقي مجتمعنا يعلن عن عدم قدرته على الالتزام بتلك الآداب التي جاء بها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً. وكنت أتمنى أن يصل كل الرجال في شرقنا⁽¹⁾ إلى فهم هذه الآية

(1) يلاحظ الذين سافروا خارج البلاد أن الناس في المجتمعات المتقدمة لا يطلون النظر في من حولهم في الأسواق والأماكن العامة. بل يكادون لا ينظرون أصلاً إلى بعضهم من باب عدم التدخل في شؤون الآخرين وملاحقتهم بالنظرات.

والإحساس بجمالها وما تتضمنه من معان عميقة ترتقي بمن يلتزم بها وتشعره بذاته السامية الطاهرة. ولكن بدلاً من هذا، تفتقت أذهان بعضهم إلى أن إبعاد المرأة عن مجالات الحياة هو الحل الأمثل بدلاً من الجهد في تطبيق الآية الكريمة. وبهذا صار كثير من الرجال بدلاً من أن يتعلموا غضّ البصر والتأدب بما أمر به الله تعالى، يتلصصون ويبحثون عن الفرصة التي ينظرون فيها إلى امرأة. أي أن الرجل يظل متطلعاً إلى الفوز بنظرة من هنا أو هناك - أيضاً لا أتحدث عن الجميع لكنني أزعم أن أغلبية لديها الرغبة في رؤية المرأة وإطالة النظر إليها بحكم التربية على ذلك -.

لقد قرر المجتمع أن يطبق قاعدة "لا تزرعوا العنب لكي لا يصنع منه أحد خمراً" فالخمر حرام. ولهذا سيصبح العنب حرام لأن الخمر يصنع من العنب. وكل ما يمكن استخدامه لصناعة أو شرب الخمر سيصبح أيضاً حراماً. حتى الكؤوس صناعتها واقتناؤها حرام، إذ لربما سكب أحدهم فيها بدل اللبن خمراً!

ومن هنا، وخوفاً من الزنا الذي هو في نص كتاب الله محرم صار كشف وجه المرأة محرماً وخروجها محرماً وقيادة السيارة محرم... إلخ.

ووفقاً لهذه القاعدة ستكون الحياة كلها مغلقة إذ إن كل شيء يمكن أن يكون ذريعة لشيء يؤدي إلى حرام أو خطر أو ممنوع أو غير جائز. تماماً كعلاقة المرأة بالحياة كاملة. والتي كان يمكن أن تسن القوانين بشكل أفضل لتحمي المجتمع كله وليست المرأة فقط ولكن تم تفضيل تحريم مشاركتها.

السيارة يمكن أن تكون قاتلة. والقتل حرام... والنافذة يمكن أن يدخل منها لص والسرقه حرام.. إلخ. وهذا يعني أن نحرم شراء واستعمال السيارات ونحرم إبقاء فتحات النوافذ في الحائط عند إنشاء

المباني... إلخ وبهذه القاعدة يمكن أن يسدوا كل ذريعة ولا يتركوا شيئاً لأحد. حرصاً على أن يغلقوا كل منفذ قد يؤدي فيما بعد إلى أمر محرم.. وبهذا يتمكنون من إغلاق الحياة.

لكن هذا سيغلق الحياة على الرجل أيضاً.. لهذا اكتفوا بالنظر فيما يخص النساء وحرّموا كل أمر يرون أنه لربما كان منفذاً إلى محرم.

هذه المبالغات التي ما أنزل الله بها من سلطان هي التي تمارس ضد النساء وهي تشويه لدين الله الذي جاء باليسر لا بالعسر. وهي اتهام غير مباشر للدين - الذي اكتمل قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالنقص والعياذ بالله. وحرصت جماعات بعينها على إكمالها. وانطلاقاً من هذه القاعدة التي تغلق الأبواب أمام الناس خوفاً من وجود ذريعة إلى أمر قد.. قد يؤدي إلى حرام. امتنعت الرئاسة العامة لرعاية الشباب من رعاية الشابات من النساء. ولا حتى العجائز منهن. وظلت المرأة خارج دائرة الاهتمام والرعاية بشكل مؤسسي. أو بأي شكل آخر.

ظلت الأندية الرياضية الخاصة بالمرأة حليماً يراودها إلى يومنا هذا. والآن تستتر بعض الأندية خلف أسماء مستعارة. إذ إنها على قلبها وندرتها وغلائها الفاحش لا تعلن عن نفسها كنواد رياضية نسائية. بل تسمى نواد صحية خوفاً من المنع والتحریم والتحریم. فتعلن تلك النوادي للجهات المانعة أنها فقط من أجل المريضات من النساء اللواتي يتطلب علاجهن التواجد في نادٍ يهتم بالجسد... ويا للعجب..

المرأة التي لا يعترفون بعقلها، فيرونه دون عقل الرجل. ولا يبالون بمشاعرها عندما سجنوها ولا بأحلامها ولا برغبتها في إثراء خبرتها ووعيتها. لا يرونها إلا جسداً لإمتاع الرجل. صاروا حتى هذا الجسد الذي لا يأهون إلا له يرفضون أن يمارس الرياضة.

يقول الدكتور محمد السيف (لوحظ من تحليل بعض الدراسات الاجتماعية التطبيقية أن الفتاة السعودية من عمر 18 إلى 24 عاماً تنتهج في برنامجها اليومي سياسة تضييع الوقت باستخدام السيارة أو الهاتف أو مشاهدة التلفاز أو الاستماع للأشرطة الغنائية أو الخروج للأسواق بدون حاجة)⁽¹⁾ وهذا يعني أن مجالات التسلية البريئة وقضاء وقت الفراغ أو تنمية الهوايات الرياضية أو الاهتمام بالصحة والعناية بالبدن والثقافة كلها غير ممكنة. والممكن هو الهاتف والأشرطة والتلفزيون والأسواق.

إن القدرة على ضبط مدارس البنات في جميع أنحاء المملكة. والقدرة على خلق احترام كامل داخل المجتمع كله لمدارس البنات. والثقة المطلقة في قدرات القائمت عليها لحفظ النظام والانضباط واتباع التعليمات لم يكن كل هذا سبباً في تصور نجاح أندية نسائية رياضية خاصة بإدارة نساء. ولا أدري ما الفرق. فكيف يثق الشخص بمديرة المدرسة صباحاً ويرسل ابنته إليها كل يوم. ثم لا يثق لو أن ذات المديرية تدير نادياً رياضياً عصرًا؟ ماذا لو أن النادي جزء من المدرسة. ماذا لو أن في كل مدرسة معدات داخل حجرات واسعة مغلقة تفتح في أوقات محددة. بالإضافة إلى وجود سيدة تعمل مدربة. وراتب إضافي لذات الحارس الذي يحرس المدرسة كل صباح؟ ماذا لو أن راتب الحارس والمدربة وقيمة المعدات تستقطع من قيمة الاشتراكات التي تدفعها الراغبات في الالتحاق بالنادي؟ هل يرى المجتمع حينها أن الرياضة حرام على النساء؟ وهل سيمانع الآباء من حضور بناتهم إلى النادي الرياضي النسائي؟ وهل ستصدر أيضاً فتاوى تحرم ممارسة النساء للرياضة؟ للحق أي لن أستغرب لو سمعنا بمن يحرم

(1) الدكتور محمد السيف، مدخل إلى دراسة المجتمع السعودي، ص 269.

على النساء أكل نوع من الطعام يحل للرجال أكله. وإلا فما سبب تحريم الرياضة في مدارس تعليم البنات.

ومن ضمن ما تمّ منعه أو تحريمه أو تجريمه أن تبيع المرأة ملابس المرأة وأن تبيع المرأة عطورات المرأة وأدوات زينتها. على أن بعض المحلات الآن وظفت نساء إلا أن أمر المنع ظل رديحاً من الزمان، وإلى الآن. وبقيت النساء تشتري من الرجال حاجتهن التي لا تريد المرأة أن يراها أخوها، فما بالنا بالغرباء. أما هؤلاء المانعون ومن يؤيد موقفهم فيني دائماً التساؤل عن أحوالهم.. هل يذهبون بأنفسهم إلى البائع ثم يصفون له حجم أجساد نسائهم ليشتروا ملابسهم الداخلية؟ أم أن نساءهم يذهبن إلى البائع بأنفسهن؟ أم أنهن لا يرتدين ملابساً تحت ثيابهن الخارجية؟ ولا أدري ما المعنى من منع النساء من العمل في محلات لا تباع إلا لوازم نسائية تخصهن. ولا أدري أيضاً ما الفائدة من لبس العباءة من أجل الستر ثم تحدد المرأة للبائع الرجل مقاساتها في مناطق محددة من جسدها لتشتري ما تحتاج فتصف ما تريد وما يناسبها ولونه ونوع قماشه... إلخ. أي ستر بعد تلك المقاسات الدقيقة عن جسدها؟ كيف جرم المجتمع بيع المرأة للمرأة ووافق العقلاء على أمر كهذا طوال السنوات الماضية؟ ألا يعطينا هذا دليلاً على أن بعض الرؤى تكون خاطئة حتى وإن أجمع عليها كثيرون؟

حدث هذا لأن الذكر يريد احتكار البيع والشراء والتجارة وشطب في عرف المجتمع وتقاليده النساء. ولا تريد بعض تياراته الدينية أن تجعله من الأمور المسموح بها للمرأة - ليس إلا لفرض مزيد من الوصاية والقمع - واعتبروا أن القيام بها من قبل النساء أمراً دخيلاً على مجتمع لا يريد أن تتحرك المرأة. وأقول شطب، لأن نساء الجنوب كانت لهن أسواق لا زالت بقاياها حتى الآن وسوق الثلاثاء في أبها من تلك البقايا. وكانت المرأة تباع ما تنتج بنفسها والرجل يشتري ما أنتجته.

يقول "نوبوأكي نوتوهارا" (نحن في اليابان عرفنا تجربة طويلة مع القمع وعانينا من كافة أشكاله في تاريخنا. وحتى بعد الحرب العالمية استمرت مظاهر القمع في الحياة الاجتماعية اليابانية. بعد ذلك التاريخ المير الطويل علمنا من تجاربنا وعرفنا كيف نتصرف بمسؤولية تجاه الآخريين. لقد اجتزنا مسافة طويلة على طريق الحياة وما زلنا نعمل بدأب لكي نتحرر من رواسب القمع التي ورثناها عن ماضيينا)⁽¹⁾.

أما نحن. فنبارك قمع المجتمع لأعضائه ونبس القمع اللباس الشرعي ليتم إسكات كل من يقول بعدم جوازه.

(1) العرب، وجهة نظر يابانية، ص 29.

هل جاء الإسلام

من أجل الرجال فقط؟؟

في حديث عن ابن عباس عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سوا بين أولادكم في العطفة، ولو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء» فتح الباري، ج 5.

عندما يسمع البسطاء كلمة حرية يتبادر إلى أذهانهم أنها الانحلال والبعد عن القيم. مع أن المعنى الصريح للحرية هو الانعتاق من الاستعباد والذل. وعندما ترد كلمة المساواة يتساءلون عن الحمل والولادة الذي لا يستطيع الرجل القيام به. وكأن المطلوب هو أن يصبح الرجل امرأة وتصبح المرأة رجلاً. غير مدركين أن المساواة لا تعني تغيير الفروقات البيولوجية بين المرأة والرجل ولا تعني إلغاء الجنس. فتميز المرأة بإمكانية تخلق الحياة في أحشائها يجعلها ذات بعد حياتي أعمق من الرجل ولوجودها قيمة أكبر من قيمته - من وجهة نظري - . والمرأة المسترجلة محتقرة والرجل المخنث محتقر. والإسلام فضّل برّ الأم - وهي الأنثى - على برّ الأب - وهو الذكر - بثلاث درجات وليست درجة واحدة وذلك عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحق الناس بحسن الصحبة فقال: «أملك ثم أمك ثم أمك».. وبعدها قال السائل: ثم من. قال: «ثم أبوك».

إن المساواة تعني عدم سلب الحقوق. وتعني إلغاء التمييز والاضطهاد والعنف وعدم تحجيم المرأة وحرمانها من حقوقها ومنعها

من فرص العمل والحياة والمشاركة في البناء والإنتاج. وتعني عدم منعها من رفع كفاءتها وثقتها بنفسها وقدراتها وتفعيل مشاركتها لأداء الأدوار ذات القيمة في المجتمع. وتعني أن يكون الإنسان إنساناً.. مسؤولاً عن ذاته متحملاً نتائج قراراته سواء كان أنثى أو ذكر.

لقد آمن المجتمع الدولي بأن التنمية الكاملة والمستمرة لا تتحقق إلا بمساهمة المرأة مساهمة حقيقية. وهذه المساهمة لا تتحقق إلا بإلغاء التمييز والعنف والظلم ضد النساء. وهذا الإلغاء لا يتحقق إذا تم تجزئ قيم العدالة والاحترام وحقوق الإنسان وجعلها تقاس بمكيالين واحد للرجال وآخر يخص النساء.

إن الإنسان إنسان. وحقوق الإنسان حقوق للإنسان. والكرامة الإنسانية كرامة إنسانية. أما الظلم فهو ظلم. ولا يكون إلا ظلماً. ولو أن أحدهم مُنع من تقدير معين أو قرار معين أو تحرك معين لمجرد أنه رجل. لهاج المجتمع وماج. أما منع المرأة من أي قرار تتخذه أو أي أمر تقوم به فإنه ليس ظلماً. ويا للمقاييس.

عندما يبلغ الذكر ثماني عشرة سنة أو أكثر قليلاً في مجتمعنا يتوقف تدخل الأب في حياته ويبدأ بصحبته. وعندما تبلغ الأنثى ثلاثين أو أربعين أو خمسين عاماً فلن يستغرب أحد أن يتخذ الأب قراراً بشأنها ولن يستغرب أحد أيضاً لو ردد الأب عبارة (بنتي وأنا حرّ فيها).

إن تدريب الرجل على أن يمقت التسلط والعنف والقهر والظلم وتربيته على أن يكون أكثر جمالاً من الداخل بحيث يحصل على التوازن الداخلي الذي يجعله لا يرى تفوقه من خلال الاستعلاء على غيره وإنما يحقق تفوقه بشكل مستقل. إن هذا التدريب وهذه التربية ربما تكون من أصعب الأمور التي سيحاول المجتمع الوصول إليها يوماً

ما⁽¹⁾. إن الرجل الذي يجمع المرأة ويعزلها ويلغيها حرصاً منه على سلطته وتفوقها يشبه الطالب البليد الذي يرغب في أن يرسب الطلاب ليكون بنجاحه الذي يقترب من حافة الرسوب علامة بارزة بين أقرانه. أما التفوق الحقيقي فصاحبه يفرح بنجاح الآخرين معه. ولا يتمنى لهم الفشل لكي يشعر بتميزه.

عندما خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان حملت المرأة الأمانة كما حملها الرجل ولم ينفرد بها الرجل دون المرأة. وعندما جاءت الرسائل السماوية لم تكن التكاليف للرجال فقط بل النساء مطالبات بما طوب به الرجال. وعند الحساب والجزاء يوم الدين لن يتم التغاضي عن تقصير المرأة في أمر من الأمور التي أمر بها الدين ويُحاسب الرجل. ستُحاسب على أعمالها مثله تماماً ويحاسب على أعماله مثلها تماماً.

إذاً.. المرأة والرجل يحملان الأمانة. والمرأة والرجل مكلفان بما أتت به الرسائل السماوية وآخرها الإسلام الذي لم يستثنها على الإطلاق من أي عبادة من العبادات. حتى الحج وبرغم ما فيه من تكاليف مادية ومشقة جسدية وسفر واغتراب للمسلمات اللواتي في أصقاع الأرض البعيدة، المرأة كالرجل فيه تماماً. كذلك لن يتساهل معها الله يوم القيامة إن تهاونت في حدٍّ من حدوده. إذاً هما يحاسبان على التقصير كل حسب ما قدم. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل، 97) لا فرق عند الله تعالى فالعمل الصالح صالح. سواء جاء من امرأة أو من رجل.

(1) أعلم أن المسافة الزمنية بيننا وبين هذا الأمر بعيدة جداً. لكني أؤمن أيضاً أنها قادمة في أجيال ستأتي بعدنا.

فإذا كانت المرأة بطبيعة تكوينها الذي خلقها الله به - كما يزعم كثيرون - أقل في قدراتها العقلية. أو - على أحسن تقدير من بعضهم - تغلبها عواطفها في المواقف التي يجب أن يتصدر فيها العقل، فلماذا كلفها الله وحملها الأمانة كالرجل ولماذا سيحاسبها تماماً كما يحاسب الرجل؟ ألا يمكن لهذه المخلوقة الهشة الضعيفة أن تغلبها عواطفها - بما أن عاطفتها أقوى من عقلها - وتستسلم لإغواء الشيطان بطريقة أسهل من الرجل فلا تصوم رمضان مثلاً. أليست عواطفها التي تسيطر عليها دائماً وليس عقلها. إذاً عواطفها هي التي ستجعلها تستجيب لإغواء الشيطان في كل أمور الحياة. فكيف سيحاسبها الله بذات الحساب الذي سيحاسب به الرجل وهو لم يحررها من عواطفها التي تغلبها؟ أليست حجة الرافضين لخروجها والتي ملأت كتبهم ومجالاتهم الدعوية وكثير من الأشرطة والكتيبات والمطويات والمحاضرات هي الخوف عليها لأنها ستنجرف إلى الخطيئة بسبب غلبة عاطفتها على عقلها. هل يرى كل هؤلاء بأن الدين الذي من عند الله قد كلفها فوق قدراتها عندما ساواها بالرجل في التكليف وحمل الأمانة؟

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لِيُدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ...﴾ (سورة الفتح، 5 - 6). نلاحظ أن الثواب والعذاب لا يستثنى المرأة. ولا يقول بأنه أقل مما سيلقى الرجل.

أليس الله بأعدل العادلين وأحكم الحاكمين؟ فكيف يكلفها ويحملها الأمانة ويحاسبها كالرجل تماماً ولا يراعي ما بها من نقص في العقل وضعف في الشخصية وغلبة للعواطف؟ إذا كانت سهلة

الانقياد عاطفية المزاج لا تحتكم إلى العقل بل إلى العاطفة فإن تماولها في العبادات يتوافق وهذه الطبيعة التي هي عليها - كما زعموا - وهذا يعني أن يُعفيها الله من الحساب إن لم تعبه كما يجب لأن الشيطان سيتمكن منها أسرع من تمكنه من الرجل وما دامت كذلك - وفق ما تصوره عن المرأة - يجب أن لا تحاسب إن أقدمت على فاحشة الزنا كحساب الرجل. بل على الله تعالى - وفق ما زعموا أيضاً - أن يخفف من حسابها كثيراً لأن عاطفتها التي تغلبها جعلتها تستسلم للرديلة - وعاطفتها تلك هي سبب إصرار القوم على غلق الأبواب دونها وإبعادها عن معترك الحياة.

أي أنهم انتبهوا إلى هذه الطبيعة فيها فراعوها بينما لم يراعها الدين الحنيف الذي جاء من عند الله عندما كلفها بكل التكليف التي يكلف بها المسلم!. وهذا يعني أن لا يعلن محمد صلى الله عليه وسلم من على المنبر بأن فاطمة بنت محمد لو سرقت لقطع يدها ففاطمة ككل النساء أضعف عقلاً من الرجال وأكثر عاطفة وبالتالي يجب أن يكتفي بقطع إصبع فقط لكي يتوافق العقاب مع قدرات الجاني.

العقل يقول: إن الطفل إذا أخطأ فليس كالراشد لأنه طفل وهذا يعني أن لا يتلقى ذات العقاب. وبالتالي فإن ذوات العاطفة يجب - وفق إصرار المجتمع على عاطفتها - يجب أن تتم مراعاة حالتها عند إصدار الأحكام ضدها إن خالفت في أي أمر.

هل هذا ما حدث فعلاً؟ الجميع يعلم أن الدين ساوى في الثواب والعقاب بين النساء والرجال. فهل ظلم الله المرأة الضعيفة العاطفية بذلك؟

﴿... وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصلت، 46).. نفى الله الظلم عن نفسه سبحانه وتعالى وآمناً إيماناً كاملاً لا يخالجه شك بعدله، وعلمنا أن من مقتضيات العدل أن يُحاسب المخطئ ويُكافأ

المصيب كل حسب ما قدم ضمن حدود قدراته التي خلقه الله تعالى عليها.

أن الله لن يحمل الإنسان فوق طاقته ولن تكون المرأة مساوية للرجل في كل هذه التكاليف لو أنه خلقها أقل في قدراتها وأضعف في شخصيتها. فهل نحن حقاً مؤمنون بعدل الله تعالى وحكمته أم أنها كلمات نرددها بألسنتنا فإذا جاء التطبيق اختلف الأمر ورأينا النساء أقل من أن يحملن الأمانة التي تعني المشاركة في مجالات الحياة بكل ما فيها من أجل إعمار الأرض؟

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (سورة آل عمران، 195).

في الآية دليل واضح على المساواة بين الأنثى والذكر وعدم التمييز ضد الأنثى في العمل وفي الأجر وفيه دليل آخر بأنها تكون ممن هاجروا وقاتلوا وقتلوا في سبيل الله. وليس الرجل وحده هو الذي يهاجر ويقاوم ويقتل. فأي عاطفة يخاف القوم من غلبتها على المرأة فيسجنونها ويبعدونها عن الحياة بسببها؟ ويمارسون ضغوطهم وقسوتهم على نساءهم انطلاقاً من كونها ذات تكوين نفسي وعقلي خاص؟

ولأن الله مطلق العدل فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (سورة النساء، 124).

لم يميز نص الآية الكريمة بين الصالحات التي يقوم بها الرجال والصالحات التي تقوم بها النساء. بل أكد على أن العمل الصالح في هذه الدنيا يكافأ صاحبه بالجنة يوم الحساب دون تفریق أو تمييز. فقط اعملوا الصالحات.

هل خصصت الآية كلمة صالح بالعبادات فقط؟ لم يحدث هذا إذ إن الصالح من كل ما يقوم به الإنسان في هذه الدنيا من العمل والتعلم والمعاملة والعبادة في السر والعلن. كلها سيحاسب عليها دون استثناء. فكيف صارت للمرأة أحوال مختلفة في المجتمع تحدد لها وضعها وتحد من قدراتها ثم يتهمون الإسلام بأنه هو الذي وضعها ضمن هذا المستوى المتدني بسبب طبيعتها العاطفية المزعومة؟

في الثقافة العربية بشكل عام يتوارث الذكور مفاهيم عن الذكورة مؤداها القسوة وخشونة التصرف والسيطرة وارتفاع الصوت وغير ذلك من التصرفات التي تخرج عن اللياقة وتهذيب الطبع ولا تليق إلا بالهمجي الذي لا تزال البدائية والفوضى تسيطران على طرائق الحياة كلها عنده. وتتوارث النساء في ذات الثقافة مفاهيم عن الأنوثة مؤداها الخنوع والضعف والخوف وسرعة البكاء وقلة الحيلة. فتنتقل تصرفاتهم، إناثاً وذكوراً، مما تشبعت به عقولهم من معان تصور نوع الجنس. إذًا.. غلبة العاطفة وقلة الخبرة ليست حلقة ضمن جينات النساء دون الرجال. بل هي تربية تنربى عليها المرأة والرجل. فتنظر المرأة إلى نفسها وينظر إليها الرجل على أنها أقل منه دائماً وفي كل حال.

وعلى افتراض ظهور عقرب أو فأر أو حية أو لص في المنزل فإن على الرجل مواجهة الموقف ومعالجة الأمر مهما كان شعوره بالخوف عظيماً، وعلى المرأة إبداء الهلع والخوف حتى وإن كان الأمر لا يستدعي هلعها. فإن أظهر الرجل خوفه تناقص قدر رجولته في

عينها وعيني نفسه وإن لم تخف هي وأظهرت شجاعته، تناقص قدر
أنوثتها في عينه وفي عين نفسها. حتى أن العوام دائمو التعليق على
الطفل الذكر إذا بكى للتأكيد عليه بأن البكاء ليس للرجال بل للـ
(حريم فقط) فيحبس دموعه بعد هذا التنبيه ويتعلم أن لا يبكي ما دام
حيًا إلا إذا أغلق الأبواب على نفسه بحيث لا يراه أحد.

ونشاهد بوضوح عند كثير من النساء تدني احترامها لذاتها،
كما ونلاحظ افتقار المرأة إلى الثقة بالمرأة. ليس هذا وحسب بل
وتعاني النساء من تسلط النساء.

وهذه ثلاث مشكلات متداخلة، أوجدتها طريقة التربية التي
تخضع لها النساء بشكل عام.

كثيرة هي الشواهد على افتقار المرأة إلى الثقة بالمرأة وكثيرة هي
التصرفات التي تدل على هذا الافتقار. المرأة لا ترى المرأة أهلاً للثقة
كالرجل. فالأم تعطي مساحات من الحرية للذكر دون الأنثى من
أبنائها وبناتها.

ويتردد في المجتمعات النسوية أحاديث عن عدم ثقتهن بالطبيبة
لأنها امرأة. مهما أثبتت جدارتها. مع اضطرارهن الواضح إلى
مراجعتها وتفضيلها على الطبيب الرجل لاعتبارات فقهية أو
اجتماعية، وهي بهذا التذبذب في الموقف والرأي تستظهر نظرة
المجتمع لها، وشعورها الذاتي بالقصور واللامسؤولية، والذي يؤدي إلى
شعور بالنقص ودونية الذات.

كذلك نلاحظ تسلط المرأة على المرأة داخل المجتمع النسائي
المغلق فصارت النساء خير حارسات على ما يتلقينه من تعليمات
الرجال للضغط على النساء. وليس أبلغ في ذلك من أنظمة التعليم
كشاهد في مدارس تعليم البنات. حيث تتلقى العاملات فيها كل
تعاليمهن ذات الطابع الاضطهادي للمرأة، يتلقينها من الرجال

ويتفانين في تنفيذها وربما يزدن عليها. فما أكثر التعاميم التي تعج بها الملفات الصادرة من الرجال وما أشد إخلاص المديرات لها وما أحرصهن على تنفيذها. فإذا تساءلت أما الإدارة المدرسية عن سبب قسوة ما رأيت من أساليب لا تحترم المرأة سواء كانت طالبة أو معلمة جاء الجواب السريع الرادع لي المانع من أي حوار أو حتى تفكير في حوار من قبل إدارة المدرسة: - التعميم ينص على كذا.

إن التربية التي تتلقاها الطفلة تشكلها على تلك الحال. ولولا ذلك الإرث الذي تنطلق منه تربية البنات لرأينا إن المرأة إنسان والرجل إنسان، ويمكن أن يكون الإنسان - امرأة كان أو رجلاً - طيباً لطيفاً مسالماً متسامحاً محباً للخير ساعياً إلى الجمال. ويمكن أن يكون شرساً أو مجرماً أو قاتلاً حسب ما يعيشه من ظروف أثناء تنشئته.

وقد قرأ الجميع تقريباً عن مجنذات من النساء أشرفن على سجون التعذيب أو مارسن تعذيب المساجين بأنفسهن وتلذذن بموت الضحية من شدة العذاب المذل. وقرأنا أيضاً عن قاتلات قطعن القتل ومالأن بلحمه أكياساً بلاستيكية أو أحرقن جسده. بل وقرأنا أو شاهدنا على الفضائيات أخباراً عن اللواتي تفنن في أساليب القتل، وهذا الخبر مثال على ما أقول: (شهدت إحدى مستشفيات السعودية حادثه غريبة كان ضحيتها رجل في العقد الثالث من عمره، وكان مصاباً بحروق شديدة وصفها الأطباء بأنها "حروق من الدرجة الثانية"، وتركزت الإصابة في الوجه والرأس وقد كانت المفاجأة لدى الجميع بأن الزوجة هي المتسببة في هذه الإصابات بصب زيت ساخن على وجهه ورأسه لرغبته في الزواج من أخرى)⁽¹⁾.

(1) قناة العربية نت، الاثنين 16 يناير 2006م - 16 ذو الحجة 1426.

وقرأ الجميع أيضاً عن من تعالج وتطب وتعلم وتحنو وتساعد وتبرع وتسعى لنشر الخير وتقرأ وتكتب وتنظم... إلخ. وفي الدنيا رجال تاجروا بالإنسان وقتلوه وتفننوا في تعذيبه، وفيها أيضاً من ساهم في إنشاء المنظمات للدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين والمشردين والمرأة بالطبع.

إذاً الإنسان إنسان، أنثى أو ذكر، قال تعالى عنه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (سورة البلد، 10). أي هديناه الطريقين، طريق الخير وطريق الشر وبعد ذلك على الإنسان (الأنثى والذكر) أن يختار وأن يتحمل تبعات اختياره وكل ما سيترتب على ذلك الاختيار. لأنه سيحاسب على عمله الذي أداه بمحض اختياره. ولن يحاسب وفق نوع جنسه.

إذا كان هذا التخيير من الله وإذا كان الإنسان مسؤولاً ومحاسباً على أعماله كلها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فإن الله فعل هذا لأنه يعلم أنه أهل المرأة كما أهل الرجل لتلك الأمانة ولذلك الحساب. وإلا لما حاسبها على أعمالها كما سيحاسب الرجل.

وعندما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بَبْهَتَانَ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الممتحنة، 12). فإن هذه الآية الكريمة توضح مدى استقلالية المرأة في شخصيتها عن الرجل إذ ليست بمعزل عن الحياة على الإطلاق حسب نص الآية الكريمة. ليست نصف إنسان وليست تابعة لأحد. إن لديها الأهلية الكاملة حتى في المشاركة السياسية فكيف بأمور المجتمع. الآية الكريمة السابقة لم تطالب أولياء الأمور مبايعة الرسول نيابة عن نسائهم بل تمت البيعة بين الرسول

الكريم والمسلمات وجهاً لوجه وبعد أن تَمَّت المبايعة بينه وبينهن صلى الله عليه وسلم لم تمر تلك المبايعة مرور الكرام بل نزلت فيها هذه الآية لتوضح للناس جميعاً موقف الإسلام من المرأة في هذا الجانب. فإذا كانت البيعة من المرأة مع رسول الله قد حصلت فعلاً وبشكل مباشر وليس بالنيابة فإن هذا يدل على احترام الإسلام لها ويعني بالضرورة أنه يحترمها أن مارست ما هو أبسط من ذلك من الأعمال بشكل مباشر وليس بالنيابة.

كيف رأى - كثير من - رجال الفقه أن المرأة أقل من أي مشاركة في أي مجال فما بالنا بالمجال السياسي تحديداً؟ واتفقوا على أن تلزم بيتها إلا في حال الضرورة. ولماذا أصبحت أكثرية من النساء بهذه الاستكانة وقلة الحيلة. يتباهين بضعفهن ويستعذبن آلامهن في بلادنا؟

حدث هذا لأن الإنسان يتشكل منذ أن يولد وفق ما يجد في بيئته من أساليب في التعامل وتراث وأفكار وقيم واتجاهات. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» إن الرسول الكريم يتكلم عن القدرة على تشكيل المولود وفق ما يجد في البيئة التي يولد فيها. وما يكتسبه من معارف وخبرات هي التي ستصنع شخصيته فيما بعد.

إن المرأة كالرجل في نظر الدين وإلا لما سمح لها أن تنوب عنه كما ينوب عنها في الحج. وأؤكد على الحج لأنه مرهق، خصوصاً فيما مضى. وقد عقد البخاري باباً سماه "باب حج المرأة عن الرجل" ورد فيه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل رديف النبي صلى الله عليه وسلم، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم

يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: إن فريضة الله أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟. قال: «نعم». وذلك في حجة الوداع.

وهذا النص تناوله الفقهاء ليؤكدوا على جواز كشف المرأة وجهها إذ إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما جعل يصرف وجه الفضل إلى الجهة الأخرى كان يحثه على غضّ البصر، أي التأدب في وجود المرأة التي جاءت تسأله عن أمر أبيها. لكنه لم يطلب منها أن تغطي وجهها. هذا جانب من جوانب النص. أما الجانب الآخر فهو في كونها ستحج عن أبيها. إذ إنها لو كانت عند الله أقل من الرجل في شيء.. أي شيء، لما قال رسول الله عندما سألته «نعم» ونلاحظ أن النعم لم يتبعها (حجي. محرم) أو (أليس لك أخ يحج عنه) أو ما شابه مما يوحى بأن النساء أقل في بعض أمورهن من الرجال. ونلاحظ أيضاً أن البخاري أورد "وذلك في حجة الوداع" وهذا يعني عند اقتراب موعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وليس في بدايات الدعوة.

وزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كنّ يذهبن إلى الحج بلا محرم وذهب معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. فهل عمر كخليفة للمسلمين ومن معه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمّهات المؤمنين زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفعلون ما لا يجوز فعله كلهم متفقين بعد وفاة الرسول؟ لقد أجمعوا على جواز سفرهن رضي الله عنهن. والدليل على هذا الإجماع عدم اعتراض أحد من الصحابة عليه. بمن فيهم الخليفة نفسه عمر بن الخطاب. وفي البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نغزو أو نجاهد معكم؟ فقال: لكن أحسن الجهاد وأجمله

الحج، حج مبرور. فقالت عائشة فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عائشة التي تشترك في الغزوات وتشمر عن ساعديها وتهزل بالماء بين المحاربين والجرحى تسقيهم وتطيبهم، تطمح إلى ما هو أكثر. إن مجرد المشاركة في الجهاد لا تشبع طموحها، هي تريده فرضاً عليها كالرجل وليس مجرد مشاركة اختيارية. فيخبرها رسول الله أن الحج جهاد. فلا تترك الحج بعد أن سمعت هذا القول. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال. هل أعاقها عدم وجود ولي أو محرم يرافقها كلما أرادت الحج؟ برغم صعوبة الحج في تلك الأيام التي تخلو من وسائل المواصلات المريحة والفنادق المكيفة وشركات الحج؟ لم يحدث لها هذا ولا غيرها من أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

نعود الآن إلى عقل المرأة وما تعارف عليه كثيرون من أنه ليس كعقل الرجل مستشهادين على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، 282).

لقد حدد الله تعالى في نص الآية السابقة الإشهاد على الدّين برجلين أو رجل وامرأتين. ولم يطلق الأمر في الشهادات جميعها. أي أن الآية تتحدث عن الإشهاد في أمر الدّين. وليس عن الشهادة في أمور الحياة المختلفة. وقد توصل كثير من الفقهاء إلى هذه الحقيقة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية. وسبب ذلك يعود إلى قلة النساء المشغلات بالتجارة بشكل عام في ذلك الوقت مقارنة مع الرجال.

لو أن الأمر مطلق. أي في كل شهادة في أي أمر امرأتان مقابل رجل واحد. فكيف قبل المسلمون أحاديث عائشة رضي الله عنها وسائر الصحابيات؟ أليست رواية الحديث شهادة بما قاله أو فعله سيد الخلق عليه الصلاة والسلام؟ كيف نأخذ الأحاديث على أنها أقوال وأفعال رسول الله إذا كانت من الصحابيات وليست من الصحابة ما دامت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟

القرآن الكريم.. كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم كانت صحائفه عند حفصة رضي الله عنها وليست عند أي رجل من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ويا للعجب.. يستأمنون امرأة على الصحائف التي كتبت عليها الوحي المنزل من عند الله وتبقى في حوزتها وضمن أمانتها إلى أن تسلمها لعثمان بن عفان الذي أمر بكتابة القرآن في مصاحف يوزعها على الأمصار. أليست حفصة امرأة؟ ألم يكن في الرجال من صحابة رسول الله من يحمل هذه الأمانة العظيمة عنها ليحافظ على كتاب الله، ببقاؤه ولو لليلة واحدة عند امرأة فيه من الخطر ما فيه لضعفها وغلبة العاطفة فيها على العقل - كما يزعمون عن كل النساء - ألا يخافون من ضياع بعض الآيات؟ أو من الزيادة أو النقص؟ إنها امرأة ذات عاطفة تغلب العقل. وذات شهادة بنصف شهادة الرجل. هل سيتقنون بشهادتها إن قالت هذه هي الصحائف؟

لقد حملت حفصة بنت عمر رضي الله عنها الأمانة وقبيل كل المسلمين - كلهم - شهادتها إذ إن تسليمها الصحائف لعثمان رضي الله عنه يعني أنها تعطيه ما في حوزتها من كلام الله المكتوب كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم. دون أن يزيد أحد على ما لديها أو ينقص منه شيء. ولم يتطلب هذا الأمر العظيم رجلين أو رجلاً وامرأتين.

أما الدّين.. الدّين فقط، فلا تزال كثير من النساء إلى اليوم بعيدات عن التجارة إلا القليلات منهن. لهذا فقد لا تهتم الواحدة منهن بما ذكر أمامها من أرقام عن المبلغ الذي استدانه أحدهم من الآخر أو أرجعه إليه أو بعض ما أرجع.

لو كانت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل لما جاء نص القرآن الكريم مساوياً بينها وبين الرجل في الآية التي تحلف فيها المرأة كما يحلف فيها الرجل. ولم يقل القرآن بقبول شهادة الرجل دون المرأة إذا حلف أنه صادق. ولم يقل بقبول حلفها إن حلفت إنها صادقة. بل هما متساويان تماماً. فأين ذهب نقصان العقل الذي كان الأولى أن يجعل شهادتها في هذه الآية غير مقبولة؟ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة النور، 6 - 9)⁽¹⁾. إذا هي تشهد كما يشهد.

(1) نلاحظ أن القرآن الكريم في هذه الآية جعل اللعن - وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله - من نصيب الرجل وجعل الغضب من نصيب المرأة. والغضب قد يعقبه الرضا أما اللعن فلا عاقبة له سوى الخسران. ولم يرد أي نص في القرآن الكريم يلعن المرأة. وورد هذا النص الذي يلعن الرجل.

شهادة بشهادة ويتساويان في عدد الأيمان. ويزيد عليها بأن يلعن نفسه ولا تلعن هي نفسها وإنما تكتفي الآية الكريمة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ولو أن المرأة أقل عقلاً وأكثر عاطفة فهل سيتنازل عمر شخصياً رضي الله عنه عن ما يقول ويعترف وهو يخطب في الناس بأنه أخطأ وأصابت امرأة عندما كان ينادي بأن لا يبائع الناس في المهر المعطى للمرأة فأجابته إحداهن بأن رأيه غير صحيح استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿وَأْتَيْتُمَّ إِحْدَاهُنَّ قَنَظَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ (سورة النساء، 20). أمام كل من يستمع إلى خطبة عمر يتراجع ببساطة ويعترف لها بأنها أصابت وأخطأ. على أن موقفه كصحابي لن يكون موازياً ومساوياً لعظمة مواقف القرآن الكريم وما جاء فيه من مكانة وتكريم للإنسان، والإنسان تعني المرأة والرجل.

أما صداق النساء فهو المهر الذي يظن الرجل أنه بدفعه قد اشترى زوجة كما يشتري نعجة من سوق الغنم. هذا المهر ليس إلا هدية. المهر مجرد هدية يتقرب بها الرجل من المرأة التي يريد الاقتران بها ويقدمه لها وليس إلى وليها قبل عقد القرآن وليس بعد عقد القرآن. إذاً المهر ليس ثمناً لشيء على الإطلاق يقول تعالى: ﴿... وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً...﴾ (سورة النساء، 4). ومن فتح لسان العرب سيجد فيه ما يلي: النحل إعطاؤك الإنسان شيئاً بلا استعاضة وعمّ به بعضهم جميع أنواع العطاء وقيل هو الشيء المعطى.

إذاً النحلة هي الهدية أو العطية التي لا يراد بدفعها شيء. أي عطاء مجرد من أي استعاضة أو مردود بعده.

القرآن يأمر الرجل بأن يهدي المرأة هدية ليتقرب بهديته من زوجة المستقبل ولينشأ بينهما التواد والتقارب بهديته تلك. أي أن الهدف من الهدية هو أن يتقرب منها بأسلوب مهذب ووريق وأن

يبدى لها رغبته في الاقتران بها. ولكن البعض فسّر المهر بتفسيرات غريبة لا تقبلها كرامة المرأة الحرة. كأن قالوا بأنه ثمن لما استحله الرجل وما استمتع به من زوجته ولهذا نرى أن الناس تجعل مهر البكر ضعف مهر الثيب. ويا للعجب!! أو لم تستمتع زوجته به أيضاً⁽¹⁾؟ فكيف يدفع طرف للآخر في علاقة زوجية ثمن المتعة الزوجية. كيف يصورون ما أحلّه الله تعالى وكأنه الحرام الذي يدفع فيه الرجل لبائعة الهوى إذا باعت جسدها له؟ كيف تساوت علاقات الحلال والحرام وصار المهر أجراً للمعاشرة الزوجية. تماماً كالبغي التي يذهب إليها الزاني ويعطيها ثمن متعته بجسدها. قد يدفع الزاني أجر ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً أو أقل أو أكثر. ويدفع الزوج أجر ما تبقى لها من ليال في حياتها كلها!! يا لتفسيراتهم العجيبة. أو هكذا يظنون أن القرآن الكريم نزل من عند الله ليأمرهم بدفع أجر لعلاقة الجنس بين الزوج وزوجته!

أما الإرث فقد ظنّ كثيرون أيضاً أن للذكر مثل حظ الأنثيين دائماً وأبداً. فكل أنثى لها نصف ما للذكر وكل ذكر له ضعف ما للأنثى. وهذا غير صحيح. عدل الله ورحمته أكبر مما يظنون. فالمرأة ترث من ابنها تماماً كما يرث الأب. أي أن المرأة متساوية مع الرجل في هذه الحالة. كذلك تتساوى الأخت مع أخيها إذا كانوا أخوة في الأم. أي أن المرأة تساوي الرجل أيضاً. وقد ترث المرأة أكثر مما يرث الرجل. في حال ما ماتت امرأة لها أخت وأخوين شقيقين فإن للأخت السدس

(1) ظنّ بعضهم أن المهر ثمن لما استحله الرجل من زوجته أو ثمن لما استمتع به منها وهم بهذا يرون العلاقة الزوجية من طرف واحد. أي أن الرجل يقيم علاقته مع المرأة متى شاء وينهيها متى شاء دون اعتبار لرغبتها هي. أي أنه لا يأبه لمشاعرها فقد أعطاها مقابل ما يفعل مالا هو المهر. وهذه نظرة لا تقارنها حتى البهائم. فالأنثى والذكر حتى عند الحيوانات يشتركان في رغبتهما في إقامة التزاوج. فهل يعقل أن يقبل الأسوياء من الرجال هذا النوع من العلاقات؟

وللرجلين الشقيقين السدس معاً يتقاسمانه. وفي هذه الحال صار نصيبها ضعف نصيب الرجل. أي في هذه الحالة صار للأنثى مثل حظ الذكـرين. كذلك يمكن أن يخرج الأخ للأب من الميراث تماماً فلا يرث وترث الأخت. فإذا ماتت امرأته فإن لشقيقتها النصف ولزوجها النصف ويخرج أخوها من أبيها تماماً أما لو كان هذا الأخ بنتاً فسيرث السدس. أي وهو ذكر لا يرث ولو أنه أنثى فسيرث سدس التركة. ولو ماتت امرأة ولها زوج وأبوان فلزوج النصف وللأم الثلث وللأب السدس يا سبحان الله.. قرأ الناس - للذكر مثل حظ الأنثيين - فقط. ولم يقرأوا ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ...﴾ ولم يقرأوا: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا بَوِيهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ (سورة النساء، 11).

ثم لم يقصروا الأمر على الميراث فيما فهموه من حظ الذكر والأنثى بل عمموا على سائر الحياة. فها هم يقولون بأن الدية في المسلمة نصف دية الرجل. وكأنها ليست نفساً أزهقت. يقول الشيخ القرضاوي في كتابه مركز المرأة في الحياة الإسلامية [حديث - دية المرأة نصف دية الرجل - قال البيهقي: إسناده لا يثبت ويبقى الحديث الصحيح (في النفس مئة من الإبل). إنسانية المرأة من إنسانية الرجل وكان القصاص هو الحكم بينهما في حال الاعتداء على النفس وكانت جهنم وغضب الله هو الجزاء الأخروي في قتل المرأة كما في قتل الرجل. وما دمنا نستقي الأحكام أولاً من القرآن الكريم فعبارة القرآن عامة مطلقة لم تخص الرجل بشيء منها ولا المرأة⁽¹⁾ ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ...﴾ (سورة النساء، 92).

(1) دكتور يوسف القرضاوي، مركز المرأة في الحياة الإسلامية، ص 27.

تقدم الإنسان لا يقاس بمدى ما يستخدمه من مخترعات متطورة وما يستعمله في حياته من أدوات مختلفة. إن تقدم الإنسان يقاس بمدى تحقق إنسانيته داخل مجتمعه. ويظن البعض أيضاً أن المدنية تعني وفرة السلع أو عظمة البيوت أو اتساع الطرق. ولكن المدنية الحقيقية هي التي توفر السعادة للناس. وبالتالي فإن كل الاختراعات التي توصل إليها العالم المتحضر وشاركناه في استهلاكها فقط وليس إنتاجها ليست إلا وسائل - مجرد وسائل - لراحة الإنسان وسعادته. وإذا كان الإسلام قد جاء من أجل سعادة الإنسان وراحته ثم لا يكون المسلم سعيداً ولا مرتاحاً بسبب تجاوزات البعض وقسوتهم عليه فإنهم أبعد ما يكونون عن تعاليم الإسلام.

إذ كلما كان الإنسان متمدناً كان أكثر رحمة وتسامحاً مع الآخرين. وأكثر وعياً بوجود الاختلاف والتباين بينهم. وهذا يعني إن الذين لا يتعارض مع المدنية ولا يؤيد الهمجية - عكس ما يقدمه أدياء الفضيلة وحراسها باسم الدين - ولو تأملنا تصرفات الرسول الكريم لأقسمنا أنه أكثر تمدناً من كل الذين يدعون أنهم أبناء هذا العصر⁽²⁾. فإذا كان أحدهم غير قادر على التسامح مع ذويه وعلى رأسهم زوجته وبناته وغير قادر على فهم معنى إنسانيتهن ولم يدرك حدوده فيما يخص سلطته عليهن فإنه مهما ركب من سيارات فارهة ومهما استخدم من منتجات حضارية يظل همجياً بعيداً عن أي تمدن.

(2) مشهد واحد يكفي لفهم كيف كان رسول الله متمدناً يرفض القسوة في التعامل مع الآخر ويؤكد على الرفق واللين والتسامح. وهذا المشهد هو موقفه من الإعرابي الذي بال في المسجد - ومع أنه مسجد وليس مكاناً آخر إلا أنه صلى الله عليه وسلم أوقف الصحابة الذين ثاروا على الرجل وطلب منهم أن يتركوه لينتهي ما هو فيه ثم وضَّح له بكل رفق وحب وتسامح ما يريد توضيحه فهل بيننا من يحب الرفق والتسامح.

العقلاء فقط هم القادرون على الخضوع لسلطان العقل ولذا فهم يرون الأمور مجردة عنهم ولا يحكمون على علاقتهم بالآخرين من خلال رغباتهم وحبهم للسلطة. أما الذين ينطلقون في أحكامهم على الناس وفق غرائزهم فقد ارتدوا إلى الهمجية إذ تسيطر الغريزة ولا مكان فيها للعقل.

فإذا كانت المرأة لا تخرج إلى الحياة ولا تعرف كيف تشارك فيها لأن الرجل خاف عليها من غرائزه وسجنها خلف الأسوار ثم انشغل بها. يراقب من لديه من النساء لكي لا ينظر إليهن أحد ويراقب الأخرى لعله يفوز بنظرة من إحداهن. ليس له شاغل يؤرقه سوى النساء فيحمي القرية ويلهث خلف الغريبة، يأخذ قريته بسيارته إلى حيث يوافق لها أن تذهب ويمنعها من أن تذهب إلى حيث لا يريد لها أن تذهب ثم لا يفكر إلا في شكل المرأة إذا فكر في الزواج، فيستدل على شكلها حسب ما تصف له قريته المرأة التي ينوي خطبتها، ويكون الشكل وحده حسب ما ورده من وصف وليس كما رآه، الأساس فيما تملكه المرأة من مواصفات ليتقدم لها خاطب.

وبعد أن يكون قد عرف أن نسبها متوافق مع نسبه يقدم على الزواج بها ما دامت في الشكل تناسبه. وفي مجتمعنا الجميع يحرصون على مسألة النسب ويخضعون لقوة الفولت في عروقهم. فهذه عائلة من فئة مئة وعشرة وتلك من فئة مئتين وعشرين وتلك الفئة لا تتزوج من هذه. اختلاطهم ربما يشعل الحرائق بسبب الماس الكهربائي. وربما إذا تحررت المرأة وتوقف المجتمع عن التمييز العنصري ضدها، ربما حينها يتوقف أيضاً عن التمييز العنصري حسب العرق.

أعود إلى الشكل وأقول يبقى هو الشيء الوحيد الذي يجعل خاطباً يقدم أو يتراجع في خطبة امرأة. أما طباعها أو أفكارها أو

أحلامها أو مستواها الثقافي أو... إلخ كيف له أن يدركها. ثم ما قيمتها أصلاً في مسألة الزواج وهو يريد أن يتزوج ليكون في منزله امرأة تقوم على خدمته وتنام في فراشه. ولا بأس أن تعاونه في النواحي المادية إن كانت موظفة. هو يريد امرأة في سن الزواج وشكلها حسب ما وصفوه يناسبه.

إذاً.. النظر للمرأة كإنسانة ذات طبائع أو أحلام أو ثقافة مسألة غير واردة ضمن معايير المرأة الأنسب أثناء البحث عن زوجة. إنها فقط - في نظر المجتمع - ستنجب الأطفال وتخدم الرجل وتستجيب إن دعاها إلى الفراش. وفي هذه الحالة النساء متساويات.

إن الرجل الذي ينطلق من هذه النظرة للمرأة، يحكم على نفسه أولاً قبل أن يحكم عليها بأنه أقل من أن يثق بنفسه وبقدرته على أن يهذب ذاته وفق ما جاءت به الرسائل السماوية لتنتقل بالإنسان من مستويات الغرائز إلى مستوى العقل.

كان الرجل في الماضي القريب يرى المرأة ثم يقرر أن يخاطبها وليس العكس. أي أنها تمارس حياتها بشكل طبيعي. ولهذا يمكن أن يراها خارج منزلها فتعجبه ويخاطبها.

أما اليوم فعلى الرجل أن يذهب إلى منزل الفتاة ويخاطبها ثم ينظر إليها فإن أعجبهته تم الأمر وإن لم تعجبه فهو أمام أحد خيارين: الأول هو أن يتراجع ويتنقل من بيت لبيت وكأنه يريد معاينة سيارته التي سيشتريها قبل أن يدفع الثمن. والثاني أن يتمم الزواج برغم أنها لم تعجبه ولكنه لا يريد أن يؤذي مشاعرها إذا خرج دون رجعة.

وكم هو مهين أن يأتي الخاطب إلى المنزل ثم يطلب رؤية الفتاة فتقف أمامه حاملة القهوة أو عصير الفاكهة ثم تنصرف وتبقى في انتظار ما سيحدث.

لو أنها ليست معزولة لأمكنه رؤيتها في الطريق بشكل تلقائي
فإن أراد خطبها وإن لم تعجبه لم يجرحها ذلك لأنه لم يتقدم ثم
ينسحب.

من يتأمل كتاب الله جلّ وعلا ويقرأ: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ
مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم، 21). يدرك أن علاقة
الجسد ليست هي ما ينطلق منه الدين في الزواج. فالآية الكريمة لم
تقل عن الزوجة "لتسكنوا عندها" أو لتسكنوا معها. ولكن قال
تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لأن السكن عند فلان يعني السكن بالبدن.
أما السكن إليه فيعني السكن الروحي والطمأنينة والهدوء النفسي.
يعني العلاقة الحميمة الطيبة المليئة بالمودة والرحمة. وبعد أن أكد
القرآن الكريم أن السكن إلى الزوجة وليس سكناً عندها ولا سكناً
معهما. عاد وقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. وبرغم كل هذا
الجمال في نوع العلاقة بين الرجل وزوجته من منظور الدين الحنيف
يبقى كثير من الرجال غير قادرين على التواصل مع المرأة بالمودة
والرحمة، وكل ما يهدفون إليه من وجودها معهم أنها لعلاقة الجسد
وإنجاب البنين.

وأرى أن هبوط الإنسان إلى مستوى الغرائز وابتعاده عن إحكام
العقل هو الذي جعل الرجل العربي بشكل عام يضع المرأة ضمن هذا
التابو بحيث يصبح من الخطر الخوض في المسائل التي تتعلق بإنسانيتها.
قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مَنْ
نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي
الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (سورة
النساء، 15). هذه الآية الكريمة كانت عقاباً للزانية. تجلس في بيتها
إذا ثبت بأنها زنت. إذاً البقاء في البيت هو عقوبة شديدة لمن أتت

بفاحشة الزنا تحديداً حسب نص القرآن الكريم. أي أن البقاء في البيت هو عقاب وفق ما يقوله الله تعالى. ولم يقل القرآن الكريم بمعاقبته مجرد الشك في وقوعها في الزنا ولم يقل بمعاقبته لشهادة شخص أو شخصين أو ثلاثة. لا بد أن يكونوا أربعة لأن العقاب شديد وهو الحبس في المنزل.

كيف.. كيف تكون هذه العقوبة التي لم يكن يُحكم بها إلا إذا ثبتت الفاحشة بأربعة شهداء لشدة العقوبة وقسوتها. كيف تكون فيما بعد أمراً عاماً لكافة المسلمات؟ كيف يكون خروجها فقط للضرورات وتبقى العمر.. كل العمر معزولة عن المساهمة في بناء نفسها وبناء الحياة؟؟ ليس هذا وحسب بل عليها أن تبقى وترعى المنزل ومن في المنزل!

هل يعاقبنا ديننا - نحن النسوة - لمجرد أننا نسوة؟ حاشا لله. هل يفرض في بدايات الرسالة عقوبة الحبس في البيت على التي يثبت إتياها فاحشة الزنا ثم يستخدم نفس العقاب بعد ذلك للنساء لمجرد أنهن نساء؟ هذا ليس عدلاً وليست رحمة. والله أعدل العادلين وأرحم الراحمين. لكن الأسوار وما أحاط بها من فتاوى مغالية وآراء عجبية ضد المرأة جاءت مخالفة بفجاجة ووقاحة لما في الدين من عدل ورحمة.

أما قوامة الرجل التي تمددت واتسعت بطريقة مطاطية مع الوقت منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى الآن فأصبحت واسعة جداً بحيث صارت تعني الاستعلاء والتحكم والسيطرة والأمر والنهي والموافقة والرفض فإنها وبنص القرآن تعني الإنفاق على البيت والأسرة والقيام بخدمة من في البيت. لكن نسي كثيرون أو تناسوا أن القوامة ليس لها علاقة بالسيادة ولا الهيمنة على المرأة ولكنها تعني تحديد مسؤولية الرجل تجاه المرأة. وتحديد المسؤولية هذا لا يعني الانفراد بالرأي أو

قمع النساء أو التضييق عليهن وفي البخاري عن الأسود بن يزيد قال: (سئلت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته قالت كان يكون في مهنة أهله - أي في خدمة زوجته - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة). رسول الأمة يُخدم في بيته صلى الله عليه وسلم. فهل يكتفي كثير من رجال اليوم بالصمت وقراءة الجرائد أو متابعة التلفزيون داخل البيوت؟ ليتهم يفعلون هذا فقط. إنهم يزيدون عليه بإظهار السخط والأوامر.

الزوجة تحب زوجها وتبحث عن رضاه. لكن ماذا إذا كان إظهار الحب هذا سببه الخوف من غضبه؟ ماذا إذا كان إظهار الحب هذا تجنباً لسخطه أو استدراجاً له لأخذ موافقته على أمر ما كزيارة صديقة أو الذهاب للسوق أو... إلخ. هل يكون الحب حقيقياً حينها؟ أم أن الزوج يظنه حقيقياً ولا يدري أنه من وراء القلب؟ أم يدري ويتجاهل؟

وزوجة أخرى تحب زوجها وتبحث عن رضاه. مع أن أمرها بيدها. فلا تخاف أن يرفض شيئاً تريد القيام به. هل نقارن صدق شعورها تجاه زوجها بصدق شعور تلك التي تقدم الحب مقابل الموافقة على ما يمكن أن يرفضه إن كانا على خلاف؟ أي.. لتتخيل سيدتين كلتيهما تحبان زوجيهما وتسعيان لنيل رضاهما. الأولى تريد رضاه لأنه إن كان غاضباً فسيقلب البيت جحيماً وسيحرمها من الخروج والزيارات. والأخرى تريد رضاه برغم أنه غير متسلط ولا يظهر سخطه واستيائه منها مهما غضب ومهما اختلفا. أي الحبين أصدق وأنقى وأجمل؟ والأمر لا يتعلق بالزوج فقط. الأب والأخ في ذات الموقف فالبنات والأخوات يدارين الرجل ويضطرن إلى المداينة والتحايل للحصول على الموافقة في أشياء كثيرة.

لا يركّز كثير من الفقهاء والدعاة على فضل المرأة على أبيها أو من رعاها وذلك بأنه سيدخل الجنة بسبب رعايته تلك بل ينادون بالخوف مما ستجلبه إن أعطيت الحرية وهذا يعني أنها ليست أهل لها وبمجرد أن تحصل عليها ستستغل الموقف وتأتي بالفاحشة. يركزون على ضرورة إحكام الأبواب على البنات ولا يعلنون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة» رواه البخاري.

يحسن إليهما!!!!. الإحسان يتنافى تماماً مع القسوة والاضطهاد، يتنافى مع القمع والتسلط، يتنافى مع فرض الرأي وسلب الحرية. الإحسان هو الخير والعطاء والرحمة والحب والطيبة. لقد تجاهلوا الإحسان وصارت البنت التي يدخل الرجل بسبب الإحسان إليها الجنة هماً يؤرقه ما دامت معه.

القوة والضعف (تأملات)

تقدر النساء على كل ما نقدر عليه نحن الرجال وليس
بيننا وبينهن فرق.. إلا أنهن أكثر لطافة.

فولتير

إن القائلين بعجز النساء وضعف النساء وغلبة عواطف النساء لا
زالوا يقيسون القوة والضعف حسب شيئين اثنين. الأول هو معيار
القوة الجسدية. والثاني هو ما يحمله التراث من نظرة دونية للمرأة
ولهذا ظلوا يرددون أن المرأة ضعيفة. ولكن إذا نظرنا إلى المرأة بمعايير
أخرى فهل حقاً هي ضعيفة؟ أم أنها أقوى من الرجل أحياناً كثيرة؟
الدراسات الطبية تؤكد أن قدرات النساء على مقاومة الأمراض
أعلى من قدرات الرجل. فهل هن ضعيفات والرجال هم الأقوياء؟
إذا كانت المرأة أطول عمراً من الرجل برغم ما تقدمه لجنينها من
غذاء وأوكسجين طوال التسعة أشهر أثناء احتوائه في رحمها. فهل
المرأة ضعيفة؟

الرجل يرى القوة فيمن يستطيع أن يطرح الآخر أرضاً في مباراة
للمصارعة. لكن.. هل الحياة المشتركة على هذه الأرض مجرد حلبة
لمتصارعين؟ إنها حياة. - وأرى - أن من ظنها حلبة فقد خائنته
ظنونته. والحياة لا تتطلب أن تقف المرأة أمام الجمهور نداءً لرجل
تصارع. الحياة بها أشياء كثيرة جداً تصل بالإنسان إلى السعادة إذا
عرف كيف يكون شريكاً حقيقياً. شريكاً وليس سيداً مطاعاً.
الأسد قوي جداً وملك للغابة كما يقال. ولكن.. الفراشة أيضاً
قوية برغم الاعتقاد بأن الأسد أقوى منها. إنها تهاجر من مكان إلى

مكان يجناحها الملون الصغير. تعبر البحار والأنهار لتصل إلى بلاد بعيدة. فهل يعبر الأسد بحاراً وأهواراً؟ هل يستطيع مغادرة غابته أصلاً؟. انقرض الديناصور وبقيت النملة كل هذه الملايين من السنين. فأيهما القوي؟

إن النظر إلى الأشياء بمعيار واحد قد يقلص من قدراتنا على الرؤية. علينا فقط أن نبحث عن معايير مختلفة إذا أردنا الموضوعية والإنصاف وبعدها نقارن وستتغير نظرنا للقوة بعد ذلك.

إن المقارنة الجسدية التي يعدها المؤيدون لقهر النساء واستعبادهن هي المقياس الأساسي لهم، تعتمد على الفرق في التركيب الجسدي الذي جعل المرأة قادرة على الحمل والإنجاب - بخلاف الرجل الذي ينتظر مولوده من جسدها - وربما أوجد هذا العجز الذكوري عن الإنجاب شعوراً في داخل الذكر بعجزه عن تصدير الحياة. فأصبح كمن تأخذه العزة بالإثم. لذا استعلى بسبب شعوره هذا. محاولاً سد العجز بالتعالي والسيطرة.

إن الاختلاف التشريحي لجهاز التناسل في جسد المرأة وجسد الرجل لا يعني أن لأي منهما الحق في السيطرة على الآخر أو استعباده أو قمعه. خلقهما الله لكي يتشاركا في الحياة وكان الأولى بدلاً من تحقير المرأة وهي التي ستهب الرجل طفلاً حوته في داخلها فتغذى على غذائها ونما بين أحشائها كان الأولى أن يشعر بالامتنان والشكر تجاهها. وأن يذكر أيضاً أنه كان في رحم المرأة قبل أن يكون في هذه الدنيا. ألم يردد رسول الله صلى الله عليه وسلم - أمك ثم أمك ثم أمك ثلاث مرات قبل أن يذكر الأب. هل أخذت الرجل العزة، فبدلاً من الشكر بالغ في الإذلال؟

لو أنني قلت فلان أسد. فإن السامع سيفهم أنني أقصد أنه شجاع جداً. وسيعرف أنني عنيت بهذا التشبيه المديح لا الذم. أما إذا

قلت أن فلاناً أسد ثم وضعت فلاناً هذا في قفص خاص كأفصاص الأسود التي في السيرك، فإن هذا يعني أن كلامي لم يكن للمديح بل للذم والإهانة. لأني حينها صرت أعني أنه حيوان شرس فعلاً ويجب أن أخاف منه على نفسي وعلى الآخرين. وأخاف عليه من أن يقتله أحدهم بيندقيته حرصاً على سلامة الجميع.

وإذا قال الناس أن فلان "ذئب". وهذا منتشر في عاميتنا كثيراً. فنقول فلان "ذئب أو ذيبان" فأول ما يتبادر إلى الذهن إذا سمعنا هذا هو أنه شاب قوي وذكي وشجاع وجريء.. إلخ من الصفات الحميدة. لكن لا يعني هذا أن نمسك بهذا الرجل الذي نعتناه بـ "ذئب" ونضعه ضمن قفص مخصص للذئب. ولا أن ننبذه في العراء وحده أو في الغابة. إننا متى ما فعلنا هذا فقد تغير معنى الكلمة تماماً. وأخرجنا الرجل من آدميته واهمناه بالحيوانية.

كان رسول الله مسافراً في قافلة وفيها نساء. وهذا طبيعي ويتكرر دوماً للرسول صلى الله عليه وسلم ولغيره من الناس. وأن تسافر القوافل بالرجال والنساء معاً فتلك هي الحياة. أما حادي العيس فاسمه أبجشة. ومن عادة الحادي أن يغني ليقطع الطريق على نفسه ومن معه. ولأن الإبل تجدد في السير إذا سمعت الغناء (هل تتذوق الإبل الفن كالإنسان؟ ربما الإبل رقيقة كبعض البشر).

كذلك يغني المزارعون أثناء الحصاد الذي يستمر لساعات طويلة. ويساعدهم غناؤهم الجماعي على الإحساس ببعضهم وبمشاركتهم الجماعية في العمل. وكان البناؤون يغنون أيضاً عند بناء السدود والبيوت ونقل الأحجار والطين والأحشاب.

السفر هو فراق للأحبة والأهل وبعد عن الوطن وشعور بالاغتراب والوحشة. والناس إذا سافروا بكوا خصوصاً في الماضي عندما يسافر الإنسان فلا يكون هناك وسائل للاتصال بمن ابتعد

عنهم ويبقى سنوات وسنوات لا يعلم عنهم شيئاً وهم أيضاً لا يعلمون أخباره.

وذاث سفرة.. والقافلة تسير وأنجشة يغني كعادته بصوته العذب وكلماته التي تثير الشجن لاحظ رسول الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم تأثر النساء بالغناء بسبب بعدهن عن ذويهن والحداء نوع من الغناء يثير الشجن. وربما لاحظ صلى الله عليه وسلم تأثر الرجال أيضاً. فالرجل إنسان كالمرأة تماماً، ويمكن أن يشعر بالحزن والفرح وغيرها من المشاعر. وما أكثر القصائد الحزينة التي يبكي بها الرجال فراق محبوباتهم. وما أكثر وقوفهم على الأطلال وذكرهم لما يعانونه بسبب البعد حتى وإن كانوا أبطالاً وأقوياء، يبقى الحزن من الفراق وإظهار هذا الحزن شعراً شاهداً على ما تحتويه قلوب الرجال. لكن النساء تعودن على الاعتراف بعواطفهن ودموعهن وظل الرجال منكبين لها ظناً منهم أن في الاعتراف بسقوط دمعة استنقاص من الرجولة. لذا فلن يُشار إلى دموع الرجال لكي لا يظن الرجل أن المشير يقصد الاستنقاص من رجولته. ويمكن الإشارة إلى دموع النساء فهذا لا يؤذيهن. ورسول الله صلى الله عليه وسلم حريص على أن لا يؤذي أحداً. لهذا لم يتحدث عن دموع الرجال ولكن قال: يا أنجشة رفقاً بالقوارير. ويعني أهن مرهفات الحس متذوقات للشعر الجميل واللحن العذب وهنّ على سفر وسوف تجعلهن أغنياتك العذبة يبكين.

طارت الكلمة.. أو طار الناس بالكلمة، وصارت تعني أن المرأة قارورة "قارورة من زجاج" ستنكسر. مع أن هذه الرهافة في الإحساس والعلو في المشاعر وتذوق الجمال صفات يمتدح بها الإنسان وتدل على سمو نفسه وجمالها. فكيف انقلب المعنى وصار ضد المرأة بحيث أصبح يعني أنها هشّة وضعيفة ستنكسر عند أي

موقف وعلى الرجل أن يمارس الحياة بدلاً عنها؟ إن الإحساس بالجمال وتذوق الشعر وكتابته والتغني به. والإحساس بجمال اللوحة المرسومة والشكل المنحوت هو ما أتمنى أن نربي عليه بناتنا وأبنائنا لما للجمال من أهمية في إثراء النفس وتربيتها تربية سوية. تماماً كالجسد الذي يحتاج الغذاء المفيد ليكون صحيحاً معافى.

إدراك الجمال وتذوقه من ضرورات سمو النفس وتهذيبها عند الإنسان. ويبدأ إدراك الجمال بتأمل الطبيعة الإحساس بها والاهتمام بنقائنها وصلاحتها. ثم الوصول إلى الفنون الراقية ودخولها في تفاصيل حياة الإنسان. ومن يتأمل حياتنا - كمجتمع - يدرك مدى الفقر الذي نعانيه في هذا الجانب تحديداً. ثم يدرك الأثر المترتب على هذا الفقر الجمالي عندنا.

ولنبدأ بالمدن وشكل شوارعها. إنها تفتقر كثيراً إلى الحدائق المنسقة الواسعة. ناهيك عن وجود المنحوتات الجميلة المعبرة. وربما لا تكون المشكلة في التخطيط. بل في قدرة المواطن ذاته على إدراك الجمال والإحساس به. وأجزم أن الإنسان الذي تربى على الإحساس بالجمال في كل شيء وتذوقه باستمرار يصبح محباً له وباحثاً عنه لأنه أصبح من أساس حياته. فلا يستغني يوماً عن الجمال، ويسعى لأن تمتلئ حياته من كل جوانبها بالأشياء الجميلة. لهذا أدرك أن مجتمعنا الذي لا يأبه للجمال - هذا إذا لم يعمل على محاربتة، بدعوى تحريم الرسم والنحت والموسيقى - لم يصل بعد إلى المستويات التي يشعر فيها بحاجة إلى تحويل الأماكن كلها إلى أماكن جميلة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبس أحسن ما لديه للخروج إلى العيدين ولاستقبال الوفود، ويتطيب بأحسن الطيب الموجود في زمانه، ويتبسم ويحث الناس على التبسم ويقول إن

تبسم المرء في وجه أخيه صدقة. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يوقف زحف الجيش من أجل عصفورة خافت على صغارها. ثم يقول للأمة كلها: «لو قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلة فليزرعها»⁽¹⁾.

ولي - شخصياً - تجارب محزنة محبطة في مجال تشجير المدرسة القاحلة - قاحلة ككل المدارس تقريباً - وكنت على أمل حينها بأن وجود الأشجار التي تنمو أمام منسوبات المدرسة سيعطي منسوباتها معاني غير التي يعرفنها عن الحياة بشكل عام. لكني بعد محاولات تلك ومحاولات أخرى كثيرة في جوانب مختلفة. أدركت تمام الإدراك أن العمل في التربية والتعليم لن يؤتي ثماره ما لم يكن عملاً مؤسساتياً وليس فردياً. لا أنكر دور بعض المناهج التعليمية في حجب هذا الجانب المهم من حياة المتعلمة الذي يسمو بنفسها وبهذهما. وصار الجمال في كثير من مجالاته - في فهم مجتمعنا - دليلاً على البعد عن التدين. وهي هممة ولا شك يهرب منها الناس.

إن البعد عن تعلم الجمال والإحساس به يعني أن تبقى نفوس الطالبات قاسية متطرفة لا تهتم بجمال البيئة ولا بجمال الوطن وحضارته ورقيه بل قد تحارب الجمال ظناً منها أنه يؤدي إلى الفساد الخلقي.

وأعود إلى القوة والضعف وكيف تمّ حصرها في بروز العضلات وعلو الصوت. وأتذكر هنا قول الرسول الكريم: «ليس القوي بالصرعة إنما القوي من يمسك نفسه عند الغضب»⁽²⁾.

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري ومسلم.

فهل الرجال وفق هذا النص أقوياء أم أن النساء هنّ القويات؟
الرجل يزجر داخل بيته وييدي كل انفعالاته وعصيته. وفي ظهور
الانفعال دليل على سيطرة العاطفة وانحسار سيطرة العقل. أي أن
الرجل لا يسيطر عقله على انفعالاته بعكس المرأة التي يقال أن
عواطفها تغلبها. إنها مضطرة إلى ضبط انفعالاتها أمام زوجها أو
والدها متى ما ثار أحدهما، والرجل الذي يفسح المجال لانفعالاته
بالظهور وثار ثورته وعلا صوته وهدد وتوعد بعيداً عما يفترض
بالعقل أن يفعله. فأيهما تغلبه عواطفه في هذه الحالة؟

(باب ما جاء في "اجتزاء النص

ليتوافق مع هوى النفس)

تستطيع المرأة أن تستل السر من صدر الرجل، ولكن هيهات أن يتمكن الرجل من الوقوف على سر تخفيه المرأة.

إذا لم يهذب الإنسان طبعه ويتربى على الفضيلة والخير والحق والعدل. فسيظل قاسياً على أحسن الأحوال هذا إذا لم تصل به الأمور إلى الافتراء والتحايل والاستغلال والكذب حتى على الله تعالى. ولا أعني بهذا الرجل. بل المرأة والرجل في هذا سواء. إذ إن الظروف التي يعيش فيها الإنسان هي التي تصنعه بصفات معينة. فتجعله أنانياً أو قاسياً أو متسلطاً أو متساحماً وعطوفاً وكرماً. وقد تجتمع فيه كثير من الصفات السلبية أو الإيجابية أو خليطاً من هذا وذاك. لهذا كان التدخل منذ صغره من أجل التربية بالأسلوب التربوي وليس بالأساليب التي تتمثل في العبارة الشهيرة (لك اللحم ولنا العظام) هو ما سيجعل الإنسان متوازناً وصادقاً مع نفسه ومع الآخرين. قادراً على رؤية الأشياء بوضوح أكثر من غيره.

إن السيادة التي للرجال في مجتمعنا على النساء جعلت قدراتهم على كثير من التصرفات الخاطئة تنتشر أكثر وتسيء إلى المجتمع كله. وبعد التصرفات الخاطئة يستدلون بكتاب الله تعالى لإثبات صحتها مهما كان ما ذهبوا إليه. ولا يكون لهم هذا إلا بتحريف المعنى وإعطائه التفسير الذي يرونه مناسباً لما يسعون لإثباته. وليس هناك

أدل على قولي هذا من ترديد بعض آيات كتاب الله بشكل مجتزأ لتوافق ما في نفوس كثير من الرجال في نظرهم للمرأة. وذلك مثل ترديد الآية: «إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ».

في داخل الثقافة الشفوية في المجتمع، ثبتت في أذهان الناس صورة المرأة الخائنة التي تخدع وتتآمر. وأحد أسباب تراكم هذه الصفات في العقلية الذكورية وبالتالي في المجتمع كله عن المرأة يرجع إلى امتلاء القصور بالإماء منذ بدء العصر الأموي وعلى امتداد الدول المتعاقبة بعد ذلك وكنّ من عناصر غير عربية عديدة. ومع بداية العصر العباسي استمرت هذه الصفات السيئة عن المرأة تتنامى بتزايد عدد الجوارح المتفرغات تماماً من أجل السيد الذكر في القصور. فالجارية تتربى على أن دورها في الحياة كلها يقتصر على إرضاء شهوات سيدها فقط. ومع مرور الوقت وتزايد أعدادهن أصبحت بعضهن أمهات للخلفاء والأمراء. ولأنهن مجرد "حريم" تراجعت مكانة المرأة وتراجعت معها النظرة المنصفة لها. وارتبطت تصرفات النساء في وعي المجتمع بالاحتيايل والكيد والتآمر. ولدعم هذه النظرة تم اجتزاء النص ليتوافق مع ما في النفس. فصارت "إن كيدكن عظيم تتردد" كشاهد على سوء خلق النساء.

في المجتمعات العربية يتعاملون مع الآية السابقة وكأن القرآن الكريم أوردها ليقر حقيقة ثابتة خاصة بكل امرأة بدءاً بجواء وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو أن كيدها عظيم. والواقع أن القرآن الكريم يحكي ما قاله عزيز مصر عندما راودت زوجته يوسف عليه السلام عن نفسها. قال تعالى: «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِ كُنَّ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ» (سورة يوسف، 28). نلاحظ أن القرآن أورد كلمة "قال" ليروي لنا عن عزيز مصر. لكن الرجال

أسقطوها وصاروا يرددون الآية دون أن يلتفتوا إلى قائلها الأصلي الذي حكى عنه القرآن الكريم. إذاً هذا هو رأي رجل معين في زمن معين في زوجته التي كانت معه في زمنه ذلك. ويورد القرآن ما قاله الرجل ضمن سياق القصة التي عن يوسف عليه السلام. وعزيز مصر رجل تحدث عن زوجته وقال لها - كيدكن عظيم. وروى لنا القرآن الكريم رأي العزيز في زوجته ضمن سياق قصة يوسف عليه السلام. وربما يكون هذا رأيه في النساء جميعاً بناء على تصرفات زوجته التي ولا شك استاء منها جداً. فهل يعني هذا الرأي الخاص بعزيز مصر أن يكون الكيد صفة عامة لكل النساء؟

إذا كان هذا الأسلوب ممكناً في تفسير الآيات فلماذا لم يورد المفسرون الآيات التي تحكي عن مواقف تخص الرجال ويجعلونها عامة أيضاً كما عمموا - كيدكن عظيم - على جميع النساء؟ السبب بسيط وواضح في ظني. وهو أن من فسّر وأوّل واستغل النص ليتوافق مع هوى النفس هو رجل في المراحل التي كانت النساء ممنوعات من الكتابة ومن القراءة ومن التعليم. ولا زال الرجال يحتكرون الفقه والفتوى ومجالات عديدة لا تحصى.

نقرأ في ذات السورة يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينًا مِنَّا وَغَضِبْنَا غَضَبًا وَكَانَ أَهْلًا لَظَنَّا لَنَسْفُكَ يَأْكُلُهُ آلَ الْيَتَامَىٰ وَالضَّالِّينَ﴾ (سورة يوسف، 8 - 14).

القرآن الكريم يصور لنا التآمر الذي أجمع عليه أخوة يوسف ضده. يتآمرون وهم عصبة على طفل لا يدري عن خططهم. وتآمرهم أوصلهم إلى الاتفاق على قتل أخيهم الصغير يوسف. ويصور لنا كيف يستمعون إلى أبيهم القلق بشأن يوسف فلا ينجحون على أنفسهم ولا تؤنبهم ضمائرهم. بل يؤكدون له أنهم سيحافظون عليه. خداع وتآمر وكيد عظيم يقومون به. وإذا كان كيد امرأة العزيز حدث بسبب رغبتها في الدفاع عن نفسها في موقف صعب تمر به فإن تصرفها لدفع التهمة عنها قد يكون مبرراً. أما هؤلاء الإخوة فإن أول ما هم عليه هو أنهم يخططون للقتل، وهذه جريمة عظمى. قتل من؟ طفل. وهذا يجعل الجريمة أكثر بشاعة.. والطفل من هو؟ أخوهم.. وهذا يجعل الجريمة البشعة الرهيبة لا توصف. ثم إن من يريد القتل ليس شخصاً أو اثنين أو ثلاثة.. بل الجميع.. والتخطيط والتآمر صدر من ضد من؟ من الأبناء ضد أبيهم!! وكلما نظرت إلى القصة من زاوية وجدتها رهيبة. فهل بهذه القصة التي تحكي عن إخوة يوسف نقول بأن الرجال كلهم يخدعون ويتآمرون على أقرب الأقرباء لأنهم كانوا يخدعون والدهم ويريدون قتل أخيهم الصغير؟ هل نلصق تهمة الكذب والتآمر حتى على الأب وقتل حتى الأقرباء والأشقاء بكل رجل لأن القرآن الكريم أورد قصتهم مع أخيهم يوسف؟ هذا لم يحدث لأن المجتمع لا يحاسب الرجل على كل شيء ولا يبحث عن أي دليل ليؤكد به التهم التي يود إصاقتها بالرجال بشكل عام. لكن هذا يحدث مع المرأة بسبب النظرة الدونية لها من الأساس والتي تجعل الرجل يندفع اندفاعاً للبحث عن ما يؤيد رأيه ويؤكد نظرتة حتى وإن اضطر للتلفيق. والتلفيق الذي يتعد عن كتاب الله يعد منافياً للأخلاق. لكن الكارثة أن "كيدكن عظيم" هذه ظلت عبر قرون تتردد على أنها صفة إلهية لكل امرأة مهما كانت كانت تلك المرأة.

ونقرأ آية أخرى في كتاب الله العزيز تستغل من قبل بعض الكتاب وأدعياء حراسة عادات المجتمع على اعتبار أن عاداته تلك فضائل. والفضيلة في مؤلفاتهم قد أعفي منها الرجل. وظلت حكراً على المرأة. يقول الله تعالى على لسان امرأة عمران والدة مريم العذراء: «... وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» (سورة آل عمران، 36). يُقْرَأُ نَصَ الْآيَةِ مَجْتَرَأً كَمَا أَسْلَفَتْ. وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ إِلَّا «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ».

ولكني أريد أن نتأمل الآية كاملة وما يليها. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: «إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ عَمْرَأَنَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (سورة آل عمران، 35 - 37).

نلاحظ أيضاً أن نص القرآن يروي لنا ما قالته امرأة عمران. ثم إن مريم الصغيرة التي نذرهما أمها لله، تقبلها الله قبولاً حسناً. ليس هذا وحسب بل كان زكريا كلما دخل عليها وجد عندها رزق. وكلمما سأل الطفلة: من أين لك هذا؟ كان جوابها - «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». جواب بليغ ومتعقل وصادق. ولكنه لن يحسب للنساء. أو لواحدةٍ منهن على الأقل. كما أن القبول الحسن الذي من الله به على مريم والرزق الذي من عند الله لم يحسب للنساء أيضاً.

كان من المهم ومن الضروري أن لا يتفنن الناس في الاجتزاء فيذكروا آيات الله التي تحكي موقفاً ضمن سياق معين وكأنها جاءت لتقرر حقائق مطلقة وأبدية.

وإذا استخدمنا ذات الأسلوب في التخاطب فإننا نستطيع أن نقرأ من كتاب الله تعالى قوله: «أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ». نقرأ الآية مجتزأة وليس ضمن سياقها لنؤكد على أن الرجال ليس فيهم رجل رشيد. ونستشهد بأن القرآن ذاته تساءل عن وجود راشد واحد بين كل الرجال كلهم. لكن هذا لم يحدث. لأن المفسرين والشرح بشكل خاص والمجتمع بشكل عام عرفوا جميعاً هنا أن الآية يجب أن تكون ضمن سياقها الذي وردت فيه. قال تعالى: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي صَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» (سورة هود، 77 - 78). إذا الجملة وردت على لسان لوط عليه السلام وليست تقريراً إلهياً يؤكد بقطعية عدم وجود رشيد واحد في الرجال كلهم حول العالم.

ومن هنا نلاحظ أن المجتمع لا يتعامل مع آيات الله بذات الكيفية في كل الحالات. بل يجتزئ ما يناسب موقفه المتسم بالتمييز العنصري ضد المرأة ليستشهد بالقرآن الكريم بأن هذا الوضع الذي هي عليه حدث بإرادة إلهية وليس للمجتمع دور فيها. ويتجاهل كل آية يمكن أن تُعامل بذات الطريقة إذا كانت عن الرجل. أي أنه افتراء على الله تعالى بأن يجروا الناس باقمامه - دون وعي منهم ربما - بأنه سبحانه هو من جعل المرأة بهذا الوضع المتدني وليس المجتمع.

نساء الجنوب

والهرولة إلى الخلف

ليس مهماً أن تهروول إلى الأمام أو إلى الخلف ما دمت لا تعلم أين أنت.

إذا كانت المرأة قد شاركت حتى في الحياة العسكرية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فما بالننا بالحياة الاجتماعية، فلماذا ترى بعض التيارات الدينية الحالية أن نساء الجنوب في الماضي كنّ بخروجهن إلى الحقل سافرات قد خالفن الدين مخالفة صريحة؟ في جنوب بلادنا الغالية كان الأمر مختلفاً تماماً عن ما هو عليه الآن. فقد كانت النساء نساء ولسن مجرد "حريم". كنّ نساء معروفات بالوجه والاسم. وكلمة "حريم وحرمة" غير متداولة بل غير معروفة على الإطلاق قبل تغلغل الأيديولوجيا المتأسلمة في كل تلافيف العقول هنا. وقبل وصول ثقافة الصحراء⁽¹⁾ إلى الجبل. وقبل إلباس ثقافة الصحراء تلك لباس الدين لتتسرب إلى الناس دون أدنى تساؤل عن مدى مناسبة ما فيها لكل البشر. ومعلوم أن ثقافة الوادي تختلف عن ثقافة النهر. وتختلف الاثنان عن ثقافة الصحراء.

لم تكن هناك بوادر رفض أو حتى توجس من كمّ التعليمات التي قلبت كل المفاهيم في الجنوب مهما كانت مختلفة وغريبة عن

(1) معنى الثقافة هنا أفكار وأسلوب الحياة في مجتمع معين.

المنطقة لأنها قادمة باسم الدين. وما يأتي بلباس الدين وباسم الدين لا يرفض ولا يقاوم فهو الدين ذاته في تصورهم.

كان شكل الحياة مختلفاً تماماً في الجنوب والسبب يعود إلى أن للفلاح عادات وتقاليد تختلف في مجملها عن عادات وتقاليد سكان المناطق غير الزراعية. فالفلاح لا يرى بأساً في خروج النساء سافرات الوجه. ليس هذا وحسب بل كان يراه ضرورة تحتمها طبيعة الحياة الإنسانية بشكل عام والزراعية بشكل خاص. وكان الفقه فقهاً، غير خاضع لأي تيار إسلاموي. ولذا كان الاختلاف مقبولاً. ولم يكن الفقه يجرّم ويحرم كشف الوجه وخروج النساء إلى أعمالهن التي لا تنتهي منذ الفجر وإلى مغيب الشمس.

ويدعم المرأة في ما هي عليه من استقلال وثقة بالنفس وحرية في الحركة والتنقل ما كان يُتَظَر منها كمسؤولة عن المنزل والأرض والمواشي تماماً كالرجل. بل قد تكون قدرتها الإنتاجية أعلى من قدرة الرجل. فهي إلى جانب العناية بالمنزل والأطفال وما يتطلبه إعداد الطعام وجلب الماء والحطب من وقت وجهد فإنها تعمل بكفاءة عالية في المزارع والحقول جنباً إلى جنب مع الرجل.

لم يكن وجود الرجال أو استقبال الضيوف يربكها أو يخيفها. فهي نداء للرجل وقادرة على اتخاذ القرار المناسب في كل وقت. ولم يكن الرجل مؤدجاً بحيث لا يراها إلا جسداً يثير شهواته. أنه يتعامل معها من حيث هي إنسان مثله. لذا فقد كانت المرأة تستقبل الضيف وتذبح من المواشي ما أرادت وتطبخ ما ذبحت وتقدمه لمن دخل البيت من الغرباء قبل أن تسأله عن اسمه. ولا فرق إن كان زوجها قد عاد من الحقل أم لم يعد بعد. فهي مكانه وتقوم بما كان سيقوم به لو أنه هو الموجود وهي التي في الخارج. وهذا هو الطبيعي.

أن يأتي الغرباء إلى البيوت في الماضي فسيبه عدم وجود فنادق ولا مطاعم ولا شيء في تلك الأيام⁽¹⁾ سوى بيوت الكرماء. أولم يؤكد القرآن الكريم على الكرم وبذل المال وخص ابن السبيل بالذكر: «وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...» (سورة البقرة، 177). «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَأَتَى الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا» (سورة الإسراء، 25 - 26).

الله أعلم بما في نفوسكم جميعاً وليس أعلم فقط بما في نفوس الرجال. وبالتالي فالخطاب يشمل النساء والرجال وهذا ما كانت تفهمه جداتنا فلا يترددن في إكرام الغريب الذي مرّ على الديار. وكانت المرأة من القوة والجرأة والشجاعة وقوة الشخصية والثقة بالنفس بحيث تستطيع التصرف بحرية كاملة في المال والبيت والأرض المزروعة وأعلى الجبال حيث تجمع الحطب وفي سفوحها حيث الآبار والأودية التي تجلب منها الماء. لم تكن سحينة ولا ضعيفة ولا خائفة ولا مترددة. كانت إنسانة مثلها مثل الرجل. والرجل يحترمها ويقدر ما تقوم به كثيراً حين كان للاحترام والتقدير مفهوم يختلف عن ما هو عليه الآن. اليوم صار سجنها ومنعها من حقوقها الحياتية وتحديد إرادتها هو معنى الاحترام والتقدير. فأسمعُ وأقرأ لمن يردد أن بقاء المرأة في بيتها هو صون لعفتها واحترام لها وتقدير لإنسانيتها. هذا معنى تحويل المنزل إلى سجن الآن. ثم امتداح السجن بعد ذلك وإقناع النساء بأن لا كرامة لهن إلا فيه.

(1) ليس الأمر بالقدم جداً فالجنوب لم يتغير إلى هذا الحدّ الحزن إلا قبل ثلاثين عاماً من الآن. أي أن البدايات كانت قبل ثلاثين عاماً. ثم وصل الأمر إلى ما نحن عليه الآن من تزمّت وتطرف فكري رهيب.

كان وجود الحطب بكميات كبيرة أمر أساسي في حياة الناس في الجنوب. فالبلاد باردة في ثلاثة فصول من السنة هي الشتاء والربيع والخريف. أما الصيف فكان معتدلاً أقرب إلى البرودة. وفي كل بيت مطبخ يسمى حينها (ملهب⁽¹⁾) وفي الملهب تنور أو أكثر. يتم إشعال كمية من الحطب فيه عند الفجر فإذا صار الحطب جمرًا أخذته المرأة في صاج كبير ونقلته إلى ما كان يسمى (الصلل) داخل حجرة الجلوس ويكون للتدفئة. ثم تشعل في التنور ناراً أخرى لإعداد الطعام والقهوة والشاي. وفي تنور آخر تشعل النار لتصنع الخبز. وهكذا تظل النار مشتعلة دائماً. ويبقى الجمر في الصلل باستمرار، وكلما تحول إلى رماد جلبوا جمرًا مشتعلاً من الملهب، منذ الفجر وإلى ما بعد صلاة العشاء.

وهذا يتطلب جلب الحطب بكميات كبيرة من مناطق بعيدة عن القرى، حيث إن القرية منطقة مأهولة أما منطقة الاحتطاب فهي منطقة الغابات التي لا يسكنها الناس. وهذا يعني أن تصعد المرأة على قدميها أو على دابة جبلاً شاهقة وأن تسلك طرقاً وعرة. وتعود ومعها حزمة كبيرة يعجز عن حملها اليوم شاب معافى. وبعضهن أثناء الاحتطاب تفاجأ بالأم المخاض فتسند ظهرها إلى جذع شجرة وتتمتم بما تحفظه من الدعاء ثم تلد طفلها، وتحمل نطاقها لتربط به الحبل السري للطفل وتنتقي من الأحجار التي حولها ما يمكنها أن تستخدمه لقطعه، وبعد ذلك تدفن المشيمة ثم تلف طفلها في بعض ثيابها وتحمله وتعود إلى منزلها. وبعضهن

(1) الملهب يقابل المطبخ اليوم. فيه تشعل النار ويعد الطعام. أما الصلل فيكون في إحدى زوايا حجرة الجلوس على الأرض حيث يتم بناء مربع صغير طول ضلعه أقل من المتر. وارتفاعه عشرين سنتيمتر تقريباً. ويكون هذا الركن هو الأكثر دفئاً في المنزل. يجتمع حوله أفراد الأسرة وتوضع حول النار دلال القهوة والشاي.

تحمل الطفل بيديها وتحمل الفأس وحزمة الحطب على ظهرها وتعود إلى منزلها. إلى هذا الحدّ من القوة وصلت النساء في الجنوب. والكبار في السن من أهل المنطقة يدركون حقيقة ما كان يحدث بتلقائية كاملة. وكثير من أمهاتنا وجداتنا تغلق باب حجرتها عليها وحدها عندما تشعر باقتراب ولادتها إذا كانت في البيت. وتخرج من الحجرة والطفل بين يديها. كل هذا يحدث لأن أجسادهن كانت طبيعية. يتحركن ويتعرضن للشمس والهواء ويأكلن الطعام الذي تنتجه الأرض النقية.

كذلك لم يكن تعدد الزوجات ضمن تقاليد المنطقة. فإن حدث وتزوج رجلٌ بأخرى فلا بد أن يكون هناك سبب اجتماعي دفعه إلى هذا كأن يموت أحد إخوته مثلاً، وهو مضطر لضم أولاد أخيه إلى عائلته لأنه المسؤول الأول عن تربيتهم بعد والدهم المتوفي حسب التقاليد ولا يريد أن يجرم أمهم منهم لهذا فإنه سيتزوج أم الأيتام لتبقى معهم في ذات البيت إن قبلت به. وهذا ليس دائماً، ولا ضرورياً. ولكن حسب الحالة وحسب رغبة أم الأيتام وحسب بُعد قرية أهلها عن قرية أهل زوجها المتوفي. أما الزواج بأخرى لمجرد الزواج فهو تقليد دخيل وحديث. بدأ وانتشر ثم ارتفعت مكانته بين الرجال فأصبح من السنن التي يحرص المتمسك بدينه على تطبيقها بعد أن ظنّ أنه اتبع كل أوامر الدين واجتنب كل نواهيهِ ولم يبق إلا سنة التعداد. فيقبل على العذارى واحدة تلو الأخرى وينصرف عن أم الأيتام الفقراء.

إن النظرة المستحدثة للزواج بالبر بعد البر بعد البر على أنه سنة ينبغي فعلها ويتهم كل من اعترض عليها بالخروج عن الإسلام، هذه النظرة جعلت الذين يكيّدون للإسلام ويبحثون عن مجالات للانتقاص منه يجدون الفرصة مواتية في تصرفات بعض

المسلمين. وها هم يرددون "إن الإسلام يرتكز في تعاليمه على إشباع غرائز الرجل وإرواء شبقه"⁽¹⁾.

والمرأة المسلمة تستسلم لهذا الأمر اعتقاداً منها أن عدم رضاها عن زواج زوجها المعدد سيجعلها تقع في الإثم وتغضب الله عزّ وجل وكأنها بهذا تؤيد الرأي القائل افتراء على الله بأن التعدد جاء من الله لهدف واحد وهو إرضاء نـزوات الرجل وإشباع غرائزه الشهريارية، وحاشا هذا الدين أن يكون دين شهوات وغرائز، لهذا فإن إعلانهم موقفهن ضد التعدد صار نادراً بل يكاد يكون غير موجود أصلاً، خوفاً من الاتهام بالمعصية.

لقد تغير المجتمع الجنوبي في نظرتة للنساء تمام التغير وذلك بعد أن صار كل شيء، كل شيء يخضع لفكر أيديولوجي دخيل يهيمن بطريقة أخطبوطية على جوانب الحياة المختلفة. فتنقلب المعاني، ويتغير وجه الصواب والخطأ، والفضيلة والرذيلة، والكرامة والذل، والحقوق والواجبات، وكل شيء يصبح ذا معنى مختلف عما كان عليه. وبهذا الانقلاب في المفاهيم عاشت المرأة الجنوبية عهداً جديداً لم تألفه على مرّ العصور التاريخية. فحقت الماضي البعيد عندما كانت النخاسة معلنة ولها سوقها وتجارها. وكانت القصور تمتلئ بالجواري. وكان قسم الحريم سجنًا تزين فيه النساء من أجل متعة رجل. كانت المرأة الجنوبية تمارس حياتها اليومية في المزارع والجبال والأودية بتلقائية وثقة وبساطة. وكان البيت يجمعها بزوجها وأولادها ولا يسجنها في انتظارهم.

(1) أصبحت بعض النساء تدافع عن التعدد باستماتة عجيبة. وفي محاضرة تلو أخرى تدافع المحاضرات عن التعدد أكثر مما يفعله الرجال أنفسهم. فقد استمعت إلى إحدهن وهي تؤكد ضمن محاضرتها التي تلقاها داخل المدارس باستمرار على أن من تعترض على التعدد تعترض على أوامر الله لأن الله هو الذي أمر الرجال بالتعدد وما علينا كنساء إلا الاستسلام لأمر الله.

إن هذا الانحطاط في مكانة المرأة وفي النظر إليها كإنسانة لم يكن معروفاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ولكنه حدث بعد ذلك حيث حصل تراجع كبير في نظرة الإسلام الراقية إلى المرأة مع تقادم الأيام، بل إن خط الانحراف في موضوع المرأة بالذات بدأ مبكراً وقبل غيره من الأمور، فالعقلية الجاهلية المتحجرة التي تجعل الرجل في موضع التقديس وتقلل من شأن المرأة. لم تستطع تحمل نظرة الإسلام للمرأة فظهرت الجاهلية على السطح من جيد واستمرت حتى الآن في كثير من أجزاء عالمنا العربي.

إن الانحطاط في مكانة المرأة الذي تمر به النساء الآن - في رأيي - هو أسوأ ما تمر به المرأة في التاريخ الإنساني. إذ كانت بعض.. بعض النساء تباع وتشترى في سوق النخاسة ولكن بعض الرجال يباع ويشترى أيضاً في ذات السوق. أي أن النساء والرجال في سوق النخاسة سواء. وفي المقابل بعض النساء حرائر ولهن مكانتهن واستقلالتهن. أما اليوم فلا مكانة ولا استقلال. الكل توابع. الكل بأمر الأنظمة والأعراف والعادات في موقع أدنى من الرجل. وأي امرأة تحتاج هنا إلى معرف. وهناك إلى وكيل. وهنا إلى ولي أمرٍ يوافق. وهناك إلى محرم يرضى.. وهكذا.

في الجنوب كانت النساء كما أسلفت - شقائق للرجال - لكن حدث هذا التغيير الذي قلب المجتمع رأساً على عقب فأحدث عادات جديدة وألغى قديمة وأرسى مفاهيم خاطئة. وتحقق التحول خلال ما لا يتجاوز الثلاثين عاماً فقط. لم يحدث هذا الانقلاب الغريب في غرب السعودية. أعني بلاد الحجاز بنفس القوة التي حدث بها في الجنوب. إذ صارت الحجازيات الآن أكثر استقلالية من المرأة الجنوبية. وظل كثير من رجال الحجاز أكثر تمدناً في

تعاملهم مع المرأة من الرجل الجنوبي. مع أن الأمور كانت معكوسة قبل ذلك. فقد كانت الحجازيات تحت تأثير القوانين والأعراف العثمانية التي حكمت الحجاز لا يتمتعن بحرية النساء الجنوبيات. كن قابعات في البيوت ولا حق لهن في الخروج كالجنوبيات الفلاحات.

إن التحول الذي حدث خلال الثلاثين عاماً له أسباب في نظري ليست بخافية على كثيرين. وأستطيع إجمالها في القول بأن أهل الحجاز أولاً سبقوا جميع مناطق المملكة في التعليم ونشر الوعي. فالمجتمع الحجازي ليس ببساطة المجتمع الجنوبي، وبالتالي وجد فيه من يقاوم المدّ الفكري المغاير والقادم من بيئة ذات طبيعة جغرافية وسكانية مختلفة تماماً. أي أن الحجازيين كانوا يقفون على أرضية صلبة أشعرتهم بالندية الفكرية إن لم يكن شعوراً بالتفوق في كثير من الأحيان على جحافل المنادين بالانغلاق والمنددين بكل التقاليد ما عدا التقاليد القادمة من المنطقة الوسطى. يضاف إلى ذلك كون الحجاز مطلع على عادات كثير من شعوب الأرض ومنذ قرون طويلة وذلك من خلال وفود الحجيج في كل عام واختلاطهم السنوي بمؤلاء القادمين إلى بيت الله بسبب ما يقوم به أهل مكة من خدمات لهم فيها مصالحهم في هذا الموسم، فمكة المكرمة كانت تخلو تماماً تماماً من الرجال أثناء تواجد الناس بعرفة ومِنى ومزدلفة.. ولا يبقى فيها إلا النساء. وفي تلك الأيام القليلة من كل سنة هناك طقوس تخص نساء مكة المتفردات بالسلطة الكاملة على المدينة أثناء خلوها من الرجال فتخرج كل النساء في مهرجان سنوي يستمر ثلاث ليالٍ متتاليات. يخرجن منذ الصباح إلى الشوارع في مسيرات منظمة ولا يرجعن إلا قبل الفجر. ولا مجال لذكر كل تلك التفاصيل النسوية السنوية.

خلاصة القول إن الحجازيين يختلطون بالناس وهم الآن أصح من غيرهم كمجتمع يستطيع أن يفهم الاختلاف ويحترم المختلف ولا يفرض عليه قناعاته ولا يقبل بفرض قناعات غيره عليه. أما المجتمع المغلق فهو عكس ذلك تماماً لأن الانغلاق يؤدي إلى الجمود الفكري والسطحية وتوهم امتلاك الحقيقة.

الجنوب يعتمد على فلاحه الأرض والعيش من خيراتها. وكل ما يشغل بال الفلاح في ذلك الوقت هو المطر ودخول المواسم. فهو لا يبذر أرضه ثم لا يحصدها إلا في مواسم يعرفها بحسب حركة النجوم في السماء. وجدتي رحمها الله كانت تفتح نافذتها قبل الفجر لتتأمل السماء إذا كانت صافية حين كانت القرى تحلوا تماماً من الكهرباء، وتشير بإصبعها المرتجفة إلى نجمة بعيدة تخبرني باسمها ووقت ظهورها ودلالات ذلك الظهور. ثم تستمر في ذكر أسماء النجوم ومواقعها. وإن كنت آسفة على شيء فليس كمثلي أسفي على عدم تعليمي منها يرحمها الله كل تلك الأسماء والدلالات والتحركات للنجوم.

هؤلاء البسطاء.. فجأة هُوجم ما لديهم وتمّ إقناعهم بأن ما هم عليه فسق وزندقة⁽¹⁾ أو مخالفة شرعية على أقل تقدير. والمجتمع البسيط ليس كالمجتمع المثقف إذ إن الاختراق أسهل في مجتمع الناس فيه لا تقرأ سوى القرآن وبعض كتب الفقه الشافعي تحديداً. وتعيش حياتها بتلقائية وبساطة شديدة ولا يعرفون من الدنيا إلا مزارعهم وبيوتهم ومن الناس إلا جماعتهم وأقاربهم فلم يروا أحداً إلا عابر سبيل أكل وتزود بالطعام وغادرهم ولم يسمعوا عن شيء إلا ما

(1) تكفير الناس أو رميهم بالفجور والفسق كثير ومستمر فحتى قبل وقت قصير ومن فوق منابر المساجد تم رمي من لديه (دش) بأبشع الصفات. وبعدها صار في بيت الخطيب الذي رمى الناس بتلك التهم دش على سطح بيته وظهر الأئمة والدعاة والفقهاء على القنوات الفضائية الواحدة تلو الأخرى.

تذكره رواياتهم وحكاياتهم. وبالتالي فإن الإتيان بعادات مغيرة باسم الدين سوف يجعلهم ينساقون خلفها مصدقين بها مستغفرين لما اقترفوه من ذنوب حسب الرأي الجديد. ولا زالت بعض زميلاتي اليوم يؤكدن لي أن خروج المرأة فيما مضى كان بسبب جهلها للدين. هؤلاء الزميلات من حملة البكالوريوس. ويفترض بهن أن يعرفن شكل البيئة الزراعية وكيف تكون الحياة ضمنها ويفترض بهن أيضاً أن يعرفن أن هناك القطعي في الدين وهناك ما هو محل خلاف بين أئمة المذاهب الأربعة.

تمّ إبلاغ الجميع عبر المنابر والمدارس والكتيبات والمطويات والمنشورات والأشرطة بشكل مكثف جداً، أن خروج النساء إلى المزارع للفلاحة أو لإحضار الماء والحطب إثم لا يعادله إثم. إذ إن خديجة وعائشة وفاطمة وسائر الصحابيات رضوان الله عليهن لم يخرجن من بيوتهن إلا إلى القبر. هذا ما رده المنادون بسجن النساء من على المنابر وثبت في أذهان الناس. ويحق لي أن أسأل هنا: ما دام الوضوء يسبق كل صلاة وما دامت البيوت تخلو من دورات المياه فأين كنّ يتوضأن؟ لا شك أنهن كنّ يخرجن عدة مرات في اليوم لقضاء الحاجة وللوضوء. حتى أن كلمة (الخروج إلى الخلاء) يقصد بها الذهاب إلى مكان يخلو من الناس لقضاء الحاجة. ولا شك أن هذه الأمور تتطلب الابتعاد عن الحي من أجل الستر. إذا.. كنّ يعيشن في الطرقات والأزقة ويتجاوزن البيوت ليصلن إلى الخلاء. هذا هو حال الصحابيات وغيرهن. هل كانت المرأة فقط هي من تحتاج الخلاء؟ لا شك أن الرجل سيذهب أيضاً. إذاً كانت النساء والرجال الكبار والمراهقون والصغار كلهم خارج البيوت لأوقات عديدة في اليوم تمتلئ بهم الشوارع إلى أن يصلوا إلى خارج الأحياء فقط من أجل الوضوء وقضاء الحاجة. إلا أن كان أحد يتصورهم

مخلوقات نورانية وليست بشرية لا يأكلون ولا يشربون ولا يقضون حاجاتهم! هذا عدا الخروج لجلب الحطب للطهي والتدفئة و عدا جلب الماء و عدا العمل في الأمور المختلفة التي لم يمه الإسلام المرأة عن القيام بها. إذ إن الإسلام لم يمنع المرأة من المشاركة الفعالة في جميع أوجه الحياة. وحتى الحرب وهي حرب والمعركة وهي معركة لم تُمنع عنها النساء فما بالناس بما هو دون ذلك. ويكفي أن أذكر موقفين اثنين يشهدان للصحابيات بحضور المعارك كمقاتلات فيها وليس فقط ساقيات للجند مضمدمات للجراح. على أننا لو اكتفينا بتضميد الجراح وسقاية الجند لعرفنا أن فيه مخالطة وحوار بين النساء والرجال.

أما الشاهدة الأولى فهي أم عمارة نُسبية بنت كعب. التي شاركت في معركة أحد ووقفت أمام المشركين في أول الصف للمسلمين تحمل السيف والترس وتقاتل المشركين بضراوة. والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن كل من عرف قصتها هو - من درّب نسبية على القتال وأين درّبها؟ لا شك أن حمل السيف والضرب به يتطلب قوة عضلية ومهارة عالية. وما دامت نسبية قد حملت السيف عندما تقهقر الرجال من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم وتراجع صحابته في الموقف العصيب ومن تراجع أبطال لم يكن يُتوقع تراجعهم لولا صعوبة الموقف وقسوته. فكانت شجاعة نسبية تفوق شجاعتهم بل وشجاعة صناديد قريش الذين انتصروا في المعركة، إذ حملت السيف وقاتلت إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى أنه قال صلى الله عليه وسلم: «ما التفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني»⁽¹⁾.

(1) فتح الباري، ج6، ص 80.

لقد ثبتت أم عمارة حين فرّ الأبطال في المعركة. فهل كانت قدراهما القتالية تلك دون تدريب. هل ستحمل سيفاً لمواجهة صناديد قريش دون أن تكون قد تلقت التدريب الذي يؤهلها لمواجهة أولئك الأقوياء. لا شك أن لديها من التدريب ما جعلها تثق بنفسها وتحمل السلاح دون تردد أو خوف.

تلك هي أم عمارة التي حملت السيف دون رسول الله وتلقت الضربات عنه. وبعد ذلك. ورداً على من ظنّ أن هذا حدث قبل نزول آيات الحجاب. أم عمارة ذاتها شاركت في حروب الردة⁽²⁾ عندما شتها أبو بكر الصديق رضي الله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما باقي الصحابيات فكنّ يسارعن بالماء لكل من يطلب الماء من المسلمين ويهرولن لتضميد الجراح، فإن كان الجرح بسيطاً تمّ تضميده واستمر صاحبه يقاتل وإن كان غائراً ويسبب خطراً على حياته يداوينه بما لديهن من أعشاب إضافة إلى الضماد أو ينقلن الجرحى إلى مكان بعيد عن ميدان المعركة، ففي حديث: (عن الربيع بنت معوذ قالت: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نسقي ونداوي الجرحى ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة)⁽³⁾.

النساء يقاتلن ويداوين ويحملن الجرحى والقتلى إلى المدينة بعلم رسول الله وبموافقته وبتأييده صلى الله عليه وسلم. فهل من يمنع النساء الآن من كامل الحياة بالفتوى والقرار والتعميم والكتيب والخطبة وبكل وسيلة يرى أنه سيصحح ما أخطأ فيه رسول الله؟ حاشا لله.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج8، ص 412.

(3) صحيح البخاري. كتاب الجهاد باب مداواة النساء الجرحى في الغزو.

كان يمكن أن يأمر رسول الله كل رجل مسن بأن يداوي الجرحى ويسقيهم ما دام المسن غير قادر على القتال لكبر سنّه، لكي لا تلمس يد المرأة جسد رجل جريح ولكي لا يكون هناك اختلاط ولا تكلمه ولا يكلمها. لكنه لم يفعل هذا وترك مجالاً لمن شاءت من الصحابييات لتشارك في الجهاد.

وفي صحيح مسلم (عن أنس رضي الله عنه أن عائشة وأم سليم كانتا يوم أحد مشمرتين تنقلان الماء على متوهما ثم تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملأنه) زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيبته التي لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها مشمّرة تهرول بالماء لتسقي المقاتلين مثلها مثل سائر النساء المشتركات في المعركة.

أما الشاهدة الثانية فهي أم حرام بنت ملحان والحديث عنها كالتالي: (عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حدثتني أم حرام بنت ملحان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فنام في بيتها ثم استيقظ وهو يضحك فقالت: ما يضحكك يا رسول الله قال: أناس من أمي عرضوا علي غواة في سبيل الله يركبون ثبج البحر كالملوك على الأسرة. فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فدعا لها ثم وضع رأسه ونام. ثم استيقظ وهو يضحك. فقلت: ما يضحكك يا رسول الله فقال: أناس من أمي عرضوا علي غزاة في سبيل الله - كما قال في الأولى - فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال: أنت من الأولين. فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان فصرعت حين خرجت من البحر فهلكت)⁽¹⁾.

(1) أخرجه البخاري ومسلم ومالك والترمذي.

إذاً كانت أم حرام بنت ملحان تطمح في أن تكون في صفوف الغزاة وأخبرت رسول الله بطموحها هذا. فهل قال لها استغفري ربك ولا تقولي هذا إذ إن في الرجال من يكفي للقتال؟ هل قال لها لا يجوز خروجك من منزلك لغير ضرورة واشتراكك في الغزو ليس ضرورة؟ هل صمت على الأقل ولم يجيبها؟ لقد دعا ربه لكي تخرج ضمن الجيش مقاتلة. فاستجاب له الله. يا الله.. رسولك يدعو وأنت تستجيب. إذا كان خروجها لا يجوز إلا لضرورة فهل سيدعو لها الرسول ثم يستجيب الله لدعوته؟

اليوم كثير من القوم يرون بعكس ما يرى الله ورسوله ثم يقولون بأن رأيهم هو الدين ذاته وما علينا سوى اتباعه.

هل نكتفي بهاتين الشاهديتين؟ لا شك أن موقف رسول الله منهما دليل لكل ذي عقل بأن هناك تغيراً حصل في فهم الناس لتعاليم دينهم جعلهم يرون النساء دون الرجال ويرون أن سجنهن خارج أي مشاركة حياتية حقيقية أمر إلهي جاءت به تعاليم الدين الحنيف.

وها هي سيدة أخرى من الصحابيات رضوان الله عليهن تخبرنا كم عدد غزواتها مع رسول الله فتقول في حديث أخرجه مسلم: (عن أم عطية رضي الله عنها قالت: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، وكنت أخلفهم في رحلهم أصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى).

وذات السيدة تخبرنا عن العيد فتقول في رواية البخاري ومسلم: (عن أم عطية رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرج في العيدين العواتق والحيض وذوات الخدور فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين قالت إحداهن: يا رسول الله إن لم يكن لها جلاباب قال: فلتعرها أختها من جلابيبها).

صلى الله عليك وسلم يا رسول الله. تأمر النساء بالخروج
 أمراً. وكان يمكن أن تسكت فمن خرجت فلا بأس ومن بقيت
 تبقى في بيتها. لكنك تأمرهن. وكان خروجهن واجب عليهن
 يجب أن يلتزم به. لتنفيذ جميع النساء أمرك وتشهد جميع النساء
 العيد وتفرح جميع النساء في العيد. العواتق - أي المراهقات
 والحبيص اللواتي جاءنهن الدورة الشهرية وذوات الخدور أي
 السيدات اللواتي تجاوزن سن المراهقة تأمرهن كلهن بحضور صلاة
 العيد أمراً. والعيد يُلبس له الجديد ويفرح فيه المسلمون فإن لم
 يكن لأيهن جلباباً مناسباً للعيد فلتستعر من أختها لتفرح بما تلبس
 كالأخرين. ولنا أن نتساءل اليوم عن اللواتي يُسمح لهن بالامتثال
 لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حضور صلاة العيد! الأمر
 على العكس، لقد التزموا صمتاً حيال هذا الحديث كصمت القبور
 لكي لا تخرج النساء إلى صلاة العيد.

وماذا عن التجارة والبيع والشراء؟ عن قبيلة الإنمارية رضي الله
 عنها قالت: (قلت: يا رسول الله إني امرأة أشترى وأبيع فربما أردت
 أن أشترى السلعة فأعطي بها أقل مما أريد أن آخذها به ثم زدت حتى
 آخذها بالذي أريد أن آخذها به وربما أردت أن أبيع السلعة
 فاستمتت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به. فقال صلى الله عليه وسلم: لا
 تفعلي هكذا يا قبيلة ولكن إذا أردت أن تشتري شيئاً فأعط به الذي
 تريدين أن تأخذه به. أعطيت أو منعت وإذا أردت أن تبيع شيئاً
 فاستامي الذي تريدين أن تبيعه به أعطيت أو منعت)⁽¹⁾.

امرأة تخبره صلى الله عليه وسلم أنها تبيع وتشتري السلع فلا
 يعنفها لخروجها واشتغالها في الأسواق. ولا يسألها - أليس لك

(1) أخرجه ابن ماجه والطبراني وابن سعد والحكيم والترمذي.

محرم فينفق عليك أو يتولى عنك أمور تجارتك ولا يقول لها إن عليها اعتزال عملها الذي يضطرها للبقاء في السوق، بل يعلمها كيف تتصرف أثناء البيع والشراء، نعم يعلمها كيف تبيع وتشتري. أتعلم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن استخراج السجلات التجارية لا تكون إلا بواسطة ولي أمر المرأة لسنوات طوال. والآن فقط بدأ التفكير في جعل المرأة بذات سجل بدون واسطة وولي.

المرأة المسلمة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تستقبل ضيوف زوجها في بيتهما وتشارك زوجها في مجلسه وتشاركهم الطعام. وأذكر هنا ما جاء في البخاري ومسلم أن أبا أسيد الساعدي دعا النبي وأصحابه لحضور عرسه، فما صنع لهم طعاماً ولا قرب إليهم إلا امرأته أم أسيد. ثم بلّت تمرات في تور (أي إناء) فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الطعام أمائته (أذابتة) له فسقته، تتحفه - أي تخصه - بذلك. هل نهرتها يا رسول الله؟ هل قلت لها إنها "حرمة" يجب أن تكون في قسم الحريم؟ حاشاك رسول الله. فهذا لا يليق إلا بالجهلاء من الناس فقط.

وتأملوا معي المعاني التي في هذا الحديث الوارد في صحيح مسلم: (عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن جارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارسياً كان طيب المرق، فصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاء يدعوه، فقال صلى الله عليه وسلم: «وهذه؟» لعائشة، فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا» فعاد يدعوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وهذه؟» قال: لا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا» ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وهذه؟» قال: نعم، في الثالثة. فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله).

رجل يدعو رسول الله إلى الطعام. فهل قال لزوجته ابقني في المنزل سأذهب إلى جارنا أكل عنده وأعود؟ هل قال لها - سأخرج. ثم يدير ظهره ولا يخبرها أين يذهب ومتى سيعود؟

حاشا لله. إنه يرفض الدعوة إلا إذا وافق الداعي على أن تكون عائشة معه. وأول ما يتبادر إلى ذهني هو حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن ترافقه عائشة رضي الله عنها في زيارته تلك لجارهم الفارسي الذي يجيد الطبخ فتأكل معه. وأما ثاني ما نستدل به من خلال الحديث أن جار الرسول الذي أتى ليدعوه إلى تناول الطعام في بيته كان يتحدث مع الرسول في حضور عائشة فكان الرسول يشير إليها ويقول وهذه. ثم يعود الفارسي من جديد فلا يطلب الرسول منها المغادرة بل يكرر (وهذه) وكذلك في المرة الثالثة. وفي كل مرة كان يشير إليها لا يقول (وتلك) فهي ليست بعيدة بل قريبة منه برغم وجود الفارسي لهذا استخدم اسم الإشارة (هذه). بعد ذلك قاما يتدافعان ويحاول كل واحد منهما أن يسبق الآخر للوصول إلى بيت جارهم طيب المرق. بساطة في التعامل تنطلق من الثقة بالنفس والثقة بالجار والثقة بالزوجة. كلها استبدلناها بالشك والخوف والتوجس. مع أن هذه الأخلاقيات كانت حتى عند الجاهلي إذ تقول الخنساء عندما رثت أباها صخرًا:

لم تلفه جارة يمشي بساحتها لريبة حين يخلي بيته الجار.

تريد الخنساء أن تقول عن أخيها إنه شهيم ومهذب ومحترم.. وصفات كثيرة تلك التي تجعل الرجل لا يتلصص ولا ينظر إلى جارته، ليس خوفًا من الرجل الذي في البيت لأنه غير موجود أصلاً. بل لأن رجولته تأبي عليه أن يتصرف بحقارة.

وأما الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس فقد اشتغلت بتعليم القراءة والكتابة وكانت معلمة حفصة بنت عمر بن الخطاب أم

المؤمنين وتميزت بالحكمة ورجاحة العقل حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب ولأهها ولاية الحسبة وتلك الولاية تمثل وزارة التجارة في عصرنا الحاضر فكانت مسؤولة عن الأسواق والأوزان والمعاملات، تراقب وتحاسب وتفصل بين التجار وأهل السوق من الرجال والنساء معاً في عمل يومي يستهلك جلّ وقتها. وتُعد الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس أول امرأة تتقلد منصب يوازي منصب وزيرة في الخلافة الإسلامية⁽¹⁾.

هل اختفى الرجال في عهد عمر ليولي مسؤولية التجارة لسيدة؟ أم أن الرجال في عهده رضي الله عنه أقل في قدراتهم وأضعف في شخصياتهم من أن يديروا أمر التجارة. بلا شك أن في الرجال أمناء وأقوياء بحيث يمكن أن يتولوا أي منصب يريد أن يوليه لهم خليفة المسلمين لكن عمر يدرك أن النساء شقائق الرجال ويدرك موقف الإسلام من المرأة ولذا سلّم النساء هذه المسؤولية عندما وجدها أهلاً لها.

أما أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما فقد كانت تباشر العمل في أرض زوجها الزبير بن العوام وتقول: (فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء... وكنت أنقل النوى من أرض الزبير على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ) لم تكن الأرض بجوار البيت. بل كانت على بعد ثلثي فرسخ. والفرسخ يساوي ثلاثة أميال أو ستة آلاف متر. كل هذه المسافة يا أسماء يومياً تقطعينها ولم يقل لك أبوك أو زوجك أو الرسول الكريم صاحب أبيك وزوج أختك، لم يقل أيهم اجلسي في البيت فخرجك غير جائز وعلى زوجك فقط أن يخرج فهو الرجل وأنت الـ "حرمة"؟

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج8، ص 268.

وها هي أم هانئ تجير الرجال، أن الرجال يستجرون بها، أي يطلبون حمايتها من القتل، فتجبرهم أي أنها تحميهم. من ماذا؟ من القتل. أي أن أرواحهم صارت أمانة بيدها. أليس في مكة من يجير رجال من آخرين يريدون قتلهم؟ ما موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنه يقرها على ما فعلت. ففي صحيح البخاري ومسلم: عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت أجرت رجلين من أمهائي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ). أم هانئ تحمي رجلين استحقا القتل يوم فتح مكة وعلي رضي الله عنه يبحث عنهما ليقتلهما. لكن الرسول الكريم يوقف عليا بأن يقرها على ما فعلت وبهذا يثني علي عن ما كان سيفعله. مع أن علي رجل وهي امرأة وكان يمكن أن يتفوق رأي الرجل على رأي المرأة. هذا جانب. أما الجانب الآخر فهو الإجارة في حد ذاته. إنها امرأة وتجير الرجال. ويقرها رسول الله على عمل كهذا. لم يقل لها يا أم هانئ أنت امرأة ولا يجوز للنساء إجارة الرجال والتفاوض معهم حول هذه الأمور، ابق في بيتك وابتعدي عن مواقف تخص الرجال. لقد أقرها صلى الله عليه وسلم وكأنه يقول لها وللجميع: أنت شقيقة الرجل لك ماله وعليك ما عليه. بل إن ما فعلته يا أم هانئ أفضل مما كان سيفعله علي بن أبي طالب وهو قتل الرجلين. أم هانئ في فتح مكة تجير الرجال. أي أن هذا الأمر ليس في بداية الدعوة بل بعد الفتح.

أما حياتهن فلنستدل على جانب منها من خلال ما رواه البخاري في هذا الحديث: (عن عائشة رضي الله عنها قالت: زفنا امرأة إلى رجل من الأنصار فقال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة أما يكون معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو).

خروج النساء إلى الحياة كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته كخروج الرجال، لا فرق. يعملن في التجارة أو

الزراعة ويحاربين في المعارك ويجرن المستجير. وفي الأعراس يحنهن رسول الله على الغناء والطرب.

كيف صورت بعض الخطب والأشرطة ووسائل الإعلام والكتب الدراسية مجتمع الرسول وصحابته بخلاف ما كان عليه.. ولماذا جعلوا المرأة في منزلة دونية ثم نسبوا دونيتها إلى كتاب الله وأفعال رسول الله؟

لقد وصلت الأمور بين العامة اليوم إلى حدّ يقهقه منه من يسمع به أو يبكي. ولكم أن تتصوروا أن المرأة إذا كانت في العدة لا تخرج من منزلها. هل الأمر يقف هنا؟ لقد صار في قائمة الممنوعات عليها أمور عجيبة ولا يحاول الدعاة والمتصدرين لإرشاد الناس لتوضيحها. كأن تمتنع عن مشاهدة القمر، فالقمر ذكر وتمتنع عن شرب القهوة بالزعفران. فالزعفران أيضاً ذكر. ولم ينتبهوا لتحريم الرز واللحم واللبن وغيرها.

وفي صحيح مسلم في كتاب الطلاق حديث جابر بن عبد الله قال: (طلّقتُ خالتي، فأرادت أن تجد نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بلى فجدني نخلك فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفاً).

إذا المرأة مطلقة وهي مزارعة وتريد أن تذهب إلى نخلها وتعمل في مزرعتها وتسال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يسألها ما إذا كان لها ولي أمر. أليس لها ابن كبير يعمل بدلاً عنها في الأرض. أليس لها أب أو أخ.... إلخ. لتبقى في المنزل على الأقل وقت العدة. وبعد العدة تخرج.. بل يشجعها على الخروج وهي في عدتها وتشجيعها يتم بأن يذكرها أنها عندما تعمل في أرضها وتنتج من نخلها فربما استطاعت أن تصدق أو أن تعمل معروفاً. فهل وضّح الدعاة والداعيات هذا الأمر للناس أم صمتوا عن هذا الحديث أيضاً؟

كيف تعيش من مات عنها زوجها في مجتمعنا وكيف تقضي
عدتها؟ إنها حكايات أخرى.

أخبرتني بعض النسوة ممن تجاوزن الخمسين أن أزواجهن يذهبون
إلى المسجد ويستمعون إلى خطبة الجمعة ثم يعودون حانقين غاضبين
على النساء دون سبب، ولأن المساجد قريبة ومكبرات الصوت
مرتفعة يقلن لي: كنا نسمع تحريض الرجال علينا من قبل الخطيب
وحديثه عنا نحن النساء بكل سوء، ونحن في بيوتنا نردد: (حسبنا الله
ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل. ندعو الله عليه فقد سبنا
وشكك في عفتنا إذا غفل الرقيب من الرجال. يفعل هذا فوق المنابر)
ثم يعود رجالنا بعد الخطبة مكفهري الوجوه تخلو كلماتهم من اللين
والطيبة وتستمر حالنا هذه أياماً عدة وكأن الرجل لا يكتفي بأن
يأمرني بل يريد أن يأمرني وهو مستاء مني. فما أن يتغير الحال
ويخاطبني برفق وهو يأمرني بشيء مما يريد إلا وجاءت الجمعة التي
تليها فخرج إلى المسجد وعاد حانقاً مكفهراً.

لا شك أن الخطباء ليسوا سواء ففي الخطباء خير كثير، وفيهم
من يدرك وجود أطياف من الرجال يستمعون إليه ويفسرون كلماته
بطريقة عملية خاطئة فينتبه إلى ما يقول وينتقي ما يجب أن يعلن من
على المنبر. وفيهم من يردد قول الرسول صلى الله عليه وسلم:
استوصوا بالنساء خيراً. وقوله خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم
لأهلي وفيهم أيضاً من كان يعمم القول ويجمّله فيجعل النساء كلهن
امراًة واحدة ثم يؤكد على سوء خلقها ووجوب مراقبتها ومحاصرتها
وإلا فإنها ستقدم على الحرام وتندفع إليه اندفاعاً إذا غفل المراقب عنها
ووجدت فرصة إلى الحرام.

الاجتمع كله غير ما لديه من عادات وفق ما قالوا له أن هذا هو
الدين. فاعتنق بكل إخلاص عادات دخيلة أنتجتها قسوة الصحراء

وندرة أمطارها بالإضافة إلى ما قدمته لها الثقافات المختلفة في الماضي السحيق وتناسب مع طبيعة أهلها. ثم أضاف المجتمع من عنده ليزايد على صاحب العادات الدخيلة ثم صار يدافع عن تلك العادات التي ظنّ بأنها له أصلاً. فتطرف كثيراً في تشدده وصار أكثر ولاءً وتعصباً من صاحب تلك العادات الأصلي.

تغيرت نجد وما جاورها. وتغير أهلها فعرفوا الشعوب وعاداتهم عن طريق الدراسة والقراءة ووسائل الاتصال المختلفة والسفر كوسيلة مهمة في التعرف على المختلفين وقبول التغيير وقد ساعدتهم المستوى الاقتصادي الذي هم عليه. فهجر كثير منهم العادات القديمة واهتموا بالمدنية بمعناها العميق الذي يُعنى بالإنسان كإنسان وليس فقط بالمنتج الحديث فصارت الرياض عاصمة جميلة تقبل التعددية - إلى حدّ ما - وتسمح بالتنوع وهي في طريقها الآن لتحترم الاختلاف. والتجارة تعني أن يغامر المشتغلون بما ويسافروا ويخرجوا عن حدود التعصب المنغلق إلى رحابة الدنيا، إلى انطلاقة الفكر والنفس معاً. أن يروا الناس والعادات والتصرفات والنظم الاجتماعية فتزداد معارفهم وتتسع آفاقهم. وبهذا فإن في نجد - وأنا هنا أتحدث عن العامة وليس عن النخبة المثقفة أو الرموز الدينية - فيها المتمدنون وفيها المحتفظون بتقاليدهم القديمة والمنفتحون والرجعيون والمعتدلون والمتشددون... إلخ.

أما الجنوب فقد صبغته ألوان التشدد والتدين الانتقائي مع وجود قلة من المتمدنين والمنفتحين المعتدلين لكن حتى هؤلاء يعيشون بتحفظ وكأن حياتهم سر لا يخبرون به أحداً. لأن سلطة المجتمع لا ترحمهم ولا تسمح لهم بمخالفة التقاليد مهما كانت شكلية.

الهرولة إلى الخلف بقيت عند الذين يظنون أنهم قوم مختلفون عن غيرهم بطبيعة تكوينهم ولا تسري عليهم قوانين التطور. وهذا ما

يجعلهم عبئاً يعرقل التنمية في البلاد بشكل عام. إن عرقلة التنمية تنشأ لأن المجتمع في مجمله ترك الدين كقطرة ينشأ عليها الإنسان واعتبره أداة يستخدمها من أجل أهداف أيديولوجية يسعى لجعلها مهيمنة في كل مكان ويرى أن على كل شخص أن يدخل ضمنها.

يكاد المجتمع أن يكون مقسوماً إلى قسمين ليسا متساويين. نصف للملتزمين المتزمين وآخر لغير المتزمين. وكأن الإسلام في حوزة فريق دون الآخر. أما معنى الالتزام - بين النساء⁽¹⁾ - فهو التقيد بمظهر معين يعطي إشارة إلى أن صاحبه التزمت بهذا المظهر في لباسها تحديداً، وقد يتبعه التزام في العبادات والمعاملات. مع خلو المعنى عند الكثيرات ولا أقول الجميع من بعض القيم التي يفترض بالمسلم المثقف إدراكها ومنها على سبيل المثال وليس على الترتيب: النزعة إلى التضامن والتعاون والأمانة وإتقان العمل واحترام الآخر والحوار والحرية... إلخ.

والتزامهن بما ذهبن إليه من مظهر أو حتى سلوك حق من حقوقهن المشروعة ما دمنّ قد قررن أن يفعلنه (هذا على فرض أنه ناتج عن قرار عقلائي وليس ناتجاً عن انفعالات عاطفية تأتي بموجب ما يقع عليهن من ضغوطات نفسية يلجأن بسببها إلى ما يعتقدنه تديناً). لكن المشكلة هو أن هذا الشكل الذي يعطي دلالات في مجتمعنا بأن صاحبه التزمت يعطي أيضاً دلالات عن التي ليست على شاكلتها. أي أن التي ليست في هيئتها الخارجية مطابقة لهيئة المتزمات ولم يستطع أحد السيطرة على فكرها وإدخالها تحت مظلته الأيديولوجية فهي غير متدينة في نظر المجتمع. وكأن الدين مع اللواتي

(1) في هذا الكتاب أتطرق للمجتمع بشكل عام وأخص النساء بالتفصيل لهذا فليست هناك تفاصيل عن الرجال إلا من حيث علاقتهم بالمرأة.

اتفقن على أن يلبسن الحجاب بطريقتهن الخاصة بهن. أما باقي مسلمات الأرض منذ أن جاء الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لسن سوى لاهثات خلف هوى النفس ولم يتبعن تعاليم الدين. أو كأن الدين للسعوديات. ليس كلهن. إنما مجموعة محددة صرن منبع الهدى والتقوى. ولإيمانهن العميق بامتلاكهن للصواب رأين أن التدخل من أجل فرض آرائهن على الأخريات واجب شرعي يحتمه عليهن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) دون أي اعتبارات لمعنى المعروف ومعنى المنكر إلا وفق فهمهن فقط. فالمعروف ما يرينه معروفاً والمنكر ما يرينه منكراً مؤكداً أن رؤيتهن تلك هي رؤية الدين نفسه لأنهن يمثلن الدين الخالص. وكان الفقه الإسلامي يخلو تماماً من الاختلاف وكل ما فيه قطعي. وهذا يعني قطعية رأيهن ووجوب إلزام الأخريات به. إذ إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - على فرض صحة ما ينادين به - لم يعد أمراً ونهياً بل صار إلزاماً ومحاسبة وضغوطاً مختلفة يُستغل فيها العمل أسوأ استغلال. فيصبح الإلتقان ليس ذا قيمة وما نحاسب عليه كموظفات هو شكلنا الخارجي⁽¹⁾.

وليس السواد في بلادنا التي يغلب على مناخها ارتفاع الحرارة غالباً فهو أمر أكرهت عليه النساء فقط. أم الذكور فيرتدون اللون الأبيض طوال الصيف والغتر البيضاء كما ويحق لهم في الشتاء أن

(1) تنص التعاميم الصادرة عن الرئاسة العامة لتعليم البنات على تقييم حاجي المعلمة ضمن درجات تقييم أدائها الوظيفي فالحواسب المهملة تأخذ الدرجة كاملة والتي تمذب حواجبها تنقص درجاتها بغض النظر عن كفاءتها كمعلمة وتحرص كثير من المديرات على تنفيذ التعميم كما ورد. يضاف إليه تعاميم تقول بتقييم المعلمة من خلال شكل ملابسها أيضاً. فهل نكون في عملنا محترفات وفق تلك التعاميم. وهل تستطيع أي معلمة أن تفهم معنى الاحتراف في العمل بعد كل هذا؟

يرتدوا الثياب السوداء والبنية بدرجاتها والكحلية بدرجاتها والرمادية بدرجاتها وكذلك يحق لهم لبس المعاطف الملونة.

المرأة فقط عليها أن تلبس العباءة السوداء طوال العام. ولا فرق إن كانت تخرج من عملها ظهراً في الصيف أو الشتاء، عليها دائماً أن تتسربل بعباءتها السوداء وتحفي وجهها خلف الأقمشة السوداء أيضاً. قالت إحداهن لزوجها: أريد أن أخفف من غطاء وجهي.. أشعر بالاختناق. أجابها: إذا مت بسبب حجابك تموتين شهيدة.

وكانت قد خطرت في بالي فكرة تبادل الألوان بين النساء والرجال في بلادنا. وكلما جاء أغسطس تمنيت أن يُفرض لبس السواد على الرجال وتفرد النساء باللون الأبيض. - ليس كلهم ولكن يُفرض على الرجال الذين حرّموا الألوان على النساء فقط. - إن أكبر ما يعانیه المجتمع وما يجعله ثابتاً لا يجيد التقدم إلى الأمام خطوة واحدة هو أن الناس فيه يرون النسبي مطلقاً والأحكام عندهم قطعية ونهائية وهذه الرؤية الضيقة والمتحجرة جعلت من الصعب على المجتمع أن يتخلى عن أفكاره حتى ولو بدا له وجود خلل في بعضها على الأقل.

قليوبون هم الذين يملكون الشجاعة لمراجعة أنفسهم والتأكد من مصدر أفكارهم التي اعتنقوها وآمنوا سنوات وسنوات بصحتها فالنقد ملكة عظيمة لا يملكها الجميع. أما التقليد فهو الأسهل. لذا نرى الناس يستسلمون للعادات الشائعة حتى وإن كانت خاطئة.

ويتبادر إلى الذهن سؤال مفاده: هل نؤمن حقاً بأن الإسلام لكل زمان ومكان؟ أكاد أسمع رد القارئ الكريم وهو يقول الإجابة بنسبة قوية: طبعاً الإسلام صالح لكل زمان ومكان. أنا أيضاً أقول: نعم الإسلام صالح لكل زمان ومكان. الإسلام ليس للسعوديين

والسعوديات فقط. بل هو لكل من آمن بالله رباً وبمحمد نبياً في مشارق الأرض ومغاربها. فإذا كنا في مجتمعنا قد خصصنا أماكن للرجال وأخرى للنساء طبقاً لما نتصوره عن الإسلام فهل الذين لم يفعلوا هذا من مسلمي الصين مثلاً وهم أضعافاً مضاعفة مقارنة بمسلمي بلادنا. هل نراهم خارجين عن تعاليم الإسلام لأنهم لم يجعلوا المرأة خلف أسوار شاهقة تعزلها عن المشاركة في الحياة؟ لا بأس فأهل الصين ليسوا قدوة. لكن.. ماذا عن بيت الله والحج والعمرة وقد أوجبها الله على النساء والرجال في موسم واحد ومكان واحد؟ لماذا لم يجعل الله الحج في موسمين مثلاً، واحد للرجال وآخر للنساء. أو لماذا لم يسقط فريضة الحج عن النساء ويخص الرجال بما يتطلبه الحج من مشقة بدنية وأخرى مالية والأهم لما فيه من اختلاط. فهل فرض الله على النساء ما يرى الرجال أنه لا يجوز فرضه؟ أستغفر الله العظيم. وماذا عن مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم من النساء في خروجهن وحروبهن وعملهن والتي تناولت بعضها في الصفحات السابقة.

وإذا قام أي عاقل بمقارنة بسيطة بين مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مجتمع الجنوب فيما مضى فسيلاحظ التشابه بين المجتمعين من حيث مكانة المرأة وحياتها وتحركها وطريقة تعاملها مع الرجل وتعامل الرجل معها بتلك البساطة التي تخلو من الشك والتوجس والخوف والمراقبة. وتعطي معنى لكلمة كرامة الإنسان، الإنسان وحسب بغض النظر عن عمره ولونه وجنسه ومكانه.

في عام 1987م كانت جدتي لأمي رحمها الله قد تجاوزت السبعين من عمرها قالت لها إحدى المراهقات حينها وقد تعلمت أن تصنف الناس إلى ملتزم وغير ملتزم وفق ما تعلمته من معلماتها في المدرسة: غفر الله لكن يا جدة، كنتن سافرات الوجه في الماضي

وتخرجن كثيراً من البيوت لكن ربما كان هذا يحدث لأنه لم يكن لديكن علم بأن كشف الوجه حرام لذا فلا إثم عليكن إن شاء الله. حركت جدتي نظارتها بكفها المرتجف وقالت بلهجتها العسيرية: (قد هو حرام يا فلانة يوم ندر لش إم ماء من إم جدر ولو أنش بعداً تشلين إم قربة من إم بير بظهرش أربع مرات هم يوم كان كسفتي وجهش، إم إسلام يا ابنتي لم يعيق إم حياة. إم عرب غيرهه فقد هو عسير بعد ما جاء يسير) قالت جدتي لمن لا يعرف لهجتها: أصبح كشف الوجه حراماً عندما صار الماء يخرج من الحائط - أما لو أنك لا تزالين تحضرينه بالقربة علي ظهرك من البئر أربع مرات كل يوم لما رأيت في كشف الوجه بأساً. الدين لا يعيق الحياة والدين يسير لكن الناس جعلوه عسيراً.

هذا الجواب على ما فيه من بساطة يضيء للمتأمل طريقه إن أراد التأمل. إذ قدمت السيدة المسنة للمراهقة المؤدجلة سبب إمكانية جعل المجتمع بهذا الشكل، فهل علي كل مجتمع في الدنيا أن يكون نسخة مطابقة لمجتمعنا لكي يُعد مجتمعاً مسلماً محافظاً وإذا لم يكن فإن هذا معناه أنه خارج عن حياض الإسلام أو على الأقل قام بمخالفة شرعية؟

لقد أعطى القرآن الكريم للمرأة حقها وكيانها وإرثها وقراراتها مالها وتعليمها ومشاورتها ومبايعتها. لكن الجهلاء أرادوا تصوير الإسلام بصورة المانع القامع المذل المهين العسير.

إن المقاومة الشرسة ضد تصحيح وضع المرأة حتى وإن كان هذا التصحيح ملزماً للمسلمين استناداً إلى ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله الكريم سببها ما سيحدثه التغيير من مساس بموقع الرجل كسيد متفرد لا يقبل الندية من امرأة.

ورع انتقائي

إنه جنتلمان.. لا يضرب المرأة أبداً إذا كان على رأسه قبعة!!!

أن ينتقي أحدهم من الدين ما يراه مناسباً له بشكل شخصي ويسكت عن ما لا يريد فهذا شأنه وسيحاسبه الله عليه والله يغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم. لكن أن يفرض طريقته تلك على الآخرين ثم يقول بعد ذلك إنه يتقي الله فهذا هو بالضبط الورع الانتقائي الذي أراه ماثلاً في الانتقاءات الكثيرة التي تتم داخل المجتمع ولنقرأ هذا النص ونرى الانتقاء في مجتمعات مختلفة مجتمعنا على رأسها. (مثلاً تختار المجتمعات الأوروبية القديمة من الدين المسيحي ما يدعم مواقفها كذلك أخضعت مجتمعات إفريقيا وآسيا الإسلام لتعامل من المستوى نفسه. داخل القرآن تعاليم بين صنفين: الأول إرشادات مطبقة بشكل مبالغ فيه - مثلاً الإرشادات المتصلة بالحجاب - وثانياً سلسلة من الأوامر القطعية والتي تم تجنبها ولم يطبقوها من قرن إلى قرن. وفي هذا الصنف توجد أساساً التعاليم الدينية التي كان هدفها إعطاء الحقوق للمرأة باعتبارها إنسانة.

في القرن السابع دخل الإسلام في صراع عملي ضد الدناعات المنتشرة في المجتمع العربي، ليس ضد الدناعات فقط بل ضد أسبابها العميقة أيضاً إذا ورد في القرآن: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ أُنثَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ...﴾ (سورة النساء، 11). ثم يقول الله تعالى بعد أن حدد كيفية تقسيم الإرث: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي

مَنْ تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿سورة النساء، 13 - 14﴾.

لنتأمل وضعية السجل العقاري نلاحظ إذاً أن الفلاحين منذ ثلاثة عشر قرناً بمعدل ثلاثة أجيال في القرن الواحد كلهم مسلمون أتقياء بلا شك اختاروا اللهب الكبير لجهنم على التضحية بتوريث الأرض للمرأة⁽¹⁾.

قمت بنقل النص السابق برغم أن الكتاب الذي نقلت منه كان يتحدث عن منطقة أخرى لكن هذا التطبيق الانتقائي لنصوص القرآن.. والتساهل في تنفيذ الرجل لما سماه القرآن (حدود الله) هو الوضع قائم حتى الآن والمسكوت عنه من الرجال كافة، فالنساء - كثير منهن - لا يؤرثن، وخصوصاً إذا كان الإرث أرضاً زراعية.. وذلك كي لا تتزوج من عائلة غريبة فتذهب الأرض إلى أولادها المنتمين إلى العائلة الأخرى. وتُلزم المرأة الوارثة بالذهاب إلى المحكمة وتسجل تنازلها أو بيعها للأرض دون أن تأخذ ثمنها حقيقة. حتى صارت من تشذ عن هذه القاعدة وتطالب بنصيبها الذي فرضه الله لها ليست سوى جاحدة لفضل أسرتها غير مهذبة معهم تسببت لهم في مشاكل وشتت شمل أسرتها.. إلى آخر ما هنالك من اتهامات وأحاديث لا تنتهي عن المظلومة التي تطلب الإنصاف. وبقدرة المجتمع تصبح هي الظالمة والجاحدة. إلى هذا الحدّ يمكن جعل الموقف مقلوباً دون أن ينتبه أحد. أما كشف الوجه ومع أنها مسألة خلافية بين أئمة المذاهب وكبار الفقهاء.. وليست كمسائل الإرث تدخل ضمن الحقوق فقد تشدد المجتمع فيها إلى حدّ جعل الصغيرات يعددن

(1) ص 169، جرمين تيليون، الحرّيم وأبناء العم، تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط.

الحجاب من أركان الإسلام الخمسة وجعل الصغار يراقبون أحوالهم وأمهاتهم بكل شراسة وتطاول حرصاً على الأركان التي زادت ركناً عندهم.

يقرؤون نص الآية التي تفرض الإرث ثم الوعيد للذين يتعدون على الميراث ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (سورة النساء، 14). ومع ذلك يستمرون في ما هم عليه. فأى تقوى يدعون أنهم ملتزمون بها؟

أما مسألة الحجاب. فكلنا كمسلمين نقر بأن الحجاب تشريع إلهي. لا خلاف في هذا. ولكن الخلاف في غطاء الوجه والكفين (أما شكل موديل الحجاب ولونه وحجمه فهذه أقرب إلى مصممي الأزياء منها إلى الفقهاء).. وما دام خلافاً فلن نستيقظ ذات صباح لنجد أن الناس كلهم قد اتفقوا على أحد الأمرين. إذاً.. الخلافي يبقى خلافاً. ولكن بالغ المجتمع بواسطة ما يتلقاه من فتوى في حجاب النساء إلى أن صار إخفاءً للنساء وتغيب لهن. وصار لزاماً على كل النساء غطاء الوجه. لو أن الأمر بقي إلى هنا لقلت إنه يدخل في مجال فرض رأي فقهي على آراء أخرى. لكن الأمر تعدى فرض الغطاء في الحجاب ليصل إلى نوع الغطاء وسماكته وهل به ثقب أمام العين أم لا ومتى يمكنها أن ترى من خلال الثقب ومتى لا يمكنها ذلك. والعباءة وطريقة لبسها هل تضعها كما يضع البدوي والبدوية في الشتاء عباءتهما (ما يسمى البشت أو المشلح) على رأسيهما أم تضعها على كتفيها أيضاً كما يلبس الرجل عباءته. وانطلاقاً من طريقة اللبس هذه يصنف المجتمع النساء إلى متسترة ومتبرجة. مع أن هذه وتلك، كليهما تلبسان العباءة وتغطيان الشعر والوجه.

والمتبرجة عندنا تُعد في مجتمعات إسلامية أخرى شديدة التمسك بتعاليم الدين ومبالغة فيما يخص الحجاب. إذاً.. تحول زي

المرأة المسلمة إلى هاجس رئيسي في حياتها. وصارت تفاصيل التفاصيل فيه ترعبها وترعب المجتمع معها خوفاً من تخطي تلك التفاصيل. لم تعد المسألة مسألة الحجاب، فلا وجود لسافرات الوجه إلا في ما ندر والنساء جميعهن محجبات بشكل عام.

إن تسليط الضوء على الفتوى التي تدعم الشكل المراد. فتحريم حجاب وتحليل آخر. وتحريم لون وتحليل آخر يخضع لرأي الفقيه وليس إلى نص بعينه. ويظل إغفال الآراء الفقهية التي تخالف في معظمها ما ذهب إليه من يقول بغطاء الوجه. وكيفية الغطاء هو الذي يجعل العامة يرون الحق الكامل فيما سمعوه من آراء لتصبح هي الدين ذاته. ويصبح شكل الحجاب هو محصلة كل ما يراه المجتمع في المرأة.

أما الإرث.. أو الطلاق.. أو عدم التعليق - أي لا متزوجة ولا مطلقة - إلخ.

فهذه حقوق لا يتم تسليط الضوء عليها ولا تُتداول بين الناس كربع تداولهم لحرمة رؤية وجه امرأة. ففي المسائل النسائية ينحرف المجتمع كثيراً فيصبح متهاوناً فيما هو مع المرأة ومع مصلحتها وما هو ضد ظلم الرجل واعتدائه عليها. ويؤكد المجتمع على ما يستطيع به أن يكبلها ويحاصرهما. أي أنه يختار من النصوص ما يراه مع ما يريد فيسلط عليها الضوء ويبالغ في إبرازها مع السكوت عن النصوص التي تخالف رأيه. ويتجنب تماماً كل النصوص التي قد تجعل المرأة ذات حق في مسألة ما. وسأضرب مثلاً.. وللقارئ الكريم أن يتتبع باقي الأمور.

في مسألة الطلاق يأمر الله الرجل أمراً بأن يمسك بمعروف أو يسرح بمعروف يقول الله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ

نَفْسَهُ...» (سورة البقرة، 231). لكن كثيراً من الرجال فضّل أن يخالف أمر الله ويعتدي ويظلم نفسه. وليس هناك ظلم للنفس أشد من عصيان الله فيما فرضه من تنظيم للعلاقات والمعاملات بين البشر. والمجتمع لا ينصف بمؤسساته الرسمية وأعرافه وتقاليده المرأة التي وصف الله الرجل الذي لم يسرحها بمعروف بالمعتدي. بل يتركونه يعتدي كم يشاء من الوقت. وعلى الطرف الآخر نراهم لا يتهاونون في اتخاذ التدابير الصارمة لمنع سفر المرأة بلا محرم وذلك لوجود حديث "وليس نص من القرآن" يقول بعدم سفر المرأة إلا بمحرم - ويصمتون عن الأحاديث الأخرى التي جاءت في هذا الشأن - علماً بأن السفر بالطائرة يختلف عن السفر على جمل جملة وتفصيلاً. وتغيير الزمان والأحوال تتغير الفتوى. ولا يتطلب سفر المرأة بالطائرة كل هذا التشدد وكل هذه القوانين.

أي أنهم يتجاهلون نص القرآن الكريم حول التسريح بإحسان ويلوحدون بنص حديث عن السفر بلا محرم.

الاعتداء بعدم التسريح بإحسان هو اعتداء كما وصفه الله تعالى في كتابه وكان الأولى أن يكون مما يجب التركيز عليه وإظهاره للناس من قبل الذين قالوا إنهم من المهتمين بالإنصاف والعدل والحق وأن تطبيق دين الله من أولوياتهم في هذه الدنيا وأن تأخذ مثل هذه النصوص عندهم مساحات اهتمام أوسع لإبرازها وتنظيم القوانين التي تحدّ من الاستهتار بمعناها وما جاءت لأجله.

إذاً هذا التّقى الظاهر على المجتمع يتجاهل الأوامر السماوية الواضحة والجلية التي تعطي للمرأة حقوقاً رفض أن يطبقها حتى وإن آمن أنها من عند الله. يرفض ما أنزل الله جهاراً نهاراً.

وحتى بعض الأئمة وخطباء المساجد تجاهلوا تسليط الضوء على ما يكون لصالح المرأة ونص عليه القرآن الكريم كمسألة الإرث مع أن

ورعهم وصل إلى حدّ الالتزام بتقصير الثياب وإطالة اللحى وهذا يعطي تصوراً بأنهم حتى في الأمور الشكلية التزموا بتعاليم الدين فما بالناس بالجوهرية.

إن وضع المرأة الحالي في المجتمع من المسلمات التي لا تقبل النقاش أو النقد والمراجعة عند كثيرين والحديث عنها مجازفة كبيرة تجنب الوقوع فيها من كان يجدر بهم تناولها على الأقل لكونهم أصحاب مكانة دينية وبالتالي اجتماعية ولهم تلاميذ ومريدون ينصتون ويحفظون ويتداولون كل صغيرة وكبيرة صدرت عنهم.

بعض النساء ضد أي تغيير أو حتى تحسين على الأقل لما هنّ عليه ويرجع السبب - في رأيي - إلى هيمنة ما تتلقاه المرأة من ثقافة مناهضة لها. أي أنه تمّ تثقيفها بأن لا ترى نفسها إلا دوناً عن الرجل.

وكل محاولة لنقد الواقع وإظهار بعض ما فيه سيرمي صاحبها أو صاحبته بمخالفة الدين. فهل حقاً مارس الدين كل هذا التمييز العنصري ضد النساء؟ معاذ الله - ويرفض كثير من الناس التغيير على اعتبار أن هذا التمييز ضد المرأة منزل من عند الله؟

عمل المرأة

يجب على المرأة أن تتعلم منذ صغرها القيام بالدور الذي خلقت له.. وهو دور الخادمة.

جوته

المرأة في السعودية بشكل عام ليس لها مشاركة حقيقية في مشاريع البلاد النهضوية والتنمية. ولا زال المجتمع - إنثاءً وذكوراً - يرى أن عمل المرأة ترفاً سُمح لها به ضمن حدود ضيقة وشروط عديدة. وكأن العمل مجرد وقت تمضيه المرأة بعيداً عن أسرتها لتحصل منه على العائد المادي الذي تريد. وما دام هذا الفهم موجوداً إلى اليوم فلن أستغرب وجود من يردد بأن بيتها أولى بها وأطفالها بحاجة وخروجها مدعاة للمفسدة... ولن أستغرب وجود من يردد في كل مرة يتم النقاش حول عمل المرأة بأنه يرى أن على المرأة أن تعمل ولكن وفق ما يناسب طبيعته.. إلخ من الكلمات التي تناشد النساء بمزيد من الانسحاب من الحياة وتركها للرجل وحده إذ إن هذه المناشدات جاءت وفق النظرة الدونية للمرأة في المجتمع والذي لا يرى فيها الإنسان المنتج والفاعل بل يراها في حدود ما لديها من استعداد بيولوجي موجود لدى كل الإناث في كل الحيوانات والحشرات. وليس امتيازاً اختصت به النساء فقط وهو قدرة جسدها على الحمل والولادة. وقد يظن البعض أن القدرة على الحمل والولادة يعنى القدرة على التربية لهذا ينادون ببقائها إلى جانب طفلها. وهذا غير صحيح على الإطلاق. فحتى ذوات المرض العقلي قادرات على الإنجاب فهل نقول أنهن قادرات على التربية؟ وكل أنثى في الحيوان والحشرات قادرة

على أن تحمل وتضع حملها. إذاً الحمل استعداد بيولوجي عند الأنثى دون الذكر - ليس كل الذكور فالذكر في فرس البحر لديه الاستعداد للحمل والولادة لذا فهو الذي يحمل ويولد وليست الأنثى⁽¹⁾.

أما التربية كعلم وخبرة تؤدي إلى تكوين إنسان سوي نفسياً وجسدياً فهذا شأن آخر يدركه ذوي الاختصاص في التربية وعلم النفس.

وبرغم تراجع تلك النداءات الآن بسبب المردود المادي الذي ساهم في رفع مستوى الأسرة اقتصادياً إلا أن أثرها على المجتمع بشكل عام وعلى المرأة خصوصاً لا زال جلياً من حيث تحديد مجالات العمل أو النظر إلى بعض الأعمال بشيء من الحذر كعمل المرضية أو الطيبة برغم تزايد أعداد العاملات في الحقل الطبي.

إن كثيراً من النساء العاملات عملن لأهداف اقتصادية بحته دون النظر إلى العمل كقيمة في حدّ ذاته ولولا وجود الراتب لفضلت كثير من النساء الاستسلام للكسل داخل المنزل على النشاط والخروج من المنزل كل صباح⁽¹⁾.

(1) إحدى أجمل الأمور المتعلقة بفرس البحر هي طريقة تكاثره: خلال موسم التكاثر يرقص الذكر حول الأنثى وينفخ كيساً جليدياً موجوداً تحت بطنه، وهكذا يتفاخر بطنه المنتفخة ويرقص حول الأنثى ساعات حتى تستجيب لمغازلته تلك. عند ذلك يحدث أمر مفاجئ وهو أن تضع الأنثى بيوضها داخل كيس الذكر المنتفخ، وهناك يحدث الإخصاب ويبدأ الحمل داخل بطن الذكر - الذكر حامل!! وإذا انقضت مدة الحمل عانى ما تعانيه الإناث من آلام المخاض ثم أنجب الكثير من الصغار. وربما بدأ مغازلته للأنثى بنفخ الكيس ليذكرها بأنه قادر على الحمل والولادة.

(1) في نتائج استبانة عن الرغبة في العمل من أجل العمل لطالبات مرحلة الثانوية أفادت النتيجة أن 89% يتمنين الخروج للعمل من أجل الراتب. فقط 11% يردن العمل لكي لا يبقين في المنزل كل الوقت أما الخروج للعمل لأن العمل قيمة في حدّ ذاته فلم يكن واضحاً بشكل دقيق في أذهان الطالبات.

إن كسلها وبقاءها على هامش الحياة صورة متغلغلة في جذور الثقافة الاجتماعية عن المرأة. أما الرجل - بعكس المرأة - فإنه يعمل ويريد أن يعمل حتى وإن كان لديه مصادر رزق تغنيه عن بذل الجهد اليومي في عمله. والسبب هو أن الرجل يدرك تمام الإدراك أن العمل ليس ترفاً وليس لتمضية أوقات الفراغ. بل هو تنشيط للنفس وتوسيع للمدارك وبناء للشخصية، كما أنه يولد في أعماق الإنسان قدراً من احترام الذات ويشبع رغبته في أن يكون عضواً منتجاً في مجتمعه ويشعره عمله بأنه يعيش في معترك الحياة وليس على هامشها وبالتالي فإن لحياته معنى إضافة إلى ذلك المردود المادي الذي لا شك يحرص على الحصول عليه. ولهذا الأسباب مجتمعة فإن الرجال الذين يملكون المال أو الذين بلغوا سن التقاعد يفضلون الاستمرار في العمل. أما المرأة في مجتمعنا فهي إن عملت فإن الأسباب السابقة ليست ضمن ما يدفعها للبحث عن وظيفة. إنها تعمل من أجل أحد سببين أو كلاهما - الأول هو المردود المادي. والثاني هو عدم البقاء في البيت طوال الوقت.

المرأة عندنا بشكل عام بحثت عن العمل من أجل الاستقلال المادي الذي سيتحقق لها بواسطة الوظيفة والذي ربما فكرت بعضهن أنه سيلغي ولو الجزء اليسير من سيطرة الواهب المعطي دائماً - الرجل - .

المرأة تساهم بشكل فعلي في الإنفاق على الأسرة إلا أن الرجل لا يستطيع أن يعلن هذا أمام أحد من أصدقائه أو أقاربه. وذلك لاعتبارات ذكورية تجعله حريصاً على الاحتفاظ بسرّه العائلي الخاص. وبرغم مشاركة النساء المعاملات رجالهن في الأعباء المادية داخل الأسرة إلا أنهن يعتقدن أن على الرجل تحمّل كافة المسؤوليات المادية وأن كل ما يقدمه قدمنه من باب التنازل عن حقهن في ادخار أموالهن والتنازل عن حقوقهن في الأخذ من أموال أزواجهن.

ووفق ما تتصوره المرأة عن نفسها فإن من الواجب أن يسارع ولي الأمر الخاص بها إلى تقديم كل احتياجاتها المادية - حتى وإن كانت غنية - وهذا يعني بقاءها في دور المستهلك وليس المنتج. هذه النظرة لأنفسهن أدت إلى أن يكون العمل ليس من ضمن أولوياتهن الحياتية حتى ولو لم يكن العمل إلا من أجل المردود المادي فقط، إذ إن المردود المادي الذي تحصل عليه من عملها - حسب رأيها المتوافق مع ثقافة المجتمع كله - كان يجب أن تحصل عليه من الرجل وهي مستريحة في منزلها. فتصبح المرأة مُغمسة في النمط الاستهلاكي للعيش الذي تُعد المرأة فيه على رأس القائمة ومع ترسيخ هذه النظرة عن المرأة في عقل المرأة ذاتها يصعب عليها أن تطورَ نظرَها إلى العمل الذي سيكسبها شعوراً باحترام الذات والندية إضافة إلى الاستقرار والاكتفاء. وتنعكس هذه النظرة التي ترسخت في عقل المرأة عن ذاتها على العمل وذلك بأن تتحول المهنة في نظر القائمة بها إلى وظيفة تؤديها ليس إلا.

وإذا كان البعض - من النساء والرجال - يرى أن تربية الطفل هي الأهم فلا يمكن أن يؤديها باقتدار في ظل خمولهن وتغييبهن عن الحياة وبعدهن عن إيقاعاتها السريعة، وعن تطوير الذات الذي يحققه العمل. هذا عدا ما أثبتته الدراسات الحديثة عن الطفل ذاته وما يحققه له عمل والدته. إذ إن الطفل الذي يظل لصيقاً بأمه يصبح أقل ذكاءً من ذلك الذي بدأ طفولته ضمن الحضانة ورياض الأطفال. لأن الذي ظلّ مع أمه التي أصلاً تكاد تنعدم عندها خبرات حياتية متجددة لن يتعلم شيئاً بخلاف الطفل الذي انضم إلى عدد من أقرانه وانخرط في برامج تعليمية تعتمد على اللعب كوسيلة للتعلم.

ونعلم جميعنا أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرضعة غير أمه. وأخذته مرضعته إلى قبيلتها وترّبي في مكان مختلف وبيت مختلف

وبيئة مختلفة. كذلك كان كثير من الصحابة وقواد الجيوش والأبطال. أي أن استئجار مرضعة كان أمراً شائعاً ومنتشراً. فكيف كانت شخصياتهم رضوان الله عليهم. بل كيف كانت شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؟

إن ربط خروج المرأة للعمل باختيار الأسرة ليس سوى حجة يلوح بها كل من رفض عملها وتعليمها من قبله لأنه حرص على جهلها وقلّة خبرتها وذلك لما يحصل عليه من شعور بتفوقه عليها. إذ إن رفض خروج المرأة وطريقة التعامل معها، وقيمتها في المجتمع هي وليدة مفاهيم نشأت عن أعراف وتقاليد وممارسات اجتماعية لا تمثل الإسلام وقد رأينا في الصفحات السابقة أن المرأة المسلمة في عهد الرسول وصحابته كانت تشارك في كل مجالات الحياة حتى المجال العسكري والحربي ولم يمنعها الرسول صلى الله عليه وسلم، على العكس من ذلك. شجعها وعلمها ووجهها. إضافة إلى أن القرآن الكريم لم يخص بآياته الرجال ويستثني النساء عندما يتوجّه الأمر والخطاب لعموم المسلمين.

فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (سورة النور، 55). وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء، 59) في كل تلك الآيات وآيات كثيرة غيرها. يتوجّه الخطاب فيها إلى عموم المسلمين رجالاً ونساءً. بإقامة الدين بعقيدته وبكل ما فيه من أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية، هي مسؤولية الجميع وليست مسؤولية نصف المجتمع فقط. وخطاب الطاعة لله ورسوله ولأولي الأمر الوارد في الآية التي تحدتت عن الطاعة هو متوجّه إلى جميع المكلفين. والوعد بالاستخلاف متوجّه إلى كل الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النساء والرجال على التساوي وليس للرجال فقط كما يتوهم كثيرون. إذاً فالإسلام كرسالة سماوية لم

يجعل الحياة حكراً على الرجال دون النساء. ولم يخلق ما في الأرض للرجال فقط ولم يحرم ما في الأرض على النساء.

ثم ماذا عن امرأة لا تعمل وجلست لتربية الصغار والقيام بأعباء المنزل ولكنها لا تعي من التربية سوى إرضاع الطفل وتبديل ملبسه. أما التربية التي تصنع من ذلك الطفل إنساناً متوازناً سوياً قادراً على العطاء ومتوافقاً مع نفسه ومع مجتمعه فهذا ما يعوزها وينقصها، بسبب انعزالها وعدم تطور مداركها. ويكفي أن نعرف أن بعض الأمهات داومن على شراء دواء الكحة وخلطه بحليب الطفل في الرضاعة لكي ينام ويريحها ليلاً لتذهب إلى حفل زفاف وهي مطمئنة أنه نائم. فهل هناك جهل أكثر من هذا؟

ويتعرض الأطفال من قبل آبائهم وأمهاتهم للأذى النفسي والبدني كلما كان الأهل أقل تمدناً بسبب انخفاض نوعيه التعليم. وليس مستواه. والفرق بين نوع ومستوى التعليم يجب أن يكون جلياً في أذهاننا. وبهذا الصدد أنقل ما ورد في الشرق الأوسط عن تربية الطفل في مجتمعنا. (تمر الأسرة السعودية المعاصرة بأزمة لا تنحصر مظاهرها في ارتفاع نسب الطلاق فحسب، ولكن أيضاً في نسب الأطفال الذين يتعرضون للاعتداء، إذ تشير دراسة أجراها مركز أبحاث مكافحة الجريمة بوزارة الداخلية إلى أن 45% من الأطفال السعوديين يتعرضون لصورة من صور الإيذاء النفسي يليه الإيذاء البدني في حياتهم اليومية، وأن 21% من الأطفال يتعرضون لهذا الإيذاء بشكل دائم، ويمثل الإيذاء النفسي أكثر أنواع الإيذاء، يليه الإيذاء البدني، ومن أكثر صور الإيذاء البدني الضرب المبرح للأطفال بنسبة 21% يليه تعرض الطفل للصفع بنسبة 20% ثم القذف بالأشياء التي في متناول اليد 19%)⁽¹⁾.

(1) جريدة الشرق الأوسط، الأربعاء 14 شوال 1426هـ/16 نوفمبر 2005، العدد 9850.

على أن الرجال الذين يرون أن بقاءها أصلح لها ولأطفالها والذين مارسوا التهديد بخطورة أي تغيير يمس وضع المرأة لم يقولوا هذا وفق دراسات وبحوث أفادت بما قالوا ولا وفق تجارب مرت بها البشرية فكما أشرت قبل قليل كان السائد أن ينتقل الطفل إلى مرضعة من غير أهله تربية ضمن بيئة غير التي فيها أمه. إذاً لماذا ينادون بعدم خروجها ثم يؤكدون على براءة أهدافهم، وأنها فقط لمصلحة الصغار ومصحتها؟

إن المناذاة بعمل المرأة بشكل فاعل ومشارك في الحياة لا تحدث إلا من رجل لديه ثقة بالنفس تجعله لا يقلق من تقدم المرأة ولا من مشاركتها في ميدان العمل والرجل الذي يفسح المجال لنجاح امرأة هو متجاوز لعقد كثيرة أرهقت كثير من الرجال في الشرق تجاه نجاح المرأة في العمل.

وربما يعود التحفظ على عمل المرأة إلى ما في ذهن العوام من فهم مختلط بين الانحلال الخلقي وبين تحرير المرأة. فالتحرير الذي يعني الانعتاق من العبودية أو الحصول على الحقوق. حسبوه يعني في اعتقادهم التخلي عن القيم الأخلاقية أو على الأقل سيكون خروج النساء طريق إلى ذلك. ويروى أن رجلاً من العوام سمع عن مناداة "قاسم أمين" بتحرير المرأة، فسأل هذا الرجل البسيط في ثقافته ووعيه المتعصب في تفكيره عن عنوان بيت قاسم أمين وذهب إليه وطرق الباب وعندما فتح قاسم أمين بابه قال الرجل: أريد أن أرقص مع ابنتك وفاجأه موقف قاسم عندما لم يلب طلبه.

وبغض النظر عن صدق الرواية من كذبها أقول: هذا الرجل يجهل أن التحرير هو عكس الاستعباد. وأن الاستعباد يعني سلب الحقوق وهدر الكرامة. كل ما يعتقدوه هو أن المرأة الحرة هي التي ترقص مع رجل غريب. وهذا هو الغريب.. أن يكون معنى الكرامة

والحرية والعدل والإنصاف معكوساً إلى هذا الحدّ فتصبح الكلمة ذات معان تدل على البعد عن الفضيلة والأخلاق والكرامة. وسبب هذا الخلط هو أنهم لم ينظروا إلى ما فرضه الإسلام للمرأة من حرية وما أعطاها من حقوق سُلبت منها مع مرور الوقت لأن تعاليم الإسلام في مجال النساء لم تصمد أمام رغبة الرجل في الإحساس بالتفوق على المرأة فعاد إلى جاهليته أو بعضاً منها. وأغفل من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة كل ما يتعارض مع الفكر الذي سوّق له ضد حرية المرأة. لكن البعض لا يناقش السائد لأنه سائد ويقتنع أنه صحيح لمجرد استمراريته. ربما ولو فكر قليلاً فيما هو عليه لتغيرت حياته إلى الأفضل.

قسم الـ "حريم"

تنتهي سعادة المرأة إذا كانت لا تستطيع أن تعتبر زوجها هو أفضل صديق.

ربما نحرص على اتساع مساحات بيوتنا لسبيين. الأول هو ضرورة تقسيم البيت إلى ثلاثة أقسام وفق ما يفرضه النظام الاجتماعي على كل أسرة كبيرة أو صغيرة. أو يكون لقسم الأول والأفضل من حيث المساحة والأثاث والتهوية والإنارة عند مدخل البيت وهذا القسم للرجال "بالتأكيد" ودون مناقشة، وإلا فلن نكون سعوديون. وأقصد بـ للرجال هذه أنه للضيوف من الرجال لكن يسمى هذا القسم قسم الرجال. أما القسم الثاني فمخصص للزائرات من النساء وعادة يكون أقل من مستوى قسم الرجال في كل ما ذكر عند الطبقة المتوسطة - أما الطبقة الغنية فقد يتساوى القسمان. والقسم الثالث هو قسم الأسرة التي تسكن البيت بكل أفرادها. الأم والأب والأولاد وربما يكون معهم جد أو جدة. ويتم إغلاق القسمين السابقين في انتظار زائر ما يوماً ما. ويحتوي كل قسم على حجرتين ودورة مياه بحيث تكون حجرة لاستقبال الضيوف وتسمى مجلس أو صالون والحجرة الأخرى لطعام الضيوف وتسمى مقلط أو غرفة سفرة. كل تلك الأربع حجرات في القسمين تبقى نظيفة ومغلقة إلى حين زيارة أحد.

السبب الثاني الذي جعل الأسرة بحاجة إلى اتساع البيوت بخلاف عدد أفرادها، وبخلاف ضرورة إغلاق قسمين من البيت. هو بقاء النساء والأطفال في البيت معظم أيام الأسبوع إذ لا تتوافر

وسائل للترفيه فيما عدا التسوق. والتسوق يعني مزيداً من الإرهاق لميزانية الأسرة. لذا فإن اتساع المنزل ولو قليلاً يساعد على احتمال البقاء داخله أوقات طويلة ومتواصلة وعدم الخروج منه إلا إلى منزل آخر لزيارة قريبة أو جارة أو صديقة. وهذا مختلف تماماً عما في الدول الأخرى حتى العربية منها. وتعرف بعض الأسر السعودية الفرق أثناء سفرها للسياحة.

إن تقسيم البيت بهذا الشكل يعني أن يتطلب مزيداً من العناية والخدمة مما يفوق قدرة سيدة واحدة لها أطفال حتى وإن لم يكن لها عمل. مع الأخذ في الحسبان بأن الرجل في مجتمعنا ليس شريكاً في العمل المنزلي على الإطلاق. فإن تفضل وقام بإعداد الطعام مرة، فمن باب التحريب أو التسلية وليس من باب المشاركة وتقسيم العمل بين الزوجين والأبناء. إن وضعاً كهذا سيتطلب استقدام خادمة تعين سيدة المنزل على كل هذه الأعباء التي ترايدت مع الوقت. بينما في الدول المتقدمة تكون المنازل أصغر بكثير في المساحة فليست هناك حاجة إلى كل هذه الأقسام المغلقة في البيت تحسباً وانتظاراً للضيف.

وقد يقول بعضهم - كانت جداتنا دون خادما ولم يشتركين من أعباء العمل المنزلي - هذا صحيح، لكن الفرق كبير في شكل ونوعية الحياة كلها. فالأطفال مثلاً لم يكونوا في البيوت بشكل دائم بل غالباً يكونون في الطرقات بين البيوت يلعبون، ولم يكن ذلك يشكل خطراً عليهم بسبب قلة السيارات وتعارف أعضاء المجتمع. والملابس ليست بذات الكثرة. بل لا تكاد تتجاوز الثوبين أو الثلاثة لكل فرد من أفراد الأسرة الصغار والكبار. والطعام ليس فيه كل هذا التشكيل والتنوع والتصنيف، وأدوات المطبخ لا تتجاوز عشر ما في المطابخ الآن من أدوات. والبيوت

أصغر في مساحتها وأبسط في أاثاتها وأسهل في تنظيفها. وبالتالي فإن العمل المنزلي غير مرهق بالدرجة الحالية. أما الآن فوجود الخادمة أصبح ضرورة في مثل هذه الحياة. وإلا فإن علينا أن نعيد النظر في شكل ونظام حياتنا كله. وشكل بيوتنا وحجمها. وعاداتنا وتقاليدنا في الاحتفاء بالضيوف والمبالغة في إكرامهم. وهذا غير وارد في المرحلة الحالية.

إن عادة إكرام الضيف التي يتفاخر بها الناس تحولت من إكرام له إلى إسراف لا يجوز أن يُسكت عنه من قبل المصلحين ورجال الدين. ففي الماضي عندما كانت الحياة تخلو من وجود المطاعم والفنادق والطائرات والسيارات. كان المسافر على الجمل يعاني الكثير من التعب في سفره. ثم لا يجد أين يأكل ويشرب إذا انتهى ما تزود به من طعام وماء. لهذا وجب إكرامه، وإلا فإنه ربما يموت جوعاً وعطشاً. فإذا ذبح المضيف شاةً. فلن يأكل الضيف فقط بل سيأكل أهل الحي كلهم وربما كل أهل القرية. فيشربون المرق. ثم يأكلون اللحم والشحم. ثم يستخرجون ما بداخل العظم ويمصونه مصاً. فلا يبقى مما يمكن أن يدخل جوف الإنسان من تلك الشاة شيئاً. وبعد ذلك يستفيدون من جلدها وصوفها.

أما اليوم فقد صار إكرام الضيف إسرافاً، ومبالغات في إظهار القدرة على التفنن في تشكيل الطعام، يدفع من أجلها فواتير ترهق المضيف، ثم لا يأكل الناس ربع ما يتم تقديمه!

هذا الشكل للبيوت وما تتضمنه من عادات وتقاليد مختلفة في مجتمعنا، والتي بسببها صار في كثير من البيوت خادمة. يضاف إلى ذلك شعور بعدم الإقبال على الحياة أو على الأقل شعور كثيرات بالتعاسة بمستويات متفاوتة فيما بينهن ولأسباب أخرى عديدة، صارت المرأة في مجتمعنا تميل إلى الكسل وقلة الحركة ولا ترى

كثيرات أن في ذلك كسلاً، بل تراه من النعم التي اختصها الله بها. وبهذا تحقق لها الكثير من وقت الفراغ الذي لا تجد له تصريفاً إلا من خلال البقاء لمتابعة التلفزيون أو زيارات الصديقات أو التسوق. وبهذا فإن المجتمع جعل الفرصة مواتية من أجل تفاقم المشكلات السلوكية والانحرافات الأخلاقية حتى وإن وظف لمنعها رجال يراقبون الناس ويقتحمون خصوصياتهم. (إن كثيراً من المشكلات الاجتماعية والانحرافات السلوكية والأفعال الإجرامية عند الجانحين والمجرمين مرتبط كثيراً بأوقات الفراغ ولكن ذلك لا يعني أن الزيادة في وقت الفراغ مسؤولة عن ارتكاب الجرائم بقدر ما يعني أن هذه الزيادة تهيئ مزيداً من الفرص لارتكاب السلوك المنحرف)⁽¹⁾.

فإذا كنا حقاً نريد أن نحمي بناتنا فإن من الأولى إيجاد القنوات المناسبة لاستثمار أوقات فراغهن. بما يعود عليهن بشكل خاص ومباشر بالمتعة الحقيقية والشعور بالرضا، والتي ستؤدي إلى فوائد كثيرة. ويحفظ للمجتمع بشكل عام استقراره وسعادة أعضائه.

هذا الفراغ، مضاف إليه وجود خادمة تلبى ما يطلب منها باستمرار، جعل بعض الـ "حريم" في أقسام الحرمك الموجودة في كل بيت (حتى وإن ظنّ البعض أنها أقسام قد زالت بزوال الاستعمار التركي) يتعاملن مع الخادمة بتعالي وقسوة معتقدات أن هذا الأسلوب يحولهن إلى أرسقراطيات لا تتساوى رؤوسهن برؤوس اللواتي يعملن على خدمتهن. ويعلم الناس الكثير عن المشكلات التي تقع فيها مستخدمات المنازل، وما يعانينه من ظلم وقسوة تصل أحياناً إلى

(1) مدخل إلى دراسة المجتمع السعودي. د. محمد إبراهيم السيف، ص 357.

التعذيب داخل البيوت، ربما تصبر عليها بعضهن عندما تتذكر أن هذا الوضع سينتهي بعد سنتين وليس أكثر. وقد رأيت بيوتنا تضع الخادمة فيها غطاء على وجهها لكي لا يراها ربّ الأسرة. أي أن غطاء الوجه يفرض عليها داخل المنزل ناهيك عن خارجه طوال مدة إقامتها في البلاد. ولا أدري كيف استطاعوا فهم التدين على هذا الوجه من القسوة والاضطهاد. وكنت أتمنى على من فرضت غطاء الوجه على خادمتها داخل منزلها أن تضع هي الغطاء لعدة ساعات متواصلة ثم تقوم بالأعمال المرهقة وتجرب الاحتناق الذي قد ينهي حياة تلك المسكينة. وربما يكون ربّ الأسرة هو من فرض غطاء الوجه على الخادمة، وأرى أن عليه هو أيضاً أن يجرب يوماً واحداً الحركة داخل المنزل والعمل فيه وهو يسدل غطاءً أسود على وجهه.

تعليم البنات

مهمة التدريس تختلف عن نقل للمعلومات.
التدريس يعني أن تكون المدرّسة قادرة على
خلق إمكانات تكوين وإنتاج المعرفة وتأسيس
العقلية العلمية.

قبل سنوات طويلة، ومنذ أن كنت طالبة في التعليم العام كنت أسمى تعليم البنات فأقول "تعليم البنات" أو "تعذيب البنات" ولم أفعل هذا تجنياً أو افتراءً. بل كنت أرى بتجرد ما لا تراه إلا القليلات لعدم قدرتهن على التجرد. فقد تعذبت المرأة وتعلّبت إلى أن صارت ترى أن الوضع القائم هو الطبيعي. ولا تعلم بعضهن بوجود تعامل إنساني أفضل مما نحن عليه. إن التجرد من كل ما تعلمنا أنه هو الصواب لنتمكن من النظر إليه بموضوعية، ثم الحكم عليه مسألة تحتاج من القوة ما لا يستطيعه كل إنسان.

(إن الجهل المتوهم علماً هو من أقوى عوائق الحضارة وأشد موانع النهوض وهذا شأن معظم الناس في الكثير من المجتمعات، إنهم يتألفون مع الجهل بحسبانه هو الحق المحض وفي هذه الحالة لا يكون الإنسان جاهلاً فقط وإنما بينه وبين الحقائق حواجز نفسية مانعة تصده عن البحث وتمنعه من المراجعة وتقنعه بسلامة ما هو مستقر في ذهنه. إن الإشكال ليس في وجود الجهل وإنما في توهمه علماً، لأن الذي يحسب جهله علماً لا يمكن أن يعمل على تجاوز الجهل بل يواصل التمسك به والتعصب له، وبذلك فإن الجهل

المركب من أكبر المصائب البشرية وأشدّها تبديداً للطاقة الإنسانية وأكثرها خلقاً لسوء الفهم وللعداوات والحروب والصراعات الفردية والجماعية فالجهل المركب ليس عرضاً عابراً بخلاف ما يعتقد غالب الناس وإنما هو بنية شديدة الصلابة والرسوخ والتآزر. إن الناس في الغالب يتعاملون مع الجهل المركب بوصفه مشكلة فردية نادرة تعتري بعض الناس في بعض الحالات بينما الجهل المركب هو الأصل في التركيبات الثقافية التي لم تخضع للفحص والمراجعة، وهنا فرق جذري بين أن يتم التعامل معه كعرض فردي نادر وعابر وبين أن ينظر إليه نظرة واقعية تظهره كمعضلة إنسانية كبرى وعمامة⁽¹⁾.

بعد أن قرأت النص السابق وغيره من النصوص التي تتناول قدرة الإنسان على التعلم وتغيير واقعه بناء على ما يملكه من وعي، تساءلت: كيف يمكن لنا - كمعلمات ومعلمين، على افتراض وجود عدد كافٍ راغب في إحداث التغيير - أن نؤسس لتفكير علمي يهتم بالمعرفة ويدرب المتعلمات والمتعلمين على النظرة الموضوعية للأشياء. ويعطي شعوراً بالاستمتاع بالعلم في ظل مجتمع بمؤسساته المختلفة يتجه كل الاتجاه في تفسير واقعه الذي يعيشه وهزائمه التي يتكبدها وإحباطاته التي يعانيتها ومشكلاته المختلفة على شتى الأصعدة والظواهر الطبيعية على كوكب الأرض وفي السماء، أستطيع أن أقول - يفسر كامل ما في الحياة - تفسيرات ميتافيزيقية. ولا تقتصر تلك التفسيرات على الثقافة الشعبية الشفوية المتداولة بين الناس، بل تتمدد في اتجاهات عديدة فتدخل فيما ما يؤلف ويبيع على أرفف المكتبات ويقدم في وسائل

(1) إبراهيم البليهي/من مقال بنية الجهل/جريدة الرياض في 2002/07

الإعلام المرئية والمسموعة. وفي الجرائد والمجلات ثم يتغلغل بعد هذا كله في التعليم ذاته حتى يكتسح مساحاته ولا يُبقي مساحة للعلم والموضوعية في حياة المتعلمات والمتعلمين؟؟

ولهذا ليس غريباً - في وعي المجتمع - أن يُنشر كتاب عن لقاء صحفي مع جني وليس غريباً ولا منافياً للعلم أيضاً تداول كتب أخرى وبرامج في محطات عديدة عن السحر والشعوذات والجن والعفاريت وقدراتهم العجيبة ودخولهم وخروجهم في أجساد السذج والبسطاء⁽¹⁾. وأن تركز كثير من الأحداث في حياة العامة على ما يروونه في أحلامهم معتبرين تلك الأحلام رؤى تمسك من السماء وتدلهم على ما يجب وما لا يجب، وبعدها يتصلون بمن يفسر أحلامهم لتسير حياتهم بعد ذلك وفق تفسيرات حلم ربما رآه النائم إثر تناوله وجبة دسمة. وليس غريباً ولا منافياً للعلم أن يمتزج الطب الحديث بالطب الشعبي، فترى المرضى يخرجون من المستشفيات محملين بالأدوية ويتجهون إلى من يكوي أجسادهم بأسياخ الحديد الحامية أو يعطيهم أنواعاً من الأعشاب كعقاقير بديلة. وليس غريباً ولا منافياً للعلم في وعي المعلمات والإداريات وإدارات الإشراف وإدارات التعليم أن تعمل بشكل ارتجالي وليس بشكل احترافي في أهم مجالات العمل - في اعتقادي - وهو مجال التعليم والتربية داخل المدرسة.

(1) لا أدري لماذا لم نستعن بالجن والعفاريت لتحرير القدس مع أننا كمجتمع نملك أكبر عدد في العالم من القادرين على السيطرة على الجن وإخراجهم من أجساد البشر. ولا أدري أيضاً لماذا لا يدخل الجن أجساد جميلات السينما في هوليوود، ويهيم الجن عشقاً في ساذجة بسيطة تكاد لا تعرف من الدنيا إلا منزل زوجها ووالدها.

كيف يمكن لنا - كمعلمات⁽²⁾ ومعلمين - أن نؤسس لتفكير علمي والمجتمع هو الذي يؤثر في المدرسة وليست المدرسة هي التي تؤثر في المجتمع. فبدلاً من أن ينتشر العلم لينهض بالإنسان عن طريق المؤسسات التعليمية. تنتشر الخزعات داخل المدرسة وتعتمد العملية التعليمية والتربوية على شخصيات تداخل في وعيها الواقع مع الخيال والعلم مع الخرافة والطبيعي مع الغيبي.

إن العجز العلمي والعقلاني، والشعور بالضعف في مستويات عديدة مقارنة بما لدى الدول المتقدمة من قوة وسلطان بالعلم هو الذي يجعل الإنسان في البيئات المتخلفة يهرول إلى الماضي لعله يبني به الحاضر. فاستمر يتراجع ويتراجع بحثاً بين ثنايا الكتب القديمة عن بطولاته. وربما لم يستحني شيء للبدء في هذا الكتاب كما استحنتي الكتابة عن تعليم البنات. لكنني حين بدأت الكتابة عن التعليم وجدت أن السير في مزرعة مليئة بالأشواك أقل إيلاً مما أشعر به تجاه ما أراه من أساليب عديدة داخل أسوار تعليم البنات والذي قضيت فيه إلى الآن عشرين عاماً متواصلة. أساليب قلبت

(2) أصرت إحدى معلمات المواد العلمية على أن ما تعانیه من حساسية بسبب الطباشير في يديها ليس إلا عين حاسدة أصابتها عندما وضعت الحناء على يديها ذات سنة بعد تخرجها وبدء التحاقها بالتدريس. وبرغم تأكدي لها أن أمراض الجلد كثيرة جداً قد تتجاوز العشرة آلاف نوع وكثير منها حتى الآن ليس لها إلا المسكنات، ظلت تؤكد أن حساسية جلدها سببها الحسد ولا شيء آخر. وأرى أن ثقتها بأن ما تعانیه من حساسية في الجلد سببه الحسد هو أشبه بالبحث عن قيمة لذاتها أو أهمية. إذ إن الإصرار على الإصابة بالعين تعني أن في الحسودة من الجمال أو الصفات الحميدة ما يجعل الأخرى يتحسدن عليها وهذا في حد ذاته مديح غير معلن وغير مباشر حصلت عليه بسبب تصديق الجميع وتصديقها هي نفسها بأن سبب الحساسية عين من لم تذكر الله.

النتائج فبدلاً من تكوين عقليات علمية⁽¹⁾ تكونت عقول دوغمائية.

وتتعدد تلك الأساليب فمنها: أساليب قمعية تتسلط فيها النساء على النساء وتدخل ضمن ما يسمى عند كثيرات بـ حفظ النظام، وحفظ الدين، وحفظ الأخلاق والأدب. وأساليب تعليمية تبقي عقول الطالبات ضمن مستويات الحفظ واسترجاع ما يُحفظ. وتبعد العقل عن النقد والإبداع والتفكير العلمي. وأساليب ترهيبية وإرهابية تبدأ بتمثيل تغسيل الموتى⁽²⁾ وتكفينهم أمام الطالبات مروراً بذكر الإسرائيليات وحكايات عذاب القبر وتنتهي بقوائم المحرمات التي تتجدد مع ظهور أي منتج في الأسواق أو أي كتاب أو فكرة. ثم بتكفير كل الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة والتأكيد على ضلال الجميع فيما عدا من كان مطابقاً لنا قولاً وعملاً. وانتهاءً بتحريم وضع طلاء الأظافر وتحريم كشف الوجه وتحريم أنواع من الملابس...

(1) من ضمن خصائص العقلية العلمية الموضوعية والقدرة على التجرد أثناء دراسة الأشياء والحكم عليها والقدرة على إدراك العلاقات بين الأسباب والمسببات المباشرة وغير المباشرة.

(2) تغسيل الموتى إما أن يكون تمثيلاً أمام الطالبات. وإما أن يتم عن طريق عرض لأشرطة الفيديو وإما أن يكون ضمن محاضرة يقال عنها دينية. استمر الأمر لسنوات دون أن يمنع... وأذكر عندما كنت طالبة أن مغسلة للموتى جاءت شخصياً إلى المدرسة لتلقي علينا محاضرتها. وكانت سيدة فيما أظنها أمية لا تقرأ ولا تكتب روت الكثير من الخزعبلات عن حركة الميتات وعذابهن بين يديها وهي تغسلهن قبل أن يصلن إلى القبر وكان هذا سبباً في بكاء كثير من الطالبات وخوفهن وإغماء بعضهن - أتساءل الآن كيف يسمح بمثل هذا الافتراء على الله والقول إنه يعذب الميتة حتى قبل أن تدخل قبرها. فما بالنا إن تساءلنا عن روايات عذاب القبر ذاتها وقلنا كيف يكون العذاب قبل يوم الحساب؟ ولا زالت تلك الخزعبلات عن مشاهدة الموتى يعذبون متداولة إلى اليوم وإن كان غسيل الموتى قد توقف فلا زال غسيل الأدمغة مستمراً.

إلخ من قائمة المحرمات التي لا تتوقف المعلمات من التذكير بها
والتهديد بدخول النار لمن خالفت ما قلنه وقامت بما ذكرن تحريمه.
ووسط كل هذا لا بد أن أشعر بالشلل التام إزاء أي محاولة
للإصلاح. ولعلي هنا أعود إلى بدايات تعليم المرأة وكيف قاومه
المجتمع بشراسة تشبه مقاومة القرشيين لتوحيد الله وإخلاصهم
العجيب لأوثانهم. ففي مقال نشرته جريدة قریش بعنوان (لنتقف
الفتاة دينياً أو لتبق في البيت) في يوم 12/7/1379 والمقال مطبوع
في كتاب بعنوان نحو مجتمع أفضل قرأت النص التالي (موضوع
أوجهه للمسؤولين، وقد أصبح تعليم البنات عندنا اليوم حقيقة
ماثلة.. وأعلن رسمياً عن قرب افتتاح مدارس حكومية للبنات...
إلى أن يقول: لا يحسن إطلاقاً أن نخلط لها ما يتعلمه الجنس
الآخر... إلى أن يقول: هذا كله لا يتحقق إلا بالتهذيب الديني
الشامل، أي أن يكون تعليم المرأة دينياً لا عقلياً. ولهذا كررنا في
تركيز عليه)⁽¹⁾.

ومن خلال تاريخ المقال ابتداءً، نعرف أن عام 1379 على
نهاياته عندما أعلن رسمياً قرب افتتاح، وليس افتتاح، قرب افتتاح
مدارس حكومية لتعليم البنات. وكل تعليم سبق هذا التاريخ للبنات
يكون ضمن التعليم المنزلي أو الأهلي. أما الملاحظة الثانية فهي في
عنوان المقال حيث يأمر الكاتب بتعليم البنات دينياً فقط وأن لا يتعلم
عقلها شيئاً أبداً. وإلا فلتبق في البيت. مع العلم بأن الكاتب يُعدّ من
المؤيدين لفتح المدارس ولا يحسب في ذلك التاريخ من ضمن تيار
المتشددین ضد المرأة وتعليمها. فكيف لو تمّ التعرف على رأي
المعارضين والمتشددین؟

(1) نحو مجتمع أفضل، عبد السلام هاشم حافظ، ص 51.

ويؤكد الكاتب أيضاً أنه لا يحسن أن تدرس الفتاة ما يدرسه الولد من مواد متنوعة بالله.. يخافون أن يكون لها عقل واع ينقض ما يرددونه من أن عقلها أقل من عقل الرجل. أي.. يصرون على منع العلم من الوصول إلى عقلها لكي يتمكنوا من اتهامها بأن عقلها أقل من الرجل. وهذا - في رأبي - يعني أن ما وصلنا إليه الآن بعد أن كانت الجرائد الحكومية تنشر مقالاتها عن رفض تعليم البنات إلا بشرط أن تدرس الفتاة فقط مواد الدين هذا إن.. إن سُمح بتعليم الفتاة.. يعد تحطيماً لكثير من القيود التي كانت مفروضة على النساء في كل أنحاء البلاد. وهذا يعني أيضاً أن النساء يعانين ما يعانينه الآن برغم ما تحطم من سالف القيود التي كبلت المعاصم.

ونلاحظ أن الكاتب يكرر في إصرار شديد على أن يكون تعليمها دينياً لا عقلياً. ثم يكتب بعد أن منع عن عقلها العلم أن **تفكيرها ضعيف**. يقول في ذات الكتاب ص 59 تحت عنوان **تطلعات نحو مجتمع أفضل (فالمرأة.. إنسان ضعيف وقوي في آن.. ضعفاً في تفكيرها** وفي تقبلها السريع للموجات المرسله إليها والذبذبات المعنية بها).

ضعفها في تفكيرها!!.. وماذا أيضاً؟ وفي تقبلها السريع للموجات المرسله إليها والذبذبات المعنية بها. ثم لم يفصح الكاتب عن أي ذبذبات وموجات يتحدث. ولكن أظنه يقصد الموضه التي طالب بتحطيّمها في مقال أتيت على بعض منه في صفحات أخرى. الجدير ذكره هنا أن هذه النظرة إلى عقل المرأة لا زالت مستمرة إلى اليوم وستبقى لعصور قادمة ما لم نثبت عكس ما يظنون. والمنادون بعدم مشاركتها الحقيقية في واقع الحياة ينهجون نهج أسلافهم الذين قالوا بعدم تعليمها غير مواد الدين إن كان هناك إصرار على تعليمها. خوفاً من نمو وعيها واتساع مداركها. لذات

السبب نراهم الآن يؤكدون على ضرورة بقائها في البيت لأن في وجودها فاعلة داخل المجتمع دليل على أن "تفكيرها ليس ضعيفاً" كما يقولون وستحصل بذلك على فرصة لنمو هذا العقل الذي يصرون على سجنه في محاولات مستميتة ليقى دون نمو مدعين أن هذه الحال هي بسبب ما فعله الله تعالى بالمرأة وليس ما فعلوه هم.

أعود وأقول إن الكاتب لم يكن من المتزمتين في ذلك الزمن. بل كان يطرح رؤيته حول تعليم المرأة ويقنع بها الذين رفضوا كل الرفض تعليمها. وفي الكتاب حوارات طويلة دارت بينه وبين آخرين يرون أن فتح مدارس البنات سيجلب الدمار للمجتمع المحافظ الملائكي الطهر. ولا زالت النظرة للمجتمع على أنه طاهر ونقي قائمة في أذهان الكثيرين. وكلما سمعوا بجادث هنا أو أمر هناك سارعوا إلى التأكيد بأن الأخطاء والخطايا التي تحدث لم تكن لولا وجود الدش أو الفيديو أو ربما جوال الكاميرا.

البدايات التي انطلق منها تعليم المرأة. هو فكر أغلبية الذين وضعوا المناهج والذين يسيطرون بتعاليمهم وكتبهم إلى الآن على التعليم. وعندما أفف في الطابور كل صباح داخل أسوار المدرسة أتذكر أولئك الرجال وهذا الإرث الرهيب الذي أورثوه لنا كمتعلمات ومعلمات. فالطابور يعني بدء اليوم الدراسي والطابور يعني أن أتذكر كل ما خططوا له ونجحوا فيه ضد النساء.

الطابور يعني أن نكون ضمن نشاط لا صفى داخل المنهج المدرسي. والطابور يحوي تفتيش الطالبات. ويحوي إذاعة مدرسية. ويحوي تهديدات مستمرة.

إن على المعلمات في الطابور الصباحي مراقبة الطالبات للتأكد من شكل المريول وشكل الشعر وشكل العين وشكل الحجاب وشكل الحذاء. والشكل في كل شيء يعتلي قائمة أولويات التربية.

بل أكاد أجزم أن الشكل هو البند الوحيد في القائمة. وهذا الشكل يخضع لمدى تشدد المديرية أو مرونتها. بعضهن تمنع منعاً تاماً قص الشعر إلى مستوى معين. وعلى كل ذوات الشعر القصير من الطالبات لبس "الشيلة" داخل المدرسة لتخفي بها شعرها القصير. أما المخالفة في شكل المايول أو لبس قطع أخرى فووقه مختلفة اللون أو عدسات العين الملونة أو بكالات وربطات للشعر ملونة فإنها في كثير من المدارس مخالفة تتطلب أشد العقوبة وويل للمرأة من المرأة. لقد رباها الرجل لتكون عيناً له وحارساً على ما أنتج من تمييز ضدها جعله يتغلغل في تلافيف مخها. فلا تفكر النساء فيما يقمن به. بل يؤدينه بتفان وإخلاص بطريقة آلية يومية وقد ألغين عقولهن تماماً واستسلمن للإرث الرهيب.

إن انشغال المعلمات بالشكليات يعني إهدار الكثير من الوقت خارج مهام التعليم ويعني تعزيز روح التسلط والقمع. وانشغال الطالبات بما ينقسم إلى قسمين الأول قسم اللواتي لا يأتين بالمخالفات فينشغلن بتجنبها والخوف من العقوبات التي تترتب على الوقوع فيها. والقسم الثاني قسم اللواتي يقمن بالمخالفات والإصرار على اقترافها في تحدٍّ ومجاهرة. هذا الانشغال بهذا الشكل أو ذاك يعني استهلاك طاقات الطالبات والمعلمات فيما لا يفيد. بل يضر أشد الضرر. ويأتي بنتائج عكسية. فبدلاً من استهلاك الطاقات والوقت في العلم والتعلم ووضع الخطط لرفع المستوى العلمي - وليس مستوى النتائج - يستهلك جلّ الوقت في متابعة هذه ومعاينة تلك.

ويجب أن ندرك كمسؤولات ومسؤولين عن التعليم أن مستوى النتائج لا يعني بالضرورة مستوى العلم والتعلم ونوعيته. فالامتحان يقيس الحفظ والتذكر. والامتحان الذي يقيس الحفظ والتذكر يقيس حفظ

وتذكر عدد من الصفحات التي تمّ تحديدها وتلخيصها ومراجعتها.
أي أن التعليم يركز على الحفظ والتذكر في مجمله.

وإذا قلنا إن الطالبة لا تجد مكاناً للترويح عن النفس مع وجود بعض الضغوط في المنزل بشكل أو بآخر يضاف إليها ما تجده في المدرسة من ملاحظات وتنبهات على أقل تقدير حول أشياء لا قيمة لها فإنها بهذا تُدفع دفعاً إلى الخطأ أو إلى مشاكل نفسية قد تظهر في حينها وقد لا تظهر إلا بعد حين.

المدارس لم تنشأ ولم تصرف المليارات على التعليم إلا من أجل التربية والتعليم. والتربية تعني أن تكون المدرسة بكل أعضائها قدرات على الوصول بالطالبة إلى التوازن النفسي بحيث تكون إنسانة طبيعية سوية.

فإذا كان التعليم في بلد ما يجوي ضمن أدائه أساليب الترهيب أضعاف احتوائه على أساليب الترغيب. ويجيد القمع أكثر من قدرته على إرساء معنى التسامح. ويتعامل بقسوة أكثر من فهمه لمعنى المرونة. وإذا كان يجوي ضمن أدائه اليومي التحريض على تغيب العقل وجمود الفكر بدلاً من الإيمان بالعلم والتسليم له، فأبي نهضة ننتظر؟

إذا كان الخير في أول الزمان وكلما مرّ قرن كان أسوأ من القرن الذي يليه والصلاح والحق والصدق وكل الصفات الحميدة في قرون سلفت وليس في زماننا إلا الفسق والضياع والبعد عن الجادة. إذا كان هذا كله من ضمن الخطوط العريضة التي انطلق منها فكر معد المناهج للطلّابات فكيف يمكن أن تنطلق عقول المتعلمات إلى الأمام وليس إلى الخلف؟

إن الإنسان إنسان لأن له عقلاً قادراً على التفكير. ويختلف الناس من مكان إلى آخر حسب مستوى تفكيرهم. فالفرق بين ما

كان عليه الناس في الجاهلية وما صاروا عليه عند ظهور الإسلام هو بسبب العقل وما حواه من فكر جديد أحدثه نزول لוחي على محمد صلى الله عليه وسلم. فالجاهلي الذي عبد الأوثان تجاهل عقله ولم يتعلم ولم يتأمل فاستمر يقدر ما هو عليه. ولو أنه يملك بعض الشجاعة لتمكن من مقاومة ما اعتاد عليه وما وجد آباءه يفعلونه. والفرق الآن بين الدول المتقدمة ودول العالم الثالث هو في سيطرة العقل أو تغييبه. إذ لا هزيمة حقيقية في أي مجال من مجالات الحياة في غياب العقل، أو في حال تحجره وجموده وإصرار الناس على الثبات على ما هم عليه مهما كان فإذا كانت المدرسة لا تستطيع خلق العقل الناقد المبدع لدى الطالبة فسنظل كما نحن إن لم نتراجع.

نستطيع أن نقرر أن المسافة الشاسعة جداً في زمننا هذا بيننا وبين الدول التي انطلقت حتى تجاوزت فضاء الأرض إلى فضاءات عديدة في السماوات البعيدة سببها تحرر العقل من ركوده وتحجره. أما عدم انطلاقنا كما فعلت الدول المتقدمة فسيببه أيضاً العقل الذي تجمد وثبت على ما لديه. ثم يصير هذا العقل على أنه يملك الحقيقة المطلقة.

وإذا كنا - وعلى مستويات مختلفة - لا نزال نفسر الظواهر الطبيعية على الأرض تفسيرات ميتافيزيقية تناصر فكرة نبحت عن تأييد لها بكل وسيلة فأبي علم يمكن أن يتحرر به العقل.

وكما ذكرت في مقدمة الكتاب بأني لا أتحدث عن نخب معينة بل أتناول امرأة في الطبقة المتوسطة التي بقيت حتى يومنا هذا محتفظة بتبعيتها الكاملة للرجل وظلت في سجنها ليس الاجتماعي فقط، بل أستطيع أن أقول إنه سجن رسمي إذ إنها حتى عند تعاملها مع المؤسسات الرسمية للدولة لا يسمح لها التعامل إلا من خلال وسيط يشترط أن يكون ذكراً. ذكراً.. ولا يهم ما بعد ذلك ما دام بالغاً.

أي أن ابن أستاذة جامعية تحمل شهادات للدكتوراه في تخصصات عديدة لم يتجاوز العشرين من عمره يجب أن يوافق على بعض معاملاتها الرسمية أمام مؤسسات الدولة. فما بالنا بسيدة بسيطة ضمن أسرة متشددة والأسرة من قبيلة والقبيلة ضمن مجتمع له سلطته الرهيبية على كل فرد فيه؟ لقد بقيت المرأة معزولة طوال مراحل النهضة الحديثة، لتكون فقط مصدراً للاستنزاف الاقتصادي وموضوعاً تتجادل حوله التيارات المختلفة.

إن تعليم النساء في بلادنا ووفق ما خطط له القائمون عليه منذ نشأته جاء ليضعف المسافة بين المرأة وبين وطنها الذي تعيش على أرضه ويزيد من اغترابها بين ذويها. إذ كان من المفترض أن يكون التعليم وسيلة لتخفيف ضغط العادات والتقاليد المتعلقة بالمرأة والتي حكمت على المرأة بالبقاء خلف أسوار خاصة بها في المجتمع. ولكن ما حدث هو أن مؤسسات تعليم البنات بكثير من رجالهن كمسؤولين عن إنشائها وإدارتها. وبمؤلفاتهم التي فرضوا تدريسها على الطالبات وتعاميمهم التي التزمت النساء بتنفيذها بحذافيرها كانوا بكل هذا وسيلة لتحويل العادات والتقاليد إلى قوانين رسمية يجب على جميع العاملات والطالبات تنفيذها بدقة. وتعرض كل من لم تلتزم بتلك العادات التي أصبحت رسمية إلى عقوبات تتدرج حسب أهمية العادة الرسمية في نظر المؤسسة التعليمية والقائمين عليها. عدا ما تقدمه كتب الفقه للطالبات عن العلاقات الزوجية والتي تؤكد فيها تلك الكتب على مكانة الرجل التي تصل حد تقديس والاقتراب من السجود له. وتبالغ ذات الكتب في الاستهانة بمكانة المرأة وعقلها.

إضافة إلى ما فات أقول: إن تعليم المرأة بوضعه القائم الآن يجعل كل متعلمة قادرة على القراءة ولكن لا يجعلها قارئة - فإذا كانت

الأمية هي عدم إجادة القراءة والكتابة فإن كثيرات ممن تعلمن في مدارس تعليم البنات تمّ محو أميتهن. - أوكد على أنهن كثيرات. وليس جميعهن.

إن من لا تقرأ لن تنمو لديها ملكة التحليل والتقييم. وبالتالي فإنها سوف تسلم بما يقال لها تسليماً. والحديث عن عدم القراءة في الشرق كله ليس بجديد. فكثير من الدراسات في تناول الجميع تحدد بوضوح عدد الساعات التي يقضيها الإنسان العربي في القراءة خلال العام الواحد مقارنة مع الإنسان في العالم الأول.

وإذا كانت مئات من المؤلفات القيمة تُمنع من الطبع والنشر داخل البلاد. ومئات أخرى لا يسمح لها بالدخول. مقابل آلاف الكتب والمطويات والكتيبات والأشرطة التي يفسح المجال لصدورها والتي ليس فيها سوى محاربة العلم والتسويق للجهل والتكفير والتمييز العنصري وتمجيد الماضي وشتيم الحاضر وما فيه ومن فيه. كتب تعادي العقل وتنشر الخرافات ولا تقرأ بعلم ولا بعقل غير الذي هي عليه. بحيث تصبح الخرافة هي التفسير الوحيد لما يراه الإنسان حوله. كيف يمكننا بعد هذا أن نتمكن من جعل المجتمع بعيداً عن التيارات الهدامة والتيارات التكفيرية؟ بل كيف يمكننا أن نجعل الإنسان متعلماً بحسب مفهوم التعلم في هذا العصر!

أما طبيعة العمل التربوي التعليمي ففي كثير من المدارس والإدارات الإشرافية تنغمس الموظفة - مشرفة أو مديرة أو مساعدة - في روتين يومي يتكرر على مدار أيام السنة. وتستهلك بيروقراطية النظام التعليمي جلّ وقت موظفات التعليم الإداريات إضافة إلى عدم قدرة بعضهن على فهم الدور الرئيسي المناط بهن كتربويات.

لقد تحول عمل كثير من المساعدات داخل المدارس إلى ما يشبه إلى حدّ كبير أعمال السكرتارية وموظفي الأرشيف معاً. وبهذا تسير

الموظفة في تعليم البنات - غالباً - في دوامة الدوام اليومي ذهاباً وإياباً لتنفيذ ما يردّها من تعاميم وما تحفظه من أنظمة داخل أسوار المدرسة بذات الطرائق وبنفس الأسلوب الذي يتكرر عاماً بعد عام. حتى المشكلات التي تلاحظها على الطالبات، تحلها بذات الطريقة دون اعتبار للاختلافات العديدة التي تميز كل طالبة عن الأخرى وكل مشكلة عن غيرها فكل المخالفات مخالفات وكل المقصرات مقصرات والضعيفات ضعيفات والمشاغبات مشاغبات. لا فرق بين ضعيفة وضعيفة أو مشاغبة ومشاغبة. على أن الشغب في عرف مدارس البنات يعني أن تكون البنت ذات نشاط وحركة تزيد قليلاً عن الغالبية الخاملة خمولاً أقرب إلى خمول المرضى والعجائز. ونلاحظ أن من تجاوز الستين في بلاد أخرى يتحرك بنشاط أكثر من طالبات المرحلة المتوسطة والثانوية في مدارس تعليم البنات. ثم تشتكي المدرسة من وجود ذوات الحركة الزائدة واللواتي تمّ تصنيفهن تحت اسم "مشاغبات"!

لا خطط للعلاج الفردي ولا قيمة لفرديّة كل حالة - على أن الفرديّة في المجتمع كله لا تظهر ولا يقيم لها مجتمعنا أي وزن بل على العكس. هناك معركة ضد فرديّة الإنسان - وإذا تتبعنا المخالفات التي تراها إدارات المدارس على طالباتها رأينا العجب عند كثيرات. فقد تعتبر الطالبة مخالفة إذا ارتدت فوق مريولها القاتم الكيب معطفاً زهري اللون أو أصفر أو أخضر. أما تقدير العقوبة التي ستقع على الطالبة فيختلف من مديرة إلى أخرى. وقد تكون عقوبتها أشد أضعافاً مضاعفة في حال وضعت بعض مساحيق الزينة على وجهها. على اعتبار أن المدرسة مكان للعلم. والعلم يتعارض مع التأنق فيما يزعمن. وعلى الطالبة أن تكون كئيبة ذات مظهر يخلو تماماً من الاهتمام بالنفس والأناقة لتمكّن من حضور المدرسة. ويمكن هنا

لكل من قرأ المقالات القديمة أن يدرك كيف صار التزير حتى في المجتمعات النسائية المغلقة حراماً.

افتعال للمواجهات بين الإدارات والطالبات والجهود المبذولة من قبل كثير من المسؤولات للمحافظة على شكليات لا قيمة لها في التربية والتعليم إلا من حيث كونها عوامل لتدمير نفسية الطالبة وقمعها وقلب الأولويات في عقلها يعني أنه بدلاً من أن تهتم المدرسة بعقل الطالبة الذي يجب أن يكون أكثر وعياً ومرونة. تدرّبها على التسلط إن كانت الطالبة ذات شخصية قوية وذلك من خلال تسلطهن عليها كنماذج تحتذي بهن ولا تترك وجود غيرهن وغير أساليهن. أو أن تصبح خانعة يملؤها الانكسار وتفيض دموعها عند كل موقف.

ولا زلت أبحث ولا أعلم متى سأجد جواباً على سؤالتي الذي سألته قبل أكثر من خمس وعشرين سنة عندما كنت طالبة في التعليم العام. لماذا يجب أن ترتدي كطالبات هذه الألوان القائمة الحزينة التي لا تتناسب على كل حال مع ما يجب أن تكون عليه نفسيات فتيات في سن الطفولة والمراهقة؟ لماذا احتكر الرجل اللون الأبيض وفرض على النساء الألوان القائمة. ففي الشارع عليها أن تتسربل بالسواد من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها تحت الشمس الحارة وفي المدرسة لا يحق لها إلا أن ترتدي الرمادي أو الكحلي أو البني.

إن الطفلة ذات الست سنوات تبقى ست سنوات أخرى ترتدي اللون الرمادي بشكل يومي. ولا أدري أي عقل دبر هذه الجريمة التي استمرت منذ عقود من الزمن بحق الصغيرات وإلى اليوم. ثم ترتدي اللون الكحلي في المرحلة المتوسطة لثلاث سنوات متواصلة ثم اللون البني في المرحلة الثانوية. أي في مرحلة الاهتمام بالأناقة والترتيب والنظافة الشخصية والمظهر بشكل عام. هذه الألوان فرضت علينا

منذ أن بدأ التعليم وإلى اليوم. ولا زلنا كمعلمات وهيئة إدارية ننزل أشد العقوبة بمن خالفت هذا الزي الذي صارت بعضنا تظن أن مخالفته تخرج المخالفات عن حياض الدين.

في بعض مدن⁽¹⁾ المملكة ومنذ سنوات قليلة حطمت بعض مدارس تعليم البنات جزءاً من (التابو) الخاص بلون مرايل البنات فألبسنهن في المدارس الحكومية الألوان الزاهية وسمحن بدخول اللون الأبيض معها وعدلن وبدلن في شكل المريول ليناسب رغبة البنات الطبيعية في التألق ولو قليلاً. أيضاً حاولت المدارس الخاصة في أنحاء المملكة السماح ببعض الألوان لترتديها طالباتها. أما جلّ المدارس فبشكل رسمي يمنع منعاً باتاً ظهور الألوان.. أي لون سيجعل التي ترتديه معرضة للعقاب الشديد.

عندما كنت طالبة كان محرماً علينا لبس الأحذية الرياضية وأقول محرماً وليس ممنوعاً فقط. وذلك لأن لابستها في تلك السنوات تعتبر من المتشبهات بالرجال ولهذا فإنها تعاقب بالضرب في الطوابير من قبل المديرة شخصياً في بعض المدارس. الآن صار مسموحاً بها، بل ومرغوباً فيها من قبل الإدارة للطالبات. إذاً الذي تعاقب عليه طالبة يوماً ما قد يصبح مسموحاً فيما بعد. وليس هناك قاعدة محددة. فبعض الأشياء تزداد نظرة التشديد عليها وبعضها يمكن أن تجد الطالبات فيها بعض الانفراج. وفي النهاية تتشرب الطالبة حب التسلط على غيرها وتتعلم كيف تقمع المرأة المرأة لنظّل ندور في ذات الحلقة.

(1) مدينة جدة تجاوزت في بعض مدارسها هذه الألوان وسمح للطالبات بارتداء اللون الزهري والليموني والسماوي. كم هو محزن أن يكون أقصى طموح المراهقة أن تلبس لوناً آخر مع لون مريولها. وكم هو مؤلم أن أراها تعاقب أشد العقاب المنصوص عليه والمسموح به داخل أسوار المدارس لأنها ارتدت مع مريولها الكتيب ربطة عنق أو ربطة شعر زهرية اللون أو خضراء أو حمراء. يا لأم من يتأمل.

هذا عدا ما تقوم به المدرسة بشكل مؤسساتي من زرع للإقصاء، والتشدد الفقهي، وتأكيد على التصنيف الطائفي والمذهبي والفكري لدى الطالبات. وهذا يعني أن بعض مدارس تعليم البنات - بمعلماتها ومناهجها وأساليبها التعليمية والتربوية - تنتج هذا النوع من التطرف.

إن أغرب ما أراه في تعليمنا أن ترسل بعض مديرات المدارس أو المعلمات والمشرفات المنتميات لإدارة الإشراف التربوي. يرسلن بناقهن إلى المدارس الخاصة لحمايتهن من تسلط المعلمات أو الإدارة عليهن وليبعدهن عن التشدد الفقهي - قدر الإمكان - ثم لا يعملن من أجل الإصلاح داخل التعليم العام. بل لا يتوقفن هنّ عن ممارسة ما تعلمنه من أساليب غير تربوية. وصحيح أن الضرب ممنوع. لكن الإيذاء النفسي وعدم احترام الطالبة والتقليل من شأنها والتدخل في شؤونها الخاصة، والتلفظ عليها بما يسيء إليها يظل من ضمن الممارسات اليومية التي ألحظها باستمرار والتي لا ترى الكثيرات معي إنها تدخل ضمن ما يجب إصلاحه⁽¹⁾.

إن أولى المهام الإدارية - في نظري - التي يجب أن تضعها المديرية نصب عينها هي التخطيط. وهذا التخطيط يجب أن يكون هدفه دائماً الرقي بالمستوى التربوي والتعليمي للطالبة. مع وجود إدراك كامل أثناء وضع الخطط وتنفيذها بأن بيئة التعليم تؤثر في

(1) تبدأ بعض ألفاظ المعلمات للطالبة من عند - أنت غبية. مروراً بأسماء بعض الحيوانات كالكلاب والحمير، وألفاظ مثل - لست مرتبية أو أنت بنت شوارع. وتنتهي بـ (انقلعي من أمامي) هذا عند غضبها. أما إن كانت راضية فإن أسلوبها لا يتسم بالاحترام للطالبة. فلن تقول لها إذا طلبت منها شيئاً - إذا سمحت افعلني كذا - بل ستباشر بـ قولها - افعلني كذا وكذا. أعود وأؤكد أن هذا لا يشمل الجميع فهناك لا شك دائماً يوجد من يختلف ويتميز.

الطالبات إيجاباً أو سلباً حسب ما تقدمه المدرسة من أنشطة صفية ولا صفية لسدّ حاجات الطالبات ولتلبية رغباتهن. ويفترض بهذه البيئة التعليمية أن تكون مجالاً لاكتشاف مواهب الطالبات وإنضاجها بشكل صحيح إذ إن المواهب تكتشف في سن مبكرة من عمر الإنسان فإذا لم تتلقَ ما يكفي من الرعاية ماتت في مهدها. وما أكثر الموتى خلف الأسوار.

وقد آلمتني النتائج التي خرجت بها بعد إن أجابت طالبات المرحلة الثانوية على استبانة أعددتها بهدف معرفة مساحة الوقت الممكن للقراءة الحرة لديهن وكان من ضمن الأسئلة سؤال عن هواياتهن. فكتبت غالبية وصلت إلى 57.3% أن هوايتهن القراءة. وسؤال في ذات الاستبانة عن ماذا تقرأ الطالبة ولن. كشفت الإجابات عدم مصداقيتهن في موضوع الهواية التي ادعين إنها القراءة. وعندما ناقشت بعضهن شفويّاً عن سبب كتابة (لقراءة) كهواية لهن وهن لا يقرأن حتى الكتاب المدرسي إلا قبل الامتحان أجبن بأنهن احترن ماذا يخترن من هوايات، فهن بلا هوايات.

إذا.. لا تجدد الطالبة مجالاً لتكون لها هواية تمارسها. وحتى هواية الرسم عند من تجيده تتعرض حتى يومنا هذا إلى قطع رقاب المرسومين إن كانت ترسم حيوانات أو بشراً على اعتبار أن الرسم حرام ويصبح حلالاً أو مكروهاً فقط بتشويه اللوحة بوضع الخط على الرقبة المرسومة. هذا إذا لم تُمنع الطالبة من رسم ذوات الأرواح.

لقد تطوّر الفكر التربوي. وبتطوره أدرك التربويون أن بناء شخصية الطالبة وعقلها يتطلب تجاوز مرحلة السيطرة والتلقين إلى قيام الطالبة ذاتها بالبحث والقراءة والتدوين والملاحظة والتفكير وإجراء التجارب وكتابة التقارير والمساهمة في الأنشطة بشكل حقيقي. فهل هذا هو ما يحدث؟

لعلني أضرب مثلاً تتضح به الصورة التي أود إيضاها. والمثل هو عن ما تُعده كثير من المدارس من معارض سنوية داخل المدرسة تشترك لإعدادة وتنظيمه عدد من المعلمات والطالبات وكثير من الخطاطين والرسامين والخياطين. حيث ترسل إليهم الأدوات ويقومون هم بإعداد اللوحات والأشكال حسب المطلوب مع التأكيد على الخطاط أو الرسام الذي أعد العمل المطلوب مقابل مبلغ معين أن يكتب في أسفل اللوحة (إعداد الطالبة فلانة وإشراف المعلمة علانة). ولا بأس من حضور مدير التعليم أو من يقوم مقامه لافتتاح المعرض عصرًا بعد خروج الطالبات أو ربما يكتفي بأن تأتي بعض المشرفات صباحاً فيمتدحن هذا العمل. وقد تحضر أمهات الطالبات فيشعرن بالزهو عند رؤية أسماء بناتهن في أسفل اللوحات التي أعدها بعض العمال في المحلات الخاصة بمثل هذا العمل.

الزائرات الرسميات أو الأمهات يتأملن الإبداع والابتكار وروعة التنفيذ ويشنين على المديرية لجهودها والمعلمات على ما بذلته من جهود أيضاً، ليصلن بالطالبات إلى هذا المستوى في مجال الأنشطة. ويسجلن إعجابهن في سجل الزيارات شاكرات ومقدرات. ولم يسجلن سطرًا واحداً لشكر المحلات التي رسم العاملون فيها وخططوا اللوحات وأعدوا المجسمات... إلخ.

كذلك يتم تزيين الفصول وفق رؤية هؤلاء الخطاطين. فتعلق اللوحات على الحائط بعد أن قام الخطاط الماهر بكتابة عدد كاف منها، تحوي الآيات والأحاديث وبعضاً من القوانين والقواعد من الكتب المدرسية. إضافة إلى الرسومات الجميلة التي لوفاها الرسام بمهارة. وبعد تعليقها في الفصول يتم ترشيح الفصل الفائز ضمن مسابقات تنظمها الإدارة المدرسية ويتم فيها فوز الفصل الأجل من بين فصول المدرسة. والحقيقة أن الذي فاز هو الخطاط والرسام وليس

لطالبات ذلك الفصل مجهود يذكر في جمال اللوحات المعلقة في فصلهن. كذلك الحال بالنسبة لجدران المدرسة وممراتها.

وكنت قد اقترحت منذ زمن أن يخرج أي فصل من المنافسة طالما لم تعد طالباته بأنفسهن اللوحات المعلقة على جدرانها. ولن أطيل هنا في شرح ما لهذا العمل من آثار مفيدة للطالبة إن نفذته بنفسها وما له من آثار سلبية إن نفذه غيرها وفازت هي، أقلها أن تتعلم الكذب العمد وأن تنسب أشياء غيرها لنفسها. ولنا أن نعرف الآن لماذا يقوم آخرون بإعداد البحوث والمشاريع الخاصة ببعض طالبات البكالوريوس ثم لا تتردد الطالبة من كتابة اسمها على العمل وتقديمه بعد ذلك إلى أستاذتها في الكلية.

الدور الإشرافي لإدارات الإشراف ومديرات المدارس قد يؤدي ما عليه إذا اهتم بتدريب المعلمات تدريباً حقيقياً ليصبحن قدرات على جعل الطالبة تنمو في مختلف نواحي شخصيتها إلى أقصى ما تمكنها قدراتها واستعداداتها في بيئتها الاجتماعية، بحيث تصبح قادرة على حل المشكلات التي تواجهها. وما أقصده بالمشكلات التي تواجهها الطالبة إما ما يكون ضمن المواد التي تدرسها وذلك عند عدم القدرة على القيام بالمهارات الأساسية المطلوبة لكل مادة. أو ضمن المدرسة في علاقاتها زميلاتها ومعلماتها أو ضمن أسرهما والمجتمع. إذا نجحت الإدارات الإشرافية في تدريب المعلمات تدريباً حقيقياً - وليس شكلياً كالمعتاد - فإن المعلمة المدربة تكون قادرة على الاهتمام بالنمو النفسي والمعرفي والاجتماعي لكل طالبة. وبهذا تكون الطالبة عضواً سعيداً ومفيداً لنفسها وداخل مجتمعها.

ليست المدرسة بكل موظفاتنا ومناهجها فقط لحشو الرؤوس بالمعلومات وليست المدرسة مكان تأتي إليه الطالبة لجمع أكبر قدر

من الدرجات⁽¹⁾ فتعلن تفوقها على قريناتها. المدرسة إما أن تهتم بالطالبة فتكون نتيجة هذا الاهتمام بناء عقل ونفسية الطالبة بحيث يكون لدينا إنسانة سوية سعيدة طبيعية متفاعلة مع مجتمعها بشكل إيجابي. أو لا تهتم المدرسة - بكامل هيئتها الإدارية والتعليمية - بهذا أو لا تدرك كيف تهتم به وتكتفي بحشو رأس الطالبة بما في الكتاب المدرسي من معلومات - ويختلف حفظ المعلومات عن النمو المعرفي - مع التشديد عليها فيما يخص تحركها داخل المدرسة ولا يسمح لها بالجري أو اللعب المنظم... إلى آخر ما هنالك من مراقبات - بفتح القاف - وإجراءات شكلية لا تنتهي. تحول المبنى المدرسي إلى مكان لتأمل أشكال الطالبات من قبل المعلمات عوض عن تعليمهن. وتجعل كل طالبة في إحدى حالتين - أما أن تصبح في حالة تحدي ومواجهة وعناد أو حالة خوف وارتباك وتوتر وقلق مستمر.

المحصلة في الحالتين هي وجود أكثرية من الطالبات لا يتعاملن مع البيئة المدرسية كمكان تحبه الطالبة وتريد الحفاظ عليه. بل هو المكان المناسب لتدمير ما فيه من مرافق وتخريب ما يمكن تخريبه. ثم نتساءل كمعلمات وإداريات عن السبب الذي يجعل بناتنا لا يساهمن في الحفاظ على نظافة فناء المدرسة ولا يدركن معنى ترشيد استهلاك الماء والكهرباء ولا يحرصن على الطاولات والكراسي وكل ما يجذنه

(1) كثير من مديرات المدارس "وليس كلهن" يعنينهن من كامل العملية التعليمية درجات الطالبات. فتراها تحت المعلمات على أن تكون درجات الطالبات مرتفعة ولا يهم أن تتوافق الدرجات مع المستوى الحقيقي للطالبة. وهي تفعل هذا لأن عدد النجاحات في مدرستها وارتفاع نسبة الدرجات يعطي دلالة للمشرفات على حسن إدارتها. وترتفع درجات الطالبات فعلاً إذا تركزت الأسئلة على ما تم تحديده والتخطيط عليه في الكتاب ليتم حفظه ثم كتابته في ورقة الامتحان. وهذه كارثة أخرى من كوارث التعليم التي لست متفائلة بقرب نهايتها.

في مدرستهن. تنذر ونستغرب رميهن بقايا الطعام والأوراق على الأرض وكتابتهم على الطاولات وخروجهن من الفصل إلى المنزل والمكيفات والماوح والأنوار مفتوحة. ولم ندرك أننا نحن من فعل كل هذا.

التعليم لم يصل بعقول المتعلمات إلى المستوى الذي يجعل الواحدة منهن قادرة على رفض الخرافة حين تُقدم لها على أنها حقيقة علمية وفي ظني أن هناك سببين لهذا الأمر. أولهما أن كل ما يقدم لل طالبة على أنه من الدين يجب أن تقبله كما هو دون أي تمحيص أو تساؤل. وبالتالي صارت لا تفرق بين ما هو دين وما هو خرافة. أما السبب الثاني فهو أن طريقة التعليم والامتحانات في أغلبها تنصب على مستوى الحفظ والتذكر. ولعل ما يأتي يوضح ما أعنيه.

تقوم إدارة الإشراف بتكليف بعض المشرفات لإلقاء محاضرات دينية في المدارس أمام الطالبات والمعلمات والهيئة الإدارية. وقد حضرت - أنا - العديد منها في عدد من المدارس وفي هذه المحاضرات ما يعجب له العقلاء. فمثلاً في إحدى المحاضرات الدينية أكدت المحاضرة وهي تحمل شهادة البكالوريوس في الدراسات الإسلامية - للطالبات والمعلمات ورددت كلامها في عدد من المدارس أن شعر الحاجيين يمتد إلى المخ. ولهذا فإن من تنزعه تموت فور نزعها إياه.. لم تعترض أي واحدة أو تتساءل. المحاضرة استدركت الأمر وقالت إن الله يمهّل ولا يهمل فبرغم امتداد بصيالات شعر الحاجيين إلى المخ وبرغم أنه ثبت علمياً أن من تنزعه تموت فورها إلا أن عدم موت النامصات فور انتزاع شعرة من الحاجب هو لأن الله يمهلهن - وليلاحظ القارئ الكريم ثبت علمياً هذه ومن أين أتت بها؟ كل المعلمات من حملة البكالوريوس وكل الطالبات يدرسن الخلية الحية ضمن مقرر الأحياء، لكن المعلمات والطالبات ضربن بما

تعلمنه عرض الحائط وصدقن بكل إيمان أن البصيلات تمتد إلى المخ. لم تعترض أي واحدة منهن على ما قيل. ليس هذا وحسب بل سمعت الحوقلة والاستغفار.. والملح يعلو الوجوه. وعندما ذكرتمن بأن ديننا يحث على نتف شعر الإبطين وأنه لا يسبب الموت أكدن لي بثقة أن السبب هو أن بصيلات شعر الابطين بعيدة عن المخ وليست كبصيلات الحواجب!

وفي العام الذي يليه أكدت محاضرة أخرى في عدد من المدارس أيضاً أن السرطان خلايا ميتة تتكاثر.. ولا أدري كيف تتكاثر الخلايا الميتة.. وهذه الخلايا الميتة التي تكوّن السرطانات في الجسم ماتت بسبب نزع شعر الحاجبين حسب ما ترويه المحاضرة التي تحمل البكالوريوس أيضاً، وكما في العام الذي سبقه، لم تتساءل أي واحدة من الحاضرات. لم تعترض معلمة أحياء، ولم تسعف المعلومات العلمية أي معلمة في أي تخصص آخر لتقول معي أن السرطان ليس خلايا ميتة تتكاثر. بل كنّ ينصحني بالاستغفار والتوبة بسبب اعتراضه على قدرة الله. متصورات أن رفض الجهل هو رفض للدين. وأن العلم ببعض المعلومات العامة البسيطة يدخل ضمن تحدي قدرة الله تعالى.

وأما الصرع الهستيرى فليس له تفسير لدى كثيرات سوى أنه جني لا يجد أين يسكن فحمل أمتعته وأدواته الشخصية واتجه إلى جسد طالبة صغيرة ليسكن فيه.. وكلما طالبتها المعلمة بإحضار الواجب صرعها الجني⁽¹⁾.

والاكتئاب بكل مستوياته سحر ساحر تفرغ من أجل تلك الصغيرة. والسرطان الذي تورم داخل رأس إحدى الزميلات رحمها

(1) يمكن الرجوع لكتب علم النفس للاستزادة في موضوع الصرع الهستيرى والصرع العقلي والفرق بينهما.

الله كان بسبب عين إحدى اللواتي لا تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم. (فهي رحمها الله لم تكن ممن ينتزعن بعض شعيرات الحاجب ولهذا فالسرطان الذي أودى بحياتها كان بسبب نظرة وليس بسبب النص)⁽²⁾.

ولأن (كل قرد في عيني والدته هو أجمل غزال على الأرض) فإن مجرد ارتفاع حرارة الطفل يخلق الشكوك في قلب أمه بأن الناس حسدوها عليه.. ثم تتضامن معها المعلمات الأخريات ويؤكدن لها بأن عليها أن تذهب به إلى من يداويه بالطب الشعبي ليذهب عنه البأس. وتبدأ الأم في إدخال طفلها في دوامة الأدوية التي تنتهي بالكبي.. وربما تبدأ به وهو لا يزال رضيعاً. وكم من رضيع أمه متعلمة (في مدارسنا) كلما صرخ ألماً بسبب امتلاء جسده بجروح الكي زادته كيه جديدة لعله يشفى من آلامه.. وبرغم أن كثير منهم تربويات أي أهن درسن في الكلية مواد الصحة النفسية إضافة إلى علم نفس النمو وعلم نفس التعلم إلا أن كثيرات يذهبن في تصديق الخرافة إلى أقصى مدى.

وإذا فكرت في رصد ما يدور مما يتعارض مع أبسط المعلومات التي يعرفها كل متعلم بسيط - ناهيك عن الإنسان المثقف - فسأخرج بكتاب خاص لهذا الموضوع. لكني هنا أكتفي بما ذكرت لأشير إلى ما أوصلنا إليه أسلوب التعليم في مجال العلوم التجريبية، أما العلوم النظرية فتلك قصة أخرى.

أعود إلى أسلوب التعليم وأقول: إذا لم يتجاوز عقل الطالبة المستويات الدنيا من الهرم المعرفي فإن عقلها لن يتدرب على النقد

(2) شيء مرهق ومحزن ومحبط أن أجد أغلبية من حولي يفسرن كل شيء بمعزل عن العقل. ويعتمدن التفسير الميتافيزيقي دائماً.

والإبداع بل يتلقى ويصدق ما يتلقاه وحسب. وهذا ما يجعل الخرافة تنتشر بسهولة في أوساطهن والعلم يتراجع.. بل لا يكاد يكون موجوداً أصلاً.

نقد التعليم أصبح الآن ميداناً مفتوحاً للقراءة والتأمل - على عكس ما كان عليه قبل عقد من الزمان إذ كان الحديث عن التغيير سبباً في تهم التخوين والعمالة. إذ إن من طالب بإعادة النظر في ما تدرسه الطالبة والطالب يصبح عدواً للأمة كارهاً للخير مناصراً للتغريب. أما الآن فأصبح سقف حرية النقد أعلى بقليل - وأؤكد على بـ قليل هذه - إذ تفهم الناس أن المنهج من صنع البشر وليس منزلاً من السماء. كما أدركوا أن واضعي المنهج يصيبون ويخطئون مثلنا تماماً وأنه مهما كانت نواياهم حسنة ومقاصدهم خيرة ومهما علت مناصبهم أو مكاناتهم الاجتماعية فإنهم يبشرونهم تلك لن يكتبوا شيئاً غير قابل للمراجعة والحذف والإضافة. علاوة على كون المنهج صار قديماً بالنسبة للعصر الحديث ولا يلي الحاجة الفطرية للمعرفة عند إنسان هذا العصر.

إن المطالبة بنقد المنهج لا تعني مطالبة بتغيير الدين كدين أو حذفه والعياذ بالله. لكن المطلوب هو أن يكون المنهج متناسباً مع النمو النفسي والمعرفي لكل طالبة إضافة إلى مناسبته للمرحلة العمرية. إن المؤسسة التعليمية لا زالت بأنظمتها ومقرراتها ترسخ في ذهن المتعلمة مكانتها الأدبي اجتماعياً وعقلياً من الرجل مفترضة أن تلك المكانة الأدنى هي من تقدير الله عليها وليست نتاج ثقافة مجتمع معين. وذات المنهج - في مجاله الصفي واللاصفي - يعطي الطالبات تصوراً أن غيرهن من النساء متى ما حصلت الواحدة منهن على مكانة أدبية أو اجتماعية أو سياسية رفيعة في مجتمعها البعيد عنهن كل البعد فإن هذا بسبب ما هي عليه من انحلال وتفسخ خلقي. ولا

زال التأكيد على أن المرأة خارج مجتمعنا - أي في المجتمعات المتقدمة - ليست سوى بائعة هوى فاسقة فاسدة يمرر إلى عقول النشء بشتى الطرق. فحتى في البرامج المختلفة والحوارات الوطنية يؤكد المتحاورون على هذا الجانب. إذا تُقدم الصور مقلوبة، وتُصور الإنجازات النسائية على مستوى العالم على أنها ضد ما يسمح به الدين وما تسمح به الأخلاق.

لقد ظلت مقاومة تعليم المرأة رديحاً من الزمان بسبب ما كان المجتمع عليه فيما يخص تعليم النساء والترتب على موقفهم الأساسي من المرأة ومكانتها في المجتمع. ثم كانت الموافقة على مضمض.. وبشروط قاسية. استمرت تلك الشروط سداً منيعاً أمام الطالبات تعيقهن عن الانشغال بالعلم حتى اليوم.

تشكل عقول الصغيرات وفق ما تقدمه المؤسسات التعليمية للطالبة من مقررات ويوازيه ما تقدمه المعلمة للطالبة وفق ما تعتقده صواباً خارج المنهج المكتوب. أي أن القناعات الخاصة بمعلمة مادة ما - حتى معلمات المواد العلمية - تقدم للطالبات على شكل حقائق مطلقة غير قابلة للنقاش وأن كل ما يخالف تلك القناعات هو الفسق بعينه على أقل تقدير.

وإذا كنا - كمجتمع - نقضي على كل معاني الاختلاف فيما بيننا. فليس ما يجويه بعض المقررات فقط هو مصدر ما نحن عليه من غلو واستبداد أيديولوجي أدى إلى غلق الأبواب أمام التنوع. ولكن ما تتضمنه الحصص أثناء الدرس المقرر والأنشطة اللاصفية من أفكار تقدم إلى الطالبات مدعمة بشروح منتقاة وتفسير موافقة لرؤى محددة تتلقاها الطالبة وكأنها الحق المنزل من السماء. دون الإشارة إلى وجود آراء فقهية غير التي تم ذكرها ليس عن عمد ربما، ولكن لأن المعلمة نفسها لا تعلم بوجود ما يخالف ما تراه صواباً. وذلك

لأنها - أعني المعلمة - تخرجت من ذات المنهج وخضع عقلها لذات الأيديولوجيا وبالتالي فهي تمارس ذات الدور الذي مورس عليها.

ما أعنيه هنا مما يقدم للطالبة هو خارج نصوص المقرر المدرسي. وذكر من خلال ما تراه وتعتقد المعلمة. ويكفي أن نتأمل مكتبة الفصل الصغيرة ونحصى ما بها من أشرطة ومطويات كلها - في عين الطالبات والمعلمات - تقول بما أنزل الله. وبرغم صدور التعاميم التي تمنع تداول أي مطوية أو منشور أو كتاب لم يصرح به من قبل الوزارة ظلت كل الأشياء التي تقدم باسم الدين مستثناة من التطبيق وكأنها خالية من الأخطاء. أو كأن التعاميم لا تشملها.

فإذا كان الواجب على المعلمات حصر أنفسهن في الخطوط العريضة من أمور العقيدة والفقه، وترك الخلافي أو التأكيد على أنه خلافي. إذا كان هذا هو الواجب فعليه فكيف تعرف معلمة الرياضيات مثلاً أن هذا أمر خلافي وغيره قطعي إذا كانت ترى أن كل ما استتته من شريط أو كتيب هو دين الله. وما عدا ذلك فهو كفر وضلال؟

وما العمل إذا كانت المدرسة تقدم للطالبة آراء تناقض واقعها. فتسمع الطالبة من معلماتها أن متابعة القنوات الفضائية حرام. وتنتشر فتاوى على شكل مطويات بأن من لديه (دش) كذا وكذا. ثم تعود الطالبة إلى المنزل لتجد والديها يتابعان مسلسلاً أو أخباراً أو فيلماً أو أغنية؟ وكنت قد سألت إحدى المعلمات عن سبب ترديدها لتحريم الدش أمام الطالبات مع أنني أعلم أن عندها دش في منزلها فأجابتي بأنها تقر بالمعصية ولا تريد أن يقترفنها كما اقترفتها.

إن الإسلام الذي يأمر الإنسان ببر والديه حتى وإن كانا مشركين بالله. أي أنهما يعبدان غير الله، لا يمكن أن يقبل من طالب أو طالبة تجاوزهما بأي شكل على الوالدين كليهما أو أحدهما بسبب ما يظن هو أنه معصية كمشاهدة التلفزيون مثلاً.

ولكن في المدارس من تحرض طالباتها على الأخذ على أيدي الوالدين إن رأت الطالبة منهما ما لا يجب أن يفعله.

إن دور المدرسة ككل في تشكيل الوعي يشمل دور المناهج التي تخص العلوم على اختلافها - النظرية والتجريبية - ودور المعلمة بحسب ما تحمله من فكر داخل المؤسسة التربوية.

وإصلاح التعليم، هو من أوجب الواجبات من أجل إنشاء أجيال الجديدة تنهض بالمجتمع وتدفعه إلى الأمام. وأول خطوة في الإصلاح هي تنقية التعليم من ثقافة التعصب. والتعصب موجود في المقرر وموجود في أذهان المعلمات. ووجود التعصب يعني أن لا تكون المدرسة مكاناً لترسيخ مفهوم التسامح في ذهن الطالبة بل هي مكان تتعلم فيه أن كل مخالف على خطأ حتى وإن كان هذا المخالف من أهلها وذويها. فالحق ليس إلا ما عرفته وتعلمته وما سواه بالضرورة هو الباطل يضاف إلى هذا عدم قدرة المدرسة والمنهج على خلق العقلية العلمية لدى الطالبة.

والأولى بمدارسنا أن تدرس الدين دون تعصب لرأي دون آخر مبتعدة عن خلافات الآراء الفقهية، بحيث يكون العلم علماً غير خاضع لأي تيار. وأن تصل المدرسة بطالباتها إلى قدر عال من الوعي، وأن تجعل عقولهن متوقدة تتعطش دوماً إلى المعرفة.

وثاني الخطوات هي في إعداد المعلمة إعداداً تربوياً حقيقياً يؤهلها للتعامل مع الطالبات وفق علم التربية. يضاف إلى هذا ضرورة التقليل من أعداد الطالبات داخل الفصول ليكون التعليم أكثر فاعلية.

أستطيع أن أصف ما نحن فيه الآن بأنه خمول الفكر وخمول الجسد. فالمكتبة المدرسية خاوية إلا من بعض الكتيبات التي تكرر وتعيد وتريد عن النساء ومكائنتهن في الإسلام وفق ما يراه أصحاب

تلك الكتيبات إذ إن مكانها هو المنزل وكل مكان سواه يعني تعرضها للردية... إلخ مما كتبوه وكرروا كتابته. عدا بعض الكتب التي تحسب للمكتبة المدرسية كالموسوعة العربية التي وزعت على كل المدارس تقريباً.

وأما جسد الطالبة فهو لا يحظى بشيء من الاهتمام على الإطلاق. وقد يكون الأمر إلى هنا مقبولاً. لكن الكارثة أنه يلاقي أنواعاً من صنوف الأذى والتدمير البطيء. فكل.. كل.. كل رياضة ممنوعة مهما كانت بسيطة وممكنة. وبدء تحريمها على المرأة جاء منذ بدأ التعليم. وأظن أنه لولا التعليم لكانت المرأة أكثر قوة ونشاطاً. إذ إننا لو نظرنا إلى تاريخ النساء قبل عهد رئاسة تعليم البنات لعرفنا أنهن كن يهبطن وادياً ويصعدن جبلاً. يضرين الأشجار بالفأس ويكسرن الأغصان الكبيرة فيجعلنها صغيرة ثم يحملنها إلى بيوتهن مهما كانت المسافات طويلة ومهما كانت الطرقات جبلية قاسية. ويأتين بالماء من الآبار ويعملن في المزارع ويخرجن باستمرار إلى الهواء النقي والحياة الطبيعية حينما كانت الشمس للنساء والرجال معاً. أما اليوم فالشمس محرمة على النساء. الشمس للرجال فقط. وإن ظل الحال على ما هو عليه فلا أستبعد أن يأتي من يطالب ذات يوم بأن يُكتب على الشمس عبارة "للرجال فقط". وللعلم، فإن بعض مدارس البنات الحديثة جداً مسقوفة بحيث لا تدخلها الشمس. ولا أدري ما الفائدة من ذلك؟ هل يستبقون أشعتها المفيدة لمدارس البنين؟

يضاف إلى هذا أن ما تأكله النساء في الماضي كان طبيعياً حسب البيئة التي نشأت فيها. واليوم.. بالإضافة إلى عدم السماح للطلبات في المدارس بممارسة أي حركة تعد ضمن الرياضة. وبالتأكيد لا يذهبن إلى نوادي خاصة بالنساء لندرتها أيضاً وارتفاع أسعارها، هنّ لا يعرفن عن الثقافة الغذائية إلا القليل. وهذا جعلهن

ضعيفات الجسد مترهلات إلى الحدّ الذي يجعل من يتأملهن في الطابور الصباحي يحزن كثيراً لأجلهن. إنهن لا يمشين بشكل نشيط وحيوي إلى الفصل. بعضهن تكاد لا تنقل القدم من على الأرض ثم تضعها ثم تنقلها مرة أخرى. بل يسحبن أقدامهن سحباً بخطوات متثاقلة تخلو من الهمة وجمال خطوات الشابات.

إن عدم وجود الرياضة داخل المجتمع النسائي وعلى رأس ذلك داخل أسوار مدارس تعليم البنات يعني أن تظل طاقتهن النفسية مكبوتة لا تجد مجالاً طبيعياً ومسموحاً للتنفس وهذا يعني أن نجد فئة تستبدل الأنشطة الرياضية بأساليب أخرى غير مسموحة أو غير صحيحة على أقل تقدير. وبالتالي فالحاجة إلى الترويح عن النفس والشعور بالنشاط والحيوية شيء مفيد إذا تم توجيهه بالشكل المناسب له. أما إذا منعت الأنشطة الطبيعية والمفيدة فأرجو أن لا يستغرب المسؤولون إن حلت محلها غير المفيدة وغير الطبيعية. وأن يعلموا أنهم هم من أسهم في ذلك. أضيف إلى هذا ما يحدثه بواب المدرسة من تلوث سمعي بسبب مناداته اليومية على الطالبات بمكبر الصوت داخل المدرسة. ففصوات البواب الذي ينادي على كل طالبة عدة مرات مستخدماً مكبرات الصوت والطالبات في المدارس المتوسطة العدد يقتربن من الخمسمائة طالبة لا شك يؤدي سلامة السمع لديهن. فهل رأى أحد أن في هذا ما يؤدي كل من بداخل المدرسة؟ (أكد الأطباء على الأضرار التي يمكن أن تحدث من جراء الأصوات المرتفعة من مكبرات الصوت فيما يعرف بالتلوث السمعي دون تحديد مقياس شدة هذه الأصوات. وقال الأطباء: أن الصوت المرتفع يسبب ضعف سمع دائماً ولا يمكن علاجه إلا باستخدام السماعات، وهو ما يتطلب معه أن تكون الأصوات الصادرة من مكبرات الصوت

معقولة ودون النسبة المحددة عالمياً والتي لا تتجاوز 80 ديسيبل بمقياس الصوت. إن التلوث السمعي يُعدّ من أهم أسباب فقدان السمع لدى الإنسان وأن ذلك يحدث نتيجة للتعرض للأصوات المزعجة لمدة طويلة مثلما يحدث مع عمال المصانع أو رجال المرور وقد يحدث نتيجة لتعرض الإنسان لصوت عال جداً ولو لمرة واحدة مثل أصوات الطلقات النارية. ولسوء الحظ فإن فقدان السمع نتيجة لمثل هذه الحالات يؤدي إلى صمم دائم. والتلوث السمعي يُعدّ من أهم أسباب فقدان السمع لدى الإنسان ويحدث نتيجة للتعرض للأصوات المزعجة. أما شدة الصوت تقاس بمقياس الديسيبل، ويُعدّ إزعاج أصوات آلات تنبيه السيارات بنحو 80 ديسيبل، كما يُعدّ التعرض لمثل هذه الأصوات يوماً سبباً للإصابة بالطنين وفقدان السمع وهذا من أهم أسباب التلوث السمعي، حيث يتعرض له عدد كبير من المواطنين⁽¹⁾.

هل سترحم منسوبات التعليم من نداءات البوابين في مكبرات الصوت بشكل يومي منذ أن تدخل المدرسة إلى أن تتخرج منها. وتعود إليها موظفة؟ أم أن حاسة السمع عند المرأة بنصف حاسة السمع عند الرجل ولهذا لا بأس إذا تضررت؟

أما الإذاعة المدرسية التي لم تُحدد مفرداتها وظلت مفتوحة لكل من أرادت أن تأتي بموضوع فيها. فإن بعض المدارس جعلتها منيراً لترهيب الطالبات والبعد بهن عن معاني الخير والجمال في كل أوجه الحياة. في الطابور يقفن منصتات إلى الإذاعة التي تكاد أن تخلو من الابتسامات والطرف والحقائق العلمية. وتمتلى بالتخويف من الحياة التي يتم اختزالها في أنها فقط "مرحلة العبور إلى الآخرة" وتمتلى أيضاً

(1) الشرق الأوسط، الجمعة 25 رمضان 1426هـ/28 أكتوبر 2005، العدد 9831.

بالوعيد والنار للنساء بشكل عام وللطالبات بشكل خاص لو قمن
بكذا وكذا من الأمور. ويترك "كذا وكذا" لما تراه المعلمات
والطالبات اللواتي يقمن بإعداد الإذاعة. وقد سمعت بدخول النار
للواتي يتابعن الأزياء والموضة أو يكثرن من الذهاب إلى الأسواق...
إلخ. بشكل عام المدرسة تتحول تحت سلطة بعض المديرات إلى مكان
يبحث على الكآبة ويقلص مساحات السرور داخل النفس.

في الغالب وحسب ما تابعته في كثير من المدارس ليس هناك
انتقاء لما يناسب المرحلة العمرية للطالبة لترغيبها في الدين وإظهار
وجه الإسلام الحقيقي النقي الذي يملأ قلب المسلم بالإيمان والثقة بالله
والاطمئنان إلى أن رحمته وسعت كل شيء وأنه يجب عباده ويتوب
عليهم ويغفر لهم وأن الدين لخير الناس وسعادتهم.

إن التربية كعلم حديث أساسها هو بناء الإنسان. بأوسع ما
تعنيه كلمة بناء، ليكون مستقلاً في إرادته. أي أن التربية الحديثة
تعتبر القدرة على التفكير، واتخاذ القرار بمحض الإرادة الذاتية من أهم
أهدافها. فأين نحن وأين التربية ونحن نمارس الوصاية الكاملة على
الطالبات ونرى العلاقة بين المعلمة وطالباتها علاقة قمعية سلطوية
آمرة؟

إذ لا نزال حتى يومنا هذا وإلى أيام ستأتي لا نرى الطالبة
كياناً يجب احترامه - ونطالبها باستمرار وفي كل مكانها باحترام
المعلمة - وعدم احترام الطالبة من قبل المعلمات والإدارة هو ما يجعل
أسلوب التخوين وتفتيش شنط جميع الطالبات وتفتيش عباآهن
وأغطية وجوههن وطريقة لبسهن لها ممارسات عادية. بل ربما واجبة
على كل مسؤولة يدعمها في ذلك تعاميم وقرارات لا زالت سارية
المفعول. وليس من بين المديرات من ترفض تنفيذها وفقاً لما تعلمته
من كتب علم النفس التربوي إلا فيما ندر. ولنا أن نتصور أن مشط

الشعر - وليس سوى مشط للشعر كان ممنوعاً حين كنت طالبة واستمر منعه إلى عهد قريب - ولا زال ممنوعاً في بعض المدارس إلى اليوم. في كل صباح تُخلع كل طالبة عباءتها وتسوي شعرها بأصابعها فمن كان شعرها جافاً أو أجعداً تضاعفت معاناتها مقارنة بذوات الشعر الناعم ولا أدري إلى يومنا هذا ما الحكمة - في نظر المانع - من منع الطالبات من اصطحاب المشط إلى المدرسة، وما المردود العلمي أو التربوي من بقاء الشعر منكوشاً ومنفوشاً بعد خلع العباءة؟ وما الفائدة من شعور الطالبات بالخرج وهنّ يتلمسن رؤوسهن ويردن إصلاح ما تطاير هنا وهناك؟ كما كانت كثير من المدارس الحكومية والمستأجرة تخلو تماماً من المرايا التي عادة توضع عند دورات المياه. ويُبرر انتزاعها من الحائط بقولهم: لكي لا تشغل طالبة عن الدرس بالنظر إلى صورتها في المرآة. ولهذا كنا - عنما كنت طالبة - نحضر المرايا الصغيرة بين كتبنا. وعندما يتم التفتيش علينا ونعاقب بسبب وجود مرآة نضطر إلى استخدام المرايا التي على مبرة القلم الرصاص الصغيرة جداً. وصارت المرآة غاية نحاول الوصول إليها. نحارب من أجلها ونستमित في الدفاع عن حقنا في الحصول على مرآة. هكذا كانت النتائج. الأشياء التافهة تصبح مهمة. والتي بلا قيمة صارت أولوية. فالمرآة هدفنا والتحاييل وسيلتنا والعقاب نتائج حتمية لمن كُشف أمرها. والأذكي هي التي تحضر المرآة ولا تكتشف المعلمات أنها أحضرتها برغم التفتيش. أما الكتب والروايات فيا للمصيبة التي ستحل على رأس من اكتشفوا أنها تحب قراءتها لهذا كنا نُهرّب قصص أغاتا كريستي وغيرها كما يهرّب المجرمون المخدرات.

كثير مما هو ممنوع الآن بقرار رسمي مكتوب أو شفهي سيصبح غداً مسموحاً ولكن تظهر قائمة أخرى من المنوعات.

وما أعنيه هو أن الممنوع والمسموح لا يكون وفق مصلحة معينة أو هدف تربوي واضح بل وفق رؤى خاصة بالمانع أو مزاجية معينة أو تشدد لا معنى له.

خلاصة القول إن المدرسة ليست هي المكان المحبب الذي تحرص الطالبة على نظافته وسلامته لأنه لها وأنشئ من أجلها. بل أنشئ لكي ترأب فيه وتطالب بالمعقول وغير المعقول. وتعاقب بحق وبغير حق. وإذا كان الضرب ممنوعاً الآن فإن العقاب النفسي مستمراً. والمدرسة ليست المكان الذي يروي عطشها للمعرفة هذا إن كان عقلها قد تربى على الرغبة في الاستزادة من العلم. بل المكان الذي تلتقي فيه بصديقاتها، وحسبها هذا لتتحمل الكثير من القسوة والضغط.

أ - المنهج

إن الوصاية القائمة على الجميع أدت إلى الإرهاب
الفكري وانتزاع حريات الناس.

تناولت الكثير من الدراسات والبحوث موضوع المناهج. ولست الآن بصدد ذكر النظريات حول المناهج وإعدادها. بل أفضل التركيز على ما يقدم للطالبة.

وما دام المنهج بمفهومه الحديث يشمل الأنشطة التي تقوم بها التلميذة داخل المدرسة وجميع الخبرات التي تمر بها ضمن إشراف المدرسة وتخطيط منها. أي أن المنهج هو حياة التلميذة خلال الساعات التي تقضيها في مدرستها تحت إشراف وتوجيه الهيئة التعليمية والإدارية، بما يتضمنه من أنشطة صفية ولاصفية. فإني سأذكر بعض الملاحظات التي أرى أنها جديرة بالتدوين والمعالجة من قبل المهتمين بالتربية والتعليم والمسؤولين عنها في البلاد.

وأولها - يقدم منهج العلوم النظرية ما فيه على أنها حقائق مطلقة غير قابلة للمراجعة ويصل الاعتقاد بها إلى حدّ مساواتها - في ذهن الصغيرات بكتاب الله عزّ وجل - أن كل طالبة عرفتها امتلكت الحقيقة المطلقة وليس على وجه الأرض صواب آخر عند غيرها. يضاف إلى هذا.. شعورها - وهي تمتلك الحق المطلق - أن عليها.. بل وواجبها الديني المنطلق من ضرورة أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر - أن تعدل وتبدل وتغير في تصرفات الناس. وتنطلق في فهمها للمعروف والمنكر من فهم مجتمعتها له الذي يضع نصب عينيه عاداته وتقاليده⁽¹⁾. وهذا النمط من التفكير يشكل البيئة المناسبة لخلق التطرف داخل المجتمع إذا لم يكن هذا هو التطرف بعينه والذي بلا شك يجلب الكثير من المشكلات التي عانى المجتمع ويلاقيها. إن إظهار بعض النصوص والتحيز لها وتعمد إهمال بعضها الآخر يؤدي إلى تشويه معنى الدين. ومن هنا تأتي ضرورة مراجعة المناهج لتفهم الطالبة دينها وفقاً للقيم الأساسية والمقاصد الكبرى فيه، وفي هذا الصدد دار بيني وبين الطالبات بعض من الحوارات أنقل أحدها ليتضح للقارئ الكريم حجم المشكلة. إذ تمّ اختزال كثير مما أتى به الدين الحنيف في مسألة حجاب المرأة في فهم الطالبات. وليس الحجاب بشكل عام. بل شكل واحد محدد للحجاب. وكل حجاب عداه هو "حرام".

(1) قامت مجموعة من طالبات المرحلة المتوسطة في إحدى مدن المملكة التي عملت معلمة في إحدى مدارسها بضرب طالبة صغيرة في الصف الأول المتوسط داخل أوتوبيس المدرسة لأن تلك الطالبة كشفت وجهها. الطالبات اللواتي قمن بضرب الطالبة الصغيرة كسولات جداً ووجدن فرصة للتفوق داخل الأوتوبيس على من هي أصغر منهن.

قالت لي إحدى طالبات المرحلة الثانوية ذات فراغ أن الممثلة فلانة جاءت إلى مكة لأداء العمرة. لم تلاحظ طالبة عليّ أي ردة فعل اعتيادية أو غير اعتيادية. فسألتهى بكل جدية: أترضين؟ فقلت: لها بماذا؟ قالت: أترضين أن تأتي هذه الممثلة التي تظهر على شاشات التلفزيون إلى بيت الله؟ قلت: ومن أنا حتى أرضى أو لا أرضى. فاجأها الجواب وقالت: إنها ممثلة، وغير محجة وتأتي إلى بيت الله وترين الأمر طبيعياً؟ عدت وقلت لها: ومن أنا حتى أراه طبيعياً أو غير طبيعي. إنه بيت الله وليس بيتي لأمنعها أو أسمح لها. دار الحوار داخل الفصل. واستبدَّ الغضب ببعض الطالبات مني. وذهبن لمديرة المدرسة يخبرنها بموقفي - المتساهل مع دين الله حسب اعتقادهن - وبتعبير أدق، يشتكين إليها مني. إذ كان من المفروض حسب اعتقادهن أيضاً أن أبدي استيائي على أقل تقدير من زيارة الممثلة لبيت الله. هذا إذا لم أشارك في السبِّ والشتم واللعن لها كونها تمثل ولا تتحجب وتأتي إلى مكة للعمرة.

هذا التعصب والتشدد والقطعية بسلامة رأيهن إضافة إلى اتخاذ الموقف الرادع "للمخالف" ولأني لم أكن زميلتهن ليقمن بتأنيبي اضطررن للذهاب للمديرة لأني كنت على رأي آخر مما هنّ عليه. وليس مهماً الآن أن أتحدث عما أحدثته من تغيير "طفيف" في قطعتهن الفقهية تلك.

إن ما يدرسنه ضمن مقرر المواد الدينية وما يستمعن إليه من محاضرات وأشرطة سلب من عقولهن القدرة على الرؤية بوضوح. وكان الأولى أن تؤدي بهن دراسة مواد الدين المكثفة إلى أن تكون عقولهن يقظة فاحصة قادرة على العمل بصفاء ونزاهة.

ثانياً - النظر للماضي بكل ما يحويه من موروث بعين التقديس من قبل الطالبات ومن قبل كثير جداً من المعلمات. حتى وإن كان ما

فيه غير قابل للتصديق. أو يعتمد على اتجاه فقهى معين. أو غير مناسب للمرحلة العمرية للطالبات⁽¹⁾.

ثالثاً - المواد العلمية تدرس ضمن مستويات الحفظ والتذكر فإن ارتقى المستوى التعليمي وصل إلى الفهم ثم التطبيق على أحسن الأحوال. وهذا ما يجعل المواد العلمية بعيدة عن واقع الإنسان في كثير من الأحوال مهما تعلمها في التعليم العام. حيث إن المستويات التي أشرت إليها ستة حسب الهرم المعرفي وهي (الحفظ والتذكر - الفهم - التطبيق - التحليل - التركيب - التقويم).

أما الخلل في اللاصفي فهو في انطلاقه من المنهج الصفي ذاته. إذ إنه يستقي منه خطوطه العريضة وبالتالي تدور الطالبة في ذات الحلقة

(1) في كتاب القراءة العربية ومهاراتها للصف الثاني متوسط ذكر الكتاب (الجديد المعدل، طبعة 1427هـ، ص 94) أن الصحابي الجليل أبا عبيدة عامر بن الجراح ضرب رأس والده بالسيف ضربة فلقت هامة والده نصفين وخرّ والده صريعاً بين يديه، كانت إحدى الطالبات تقرأ الدرس قراءة جهرية والباقيات ينصتن ويتبعن في كتبهن وأنا واقفة أمامهن وفجأة صرخت إحداهن بقولها (بشع.. قتل والده بالسيف؟! بشع.. شرير) كانت الطالبة ترتجف وعلى وجهها علامات الخوف والهلع. وتوجب عليّ أن لا أسمح بنعت الصحابي بهذه الألفاظ ولكن قبل أن أستوعب كلماتها وهلعها تدخلت طالبة أخرى وقالت بحدة استغريتها: (بل هو بطل.. قتل والده لأنه كافر.. كافر.. يجب أن يقتله أم تظنين أن عليه أن يتركه يعيش وهو مع كافر) حرصت على أن أنهي الحوار بينهن على غير عادي. فقد أدركت أنهن تعلمن من الدرس ما لا أوافق كمرية على تعلمهن إياه. فليس من الممكن أن تؤيد بعضهن قتل الآباء أياً كانت أسبابهن. ولا أن تؤيد بعضهن أن ما فعله الصحابي يدخل ضمن البشاعة والشر. وقد ظل التهامس بين الطالبات أثناء الدرس بين مؤيدات ورافضات خائفات. وهذا بالضبط معنى أن نختار ما يناسب الطالبة والطالب إذ إن قصة كهذه يجب أن تبقى إلى أن تدخل الطالبة الجامعة فتكون قد نضجت بما يكفي لتفهم معنى المعركة بين المسلمين والمشركين.

وتتعامل مع ذات المكان والأشياء والأشخاص. ولا يستطيع المنهج اللاصفي تنمية الهوايات - على الأغلب - ناهيك عن اكتشافها ولا أن يكون مجالاً لامتناس طاقات الطالبات وتنمية خبائهن وإثراء ثقافتهن. هذا عجز المنهج اللاصفي عن صقل مواهبهن بشكل فعلي. وأرى أن الهدف بعد هذا هو في الرقي النوعي للتعليم بمجمله. ويتأتى هذا إذا تمت مراجعة شاملة وحقيقية من قبل متخصصين ذوي ثقافة عالية وفكر مستنير.

بقي في المنهج أمر أراه مهم جداً ويجب أن أتناوله، ألا وهو "التربية الوطنية".

كل إنسان يكتسب صفة المواطنة بمجرد انتسابه إلى دولة معينة، ولكنه لا يكتسب صفة الوطنية إلا بالعمل الحقيقي لصالح هذه الدولة ثم يصبح قادراً على تقديم المصلحة العامة على مصلحته الخاصة. ومن لوازم الوطنية شعور المواطن بالانتماء للوطن ومعرفة حقوقه وواجباته. فمن حقوقه مثلاً توفير التعليم والحصول على الرعاية الصحية والخدمات الأساسية. توفير الحياة الكريمة. العدل والمساواة. الحرية الشخصية وتشمل حرية التملك، وحرية العمل، وحرية الاعتقاد، وحرية الرأي. وهذه الحقوق يجب أن يتمتع بها جميع المواطنين بدون استثناء. فهل حُرمت الطالبات من دراسة التربية الوطنية لكي لا يدركن أن الحرية الشخصية حق يجب أن يتمتع به كل المواطنين على حدٍ سواء؟

ب - المعلمة

كاد المعلم أن يكون رسولاً.

كثيرات هن اللواتي يبحثن عن فرصة أو واسطة، أو طريقة ليخرجن من التعليم وليحتفظن بالراتب. ولهذا امتلأت مكاتب الإشراف بالموظفات الهاربات من التدريس إلى الوظائف المكتبية بغض النظر عن الحاجة الفعلية للعمل. وبكل مسؤولية أقول: نعاني في بعض مكاتب الإشراف من بطالة مقنعة.

إن الثقة بالنفس التي يجب أن تتمتع بها المعلمة تنطلق أولاً من كفاءتها المهنية في مجال التعليم. وقدراتها التي يجب، وأضع تحت يجب خطوطاً عديدة، يجب أن تصل إلى المستوى الاحترافي في المجال التربوي. وهذا لا يعني أن تكون قد تمكنت من مادتها التي تدرسها فقط. بل أن تكون أيضاً قد أعدت⁽¹⁾ إعداداً تربوياً ممتازاً يمكنها من الارتقاء بالفضول العفوي البسيط لدى الطالبات ليصبح فضولاً معرفياً يتضمن القدرة على النقد والتصحيح والإبداع. كذلك يمكن هذا الإعداد التربوي المعلمة من إدارة المواقف المختلفة في الفصل وخارجه باقتدار ينزهها في أعين طالباتها وفي عين ذاتها عن أن تكون انفعالية أو مزاجية أو متسلطة ويمكنها أيضاً من إدراك سبب أفعال وردود أفعال طالباتها وفقاً لما تفقها المعلمة عن خصائص نموهم مضاف إليها تأثير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والأسرية عليهن وقادرة على استحضار ما عرفته في شتى

(1) لا شك أن بعض المعلمات تصل قدراتها إلى أكثر مما نتصور. لكن العمل الفردي يكاد لا يترك أثراً واضحاً. فالمدرسة عمل جماعي مؤسسي وليس عملاً فردياً ولهذا لا تظهر آثار المعلمات المتميزات جداً برغم جهودهن الكبيرة. وتظهر بوضوح الأساليب غير الصحيحة في تكوين عقل وشخصية الطالبة لأنها لتضارفاً اتخذت طابع العمل المؤسسي.

العلوم وعلى رأسها الصحة النفسية عند حدوث مواقف طارئة من بعض الطالبات. وإلا فإن كل ما درسته من مقررات في كلية التربية أو ضمن الدبلوم التربوي سيكون هباءً منثوراً إذا لم يوظف كما ينبغي داخل أسوار المدرسة. فهل هذا التوظيف هو ما يحدث؟

ما يجب أن تكون عليه المعلمة بملأ الكتب وتعد له الدورات والمحاضرات لكن الواقع شيء آخر مختلف. سأحاول فقط الكتابة عنه كما عرفته. وقبل أن أبدأ في ذلك أود سرد هذه القصة البسيطة القادمة من التراث. لأهما ذات معنى عميق بغض النظر عن مدى صحتها من عدمه: يقال أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يمشي في أحد الأسواق فرأى رجلاً يلتقط لوزة من الأرض ثم يرفعها بيده وسط السوق ويصيح في الناس بأعلى صوته - يا ناس من ضاعت له لوزة؟.. يا ناس من الذي ضيِّع لوزة؟.. يا ناس من ضاعت له لوزة؟.. فاتجه إليه عمر رضي الله عنه وقال له: كُلِّها.. كُلِّها يا صاحب الورع الكاذب.

.. لقد أدرك عمر - بذكائه المتميز - أن هذه المبالغة في الورع والمتمثلة في الصراخ من أجل البحث عن صاحب لوزة.. لوزة واحدة سقطت في الطريق من شخص ما ذات يوم. ويحدث بسببها كل هذه الجلوبة وكل هذا الضجيج!!!! هل فعلاً كان يريد أن يجد صاحب اللوزة ليردها إليه لأنه إذا أخذها فقد اقتترف ذنباً لا يقدر على اقترافه لأن ضميره سيحاسبه على هذا الذنب. والأهم من محاسبة الضمير خوفه من حساب الله تعالى يوم الحساب؟ أم كان يريد أن يرى الناس كلهم أنه نزيه ومتدين وورع وتقي وصالح و"يُصلي على طرف ثوبه"⁽¹⁾؟ لقد اكتشف عمر كذب ورع هذا الرجل بسبب ما في

(1) يُصلي على طرف ثوب فلان - مثل من منطقة عسير يقصدون به أن هذا الشخص تقي وظاهر جداً. ولشدة طهر نفسه انعكس الأمر على ثيابه فصارت طاهرة إلى الحد الذي يمكننا من الصلاة على طرف ثوبه. أي أن نستعمل طرف ثوبه سجادة للصلاة.

الأمر من مبالغة وضحيج يحدثه من أجل لا شيء. أو من أجل شيء بحجم اللاشيء.

ذات الضحيج يحدث كثيراً خلف أسوار مدارس تعليم البنات وتكون المعلمة أو إحدى عضوات الهيئة الإدارية هي من يحمل اللوزة ويصرخ ليعرف الناس تقواها أو طهرها وعفتها. إحدى المعلمات مثلاً تقسم أنها اتصلت بشيخ فاضل تسأله - هل يجوز أن أشحن جوالي في المدرسة؟ سألته لأنها حريصة على أن لا تأخذ من كهرباء الدولة شيئاً مهما كان يسيراً. لا أذكر ماذا قالت عن جواب الشيخ. لكنني أذكر أنها تخرج من المدرسة وكثير من المكيفات والأنوار مضاءة. ثم إنها ساهمت في شراء الثلاجة الصغيرة مع المعلمات لحفظ الأجبان الخاصة بفقورهن داخل المدرسة. هذا بشأن الكهرباء فقط. فماذا لو تناولنا التدريس وما تبدله من أجل الطالبات من جهد؟ إذاً هذا الورع "الشاحني" - نسبة لشاحن الجوال - ليس نابعاً من نفس وصلت إلى هذا الحد من التقوى. وصارت تراقب الله في كل شيء حتى في شحن الجوال وهل هو على حسابها الخاص أم على حساب الدولة. لكنها تراقب الناس وتستجدي إطراءهم وثناءهم. وإلا فإن مراقبة الله إلى هذا الحد تعني أن يتفاني الإنسان في عمله أولاً تفانياً يجعله مضرباً للمثل في إخلاصه وتميزه لكي لا يأخذ شيئاً من راتبه وهو لم يقدّم بواجبه كاملاً بالمقابل⁽¹⁾. أو أن هذا الورع هو عبارة عن محاولة منها تريد

(1) في اليابان معدل ساعات عمل الإنسان هي (2100) ساعة في السنة. وفي أوروبا معدل عمل الإنسان (1800) ساعة في السنة. - واليابان تتفوق على أميركا في نسبة المتعلمين كذلك يعتبر العمل الجماعي في اليابان هو الأول من نوعه في العالم. (المعلومات والأرقام الخاصة بمعدل ساعات العمل من كتاب حفايا المعجزة اليابانية من تأليف مجموعة من اليابانيين).

بها أن تثبت لنفسها أولاً عكس ما تشعر به في داخلها نحو ذاتها. ثم ترائي من حولها بهذا الورع.

إننا كمعلمات نتذمر من كثرة الحصص وضغوط العمل. فإذا أضفت لنا مديرة المدرسة عملاً آخر انزعجنا ورفضنا أو وافقنا على مريض. إلا عملاً واحداً نسعد بتنفيذه ونتسابق إليه. ولا نرفض القيام به على الرغم مما فيه من دناءة وبعد عن احترام الذات واحترام الآخرين - حسب اعتقادي - إن العمل هو تفتيش شنت الطالبات. وتفتيش عباةأهن والتأكد من شكلها وحجمها ونوعها. والوقوف لمراقبتهن أثناء دخولهن صباحاً وأثناء ارتداء العباة ظهرأ للتأكد من كثافة غطاء الوجه وعدم ارتداء النقاب - أي أن يكون الغطاء أمام العينين كثيفاً وليس خفيفاً أو مكشوفاً - إلى آخر ما هنالك من ممارسات تؤدي بإخلاص صاحب اللوزة الذي يريد أن يعلن عن تدينه. وأرى صاحب اللوزة أفضل من بعض المعلمات والإداريات اللواتي يقمن بالتفتيش والمراقبة والتحري والتجسس. لأنه أعلن عن نفسه ولم يحاول اتهام غيره بشيء. أما إذا اكتشفت بعض المعلمات وجود طالبة خفت غطاء وجهها أو فقط كشفت أمام عينيها لتبصر طريقها. طارت الأخبار باسمها إلى الإدارة لعل المديرة تزداد إعجاباً وحباً لتلك المعلمة التي قبضت على تلك المجرمة الصغيرة التي تجرأت وأرادت أن ترى الطريق عند دخولها أو خروجها من المدرسة. وتبدأ الأحاديث بين معلمة وأخرى، وبين المعلمات والإدارة. وتبدأ الإجراءات ضد الصغيرة التي اقترفت ذنباً لا يعادله ذنب.

لقد أرادت تلك المجرمة أن ترى الطريق! ومن قال أن من حقق رؤيته؟ من سمح لها أن ترى أي شيء في الدنيا؟ ستنال العقاب الرادع لها ولأمثالها.

يعلم كثيرون أن الإسقاط حيلة من الحيل اللاشعورية يمارسها الإنسان دون أن يشعر بأنه يمارسها. فنجد البخيل جداً يتحدث عن البخلاء وكأنه ليس منهم. بل ربما يشتمهم ويؤكد على فداحة موقفهم من المال. تشعر من خلال كلامه أنه كريم جداً. وفي الحقيقة هو يمارس الإسقاط فقط. كحيلة لا شعورية يريد بها أن يرمي ما به من خلل على الآخرين دون أن يدرك ما يفعل.

وما أكثر ما تسقطه بعض المعلمات على طالباتها. فهن كسولات. لا يفتحن الكتاب في البيت. لا يقرأن ولا يثقفن أنفسهن. ومن يسمعها يظن أن الكتاب لا يتعد أكثر من ثلاثين ستيماً عن عينيها. وهنّ غير مهتمات بشيء غير وضع المساحيق على وجوههن - مع أن الطالبات لا يضعن ولو القليل منها إلا كخلسة المختلس - فأنظر إلى وجه المعلمة المتحدثة وأنقل نظري بين عينيها وشفتيها وخطيها وأبتسم فتهتم معنى الابتسامة وتبري تدافع عن نفسها فتقول - نحن معلمات وهنّ طالبات. وأجيبها: نعم هذا واقع نحن معلمات وهنّ طالبات. لكن ما علاقة هذا بوضع المساحيق للزينة أو منع وضعها؟ هل يؤثر التزين على فهم الطالبة؟ إذا كان الجواب نعم. فإنه سيؤثر على أداء المعلمة. وإذا كان الجواب لا.. فلماذا هذا التشدد ضد الزينة.. ضد الجمال.. ضد الاهتمام بالمظهر. ثم.. على فرض.. على فرض أن التزين يؤثر على مدى الاستيعاب فهذا قرار الطالبة. وهي حرة. أما إذا كان التزين يؤثر على أداء المعلمة فهي ليست حرة لأنها تأخذ أجراً على أداء عملها ويجب أن تتقنه. وينتهي الحوار عادة بأن لا نتفق. ولا أن نوافق حتى على أن لكل رأيه.

أما تفتيش الحقائق المدرسية فكثيرات هنّ المعلمات اللواتي يسعدهن تنفيذ هذا الأمر. مما يخلق في بعض الطالبات تحدّ ومجاهمة، إذ إن التفتيش بشكل عام يعطي المعلمة مجالاً للتنفيس عما بداخلها من

جهة ومن جهة أخرى يضعها في صف "حراس الفضيلة"، وهذا يعني ضمناً أنها لو لم تكن تقية نقية لما صارت في ذلك الصف. إن تاريخها الطويل منذ أن كانت طالبة وإلى لحظة التفتيش يستحثها للبدء بهذه المهمة لتثبت بعملها هذا أنها لم تكن يوماً مثلهن ولا بشقاوتهن أو كسلهن أو مخالقاتهن ولم تكن لديها ذات التجاوزات والأخطاء. إذاً فلتسارع إلى كتابة اسم من في شنتتها قلم كحل أو أحمر للشفاه أو دفتر مذكرات شخصي أو ما شابه.

ما ينتج عن ذلك ردود أفعال تقسم المدرسة إلى فريقين يتحديان بعضهما أيهما له الغلبة. ومن هنا يصبح الحفاظ على المدرسة ومرافقها أمراً منوطاً بالهيئة الإدارية والتعليمية وتخريبها محبباً لمن تمت معاملتهن بقسوة أو تمت إهانتهم بتفتيش أغراضهن الشخصية ومعاقبتهم بالكلمات المهينة أو التعهدات الخطيئة وما شابه.

ولا شك أن الحفاظ على أخلاقيات الطالبات والحرص على تقويمهن من الأساسيات المنوطة بالمدرسة. وأن منع المخالفات الحقيقية من أهم ما يجب أن تحرص عليه المدرسة بكل عضواتها. ولكن الأساليب المتخذة لكشف وجود تلك المخالفات يضع الطالبة في موقف الاتهام حتى وإن لم يخطر ببالها فعل أي أمر مخالف. إنها أساليب تهدر كرامة الطالبة وتنتهك حدودها دون ذنب أتت به.

إضافة إلى أن تلك المخالفات يجب أن لا يكون من ضمنها مرآة أو أحمر للشفاه أو كحل للعين كما يحدث. وعلينا أن نرى الهين هيناً. والصعب صعباً. فإحضار الأشياء العادية البسيطة. وأخذ التعهد الكتابي عليها أو الوصول بها إلى درجات عالية في العقاب يجعل الطالبة تساوي بينه وبين الشيء الممنوع فعلاً.

إن آلية التفتيش ذاتها بهذه الكيفية تجلب الكثير من المرارة في نفس الطالبة البريئة - والأغلبية من البريئات - وتجعلها متهمه دون

أن تفعل شيء أو حتى تفكر في فعله. وبالمقابل.. لا يوجد مجالات لها داخل مدرستها، وربما خارجها أيضاً لتعبّر عن نفسها أو تمارس هواياتها أو تعلن عن شخصيتها ضمن الأنشطة التي يجب أن تمتص طاقاتها. وهكذا.. لا يوجد إلا الضغط والضغط فقط.. ولا مجالات أخرى للاحتواء والتنفيس. وهذا لا شك سيدفع البريئة إلى التضامن مع زميلتها غير البريئة لأن التفتيش منذ البداية وضعها في ذات الفريق. ولأنه لا مجالات متاحة لإثبات الاختلاف والتميز.

أما المعلمات فلا ينظرن إلى عملهن كمهنة، فكثيرات حولن المهنة إلى وظيفة يؤدنها كما يطلب منهن ويكتفين بهذا، والسبب هو أن المعلمة ليست معلمة لأنها تحب التدريس ولم تلتحق بهذا المجال لأنها تجرد في ذاتها رغبة صادقة في أن تكون معلمة للطالبات. ولا تستشعر السعادة أثناء أداء العمل لأنها تبني عقلاً وشخصية. ولا تراقب نمو هذا العقل وتلك الشخصية. أي.. لا تستمتع كل المعلمات بعملهن ولا تجرد كل المعلمات في أعماقهن الرغبة الحقيقية في "صناعة إنسانة" ولا يندفعن جميعهن كل صباح بفرح للقاء الطالبات وتعليمهن أشياء جديدة. كثيرات وجدن أنفسهن معلمات لأن كل واحدة منهن تريد وظيفة ولا خيارات أخرى أمامها، إما أن تكون في سلك التعليم وإما أن تبقى في البيت⁽¹⁾. وبهذا تزايد عدد الداخلات للتعليم وليست لديهن الرغبة لتعلم المهارات المطلوبة لجعل عملهن مهنة يحرصن على تطويرها والإبداع فيها. فتتأمل ذاتها وهي تغرس وتسقي غرسها على مدى سنوات.

(1) المجتمع لا زال يرى أن الوظائف الأخرى غير التدريس - كالتب والتمريض مثلاً - غير مقبولة تماماً إضافة إلى محدودية المجالات المسموح للمرأة العمل بها أصلاً. وبهذا أصبح الخيار الأكثر تحقّقاً هو التدريس.

ولهذا لا أستغرب كل تلك الواسطات والمحاولات المستميتة من أجل الحصول على عمل إداري أو إرشادي. ليس حياً في علي ولكن بغضاً لمعاوية.

يضاف إلى هذا أن الدراسة في كليات التربية لا يجعل المعلمة مدربة ومؤهلة بما يكفي لتكون ناجحة بالمعنى المهني الاحترافي. فتفشل المعلمة في تطبيق الجانب التربوي أكثر من فشلها في تطبيق التخصص الدقيق الخاص بها بعد التحاقها بالوظيفة لأن التعليم في الكليات بدأ ولا زال يستخدم طريقتين أرى أن أضرارها ستظل تلاحقنا سنوات طوال بعد إيقافها - لو تمّ الإيقاف يوماً - الأولى هي في استخدام دوائر التلفزيون المغلقة لتدريس الطالبات. فالمدرج يحتشد بالطالبات. والتلفزيون مفتوح وهذا كل شيء.

أما الطريقة الثانية فهي طريقة تلقي الحشو. أي الطالبة تتلقى فقط. وماذا تتلقى؟ الكثير مما ستملأ به كراس الامتحان فقط.

المعلمة داخل أسوار المدرسة وبرغم أنها لا تخرج من الباب إلا وهي ترتدي العباءة التي تغطيها تماماً والتي اشترطت التعميم أن تكون على الرأس. هذه المعلمة محاسبة بدقة على ما ترتديه أمام الطالبات. وكأن المدرسة ليست مكاناً معزولاً لا يراه الرجال. وقد تشربت المديرات والمعلمات هذا الفكر إلى أقصى الدرجات التي يمكن أن يتشرب فيها عقل الإنسان فكرة ما. فارتقت لديهن مسألة ستر المرأة أمام المرأة لتصبح في مصاف المسلمات "الإيمان".

وربما ليس هناك ما هو أدل على حرص المرأة على تنفيذ ما يريده الرجل من مبالغة بعض المديرات في تنفيذ ما يأتيهن من قرارات تخص ضبط المعلمات فيما يرتدينه. فإذا كان التعميم يأمر بالاحتشام داخل المدرسة مع أن الموجودات كلهن من النساء فإن الاحتشام كلمة مطاوعة وغير محددة. وهذا يجعل كل مديرة تفهمه وفق رؤيتها

ونفسيتهما وتجارهما. فتبالغ بعضهن مبالغة تضيق فيها على المعلمات وتشغلن بما لا معنى له.

نتيجة لما سبق - كما أرى - أصبح لدينا في تعليم البنات كثير من الشكليات وقليل من التعليم. وصارت كثير من المعلمات يلقين بالدرس على السبورة ويخرجن من الفصل. يصححن الدفاتر لأن المديرية أو المساعدة أو المشرفات سيحاسبنها على عدم التصحيح. ينظرن لعدد الأسابيع وعدد الدروس ويحرصن على إنهاء المقرر.. إنهاؤه معناه أن يقمن بسرد محتواه أمام الطالبات وكتابة ملخصاته على السبورة. يخططن الكتاب مع الطالبات لتحديد ما يجب حفظه وستأتي منه أسئلة الامتحان⁽¹⁾.

يضاف إلى كون المعلمة دون خيارات عندما بحثت عن وظيفة وصارت معلمة وجود بعض الإحباطات داخل المدرسة ذاتها كتمييز بعض المعلمات من قبل بعض الإدارات، وهذا التمييز ليس وفق مهارتهن وإبداعهن. والتمييز لا شك يخلق الكثير من السخط والتذمر والشعور بالانزعاج أثناء العمل. ويصرف الاهتمام إلى مراقبة كل تحركات تلك التي نالت رضا الإدارة دون أن تكون قدراتها في العمل هي سبب تمي.

(1) كثيرات هنّ المعلمات اللواتي يحددن للطالبات بوضع خطوط تحت النص المهم في الكتاب المدرسي. بهذه الخطوط يحدد ما يجب حفظه من قبل الطالبات. بشكل عام هذا هو التدريس عند بعضهن. إلى أي درجة يمكن أن تنمو معارف الطالبة بهذه الطريقة وإلى أي مدى تنمو لديها "الشخصية العلمية"؟ وإلى أي مدى يتم إدراك سبب التعلم؟. إنها بدلاً من أن تدرس لكي تتعلم وتصبح أكثر وعياً ونضجاً واطلاعاً. صارت تتعلم لكي تنجح في الامتحان لأنها حفظت من الكتاب ما تحته خط.

إصلاح التعليم

في التعليم الثانوي وبسبب كبر سن الطلاب يتدنى قدر المعلم عندما يعرف الطلاب أن المعلم لا يهتم بهم بنفس القدر الذي يهتم براتبه.

منذ فجر التاريخ وإلى الآن ليس في الدنيا نبي ولا مصلح نجح في التغيير لمجرد أن ما جاء به منطقي ويقبله العقل أكثر مما يعتقده الناس، فكل الحجج والبراهين تسقط أمام قوة الاعتقاد بصحة ما اعتاد عليه العامة. وكل الأنبياء والمصلحين يأخذون الكثير من الوقت لإيصال الرسالة أو لتحقيق بعض الإصلاح.

الناس تألف ما هي عليه وتقاوم الإصلاح حتى وإن كان في صالحها. وهذا ما حدث عند البدء الحديث عن إصلاح التعليم. وبعد مرور الوقت بدأ الوعي بضرورة الإصلاح يأخذ في الانتشار، وإن كان لا يزال انتشاراً محدوداً.

تدور الأحاديث عن الإصلاح في التعليم في مسار واحد وهو تغيير المقرر المدرسي. أو إدخال بعض التعديلات عليه على أقل تقدير. لا شك أن هذا جانب هام جداً في عملية الإصلاح. لكن هذا وحده لن يكون ذا أثر كبير وواضح. وذلك لوجود مقرر آخر إلى جانب الموجود في الكتاب المدرسي يتم إشغال كثير من وقت الحصة والأنشطة اللاصفية به. وهذا المقرر الموازي للمقرر الرسمي ليس له إطار محدد وواضح لأنه موجود في رأس كل معلمة حسب مدى تغلغل الثقافة الشعبية فيها ومدى استسلامها لأيديولوجيا معينة تستند في صحة ما لدى التابع لها على تخطيط

الآخر. والآخر قد يكون من المسلمين أو غيرهم. والتخطئة تشمل جميع جوانب الحياة.

هذا المقرر الموازي للمقرر الأصلي يدخل ضمن ما يُدعى إدعاءً "أنها تربية. ولهذا أرى أن لا يكفي بتغيير المقرر أو تعديله. بل بتعديل المنهج كاملاً. هذا جانب أما الجانب الآخر. فيتمثل في وجود حدود واضحة داخل المدرسة بين التربية والتعليم. بحيث ينصب التعليم على إكساب الطالبة مهارات ومعارف مخطط لها سلفاً تختص بالمادة العلمية المعطاة من قبل المعلمة والتي يتضمنها الكتاب المدرسي بتجرد تام. لتكون الفيزياء الفيزياء وليست فيزياء وفقه أو حديث مثلاً. وقواعد اللغة العربية قواعداً للغة العربية وليست قواعد ضمن حكايات عن أشخاص أو أحداث تاريخية يتم تصويرها كيو تويياً ملائكية. وتكون معلمة المادة معلمة للمادة. وليس لها أن تجبر طالباتها على اتباع مدرسة فقهية معينة دون أخرى في الأمور الخلافية. وليس لها أن تجبرهن على ما تراه صواباً وفقاً لعرف أو تقاليد. وهذا يعني:

أولاً - أن تنشغل الخمس وأربعون دقيقة المقررة كمدة زمنية للحصة الواحدة بالدرس المعطى. أو بما يدعمه ضمن المادة ذاتها من بحوث وقراءات وتلخيص وحل للتدريبات وزيارة لمكتبة المدرسة ومشاهدة للأفلام الوثائقية الخاصة بالمادة... إلخ.

ثانياً - أن تتوقف المعلمات عن الانشغال بالشكليات فتعطي درسها دون أن يثير غضبها طول أو قصر شعر الطالبة أو أن تهدر الوقت لتتأكد من أن لون عين الطالبة طبيعياً أم أنها ترتدي عدسة ملونة... إلخ من الأمور التي قيدت عقل الكثيرات في التعليم.

ثالثاً - أن تتوقف الانتهاكات التي لا تحصى ضد الطالبات بسبب الخلط بين معنى "سلوك الطالبة وشكل الطالبة" فالمدارس لا تفرق بين الشكل والذي يدخل فيه طول وقصر القامة ولون البشرة

ولون وشكل الزي الذي نرتديه ولون صبغة الشعر... إلخ وبين السلوك والذي يستلزم عدم تحطي حدوداً معينة من التهذيب واللياقة والآداب العامة.

رابعاً - أن تدرك المعلمة مهامها الموكلة إليها والمتمثلة في التمكّن من المادة العلمية والتمكّن من تحريك العقل أثناء التدريس وذلك بالتخطيط للدرس بالطريقة التي ينتفي معها التلقين. وترتقي بعقل الطالبة إلى المستويات العليا من الهرم المعرفي. وننتهي في أقرب وقت من التدريس على طريقة "عربي - عددي - اذكري - احفظي - سمعي... إلخ".

ولتحقيق ما فات يجب أن تأخذ المعلمات دورات تدريبية مكثفة في طرق التدريس والإدارة الصفية. تمكنهن من أداء واجبهن باحتراف. والاحتراف لا يتم دون تدريب مستمر ومكثف. إلى أن يصل أداؤهن إلى التلقائية الواعية.

إن التلقائية في الأداء تعني أن تكون المعلمة ملمة ومتدربة بشكل عال أوصولها إلى حضور وسرعة البديهة في حل المشكلات وإدارة المواقف دون عناء استحضر ما تعلمته. ودون تحبط ومزاجية وانفعال.

على أن قصة التدريب في المنطقة الجنوبية تحديداً تطول لو أفردت لها الصفحات وأكتفي هنا بالإشارة إلى أنه يجب إعادة النظر في كيفية التدريب ومعناه وأهميته. وعدم الركون كثيراً لمسألة الخبرة في الترشيحات وتقييم الأداء الوظيفي. وأذكر هنا ما يروى عن أحد الموظفين أنه قال لمدير الشركة التي يعمل بها: كيف تعطيني درجة منخفضة في تقييم أدائي الوظيفي وأنا لي خبرة طويلة تجاوزت العشرين سنة. فقال له المدير بكل هدوء: ليس لديك خبرة عشرين سنة، إن خبرتك سنة واحدة تكررت عشرين مرة.

إن الهدف هو أن تنصرف المعلمة بكل طاقتها وإمكاناتها إلى التعليم. وتترك التربية التي لم يحدد معناها في أذهان المعلمات والهيئة الإدارية بوضوح ولم تحسن توظيفها، لمتخصصات أخريات. إلى أن يتم استيعاب الأساليب التربوية الجيدة. وهذا لن يتحقق سريعاً والأخريات اللواتي أتمنى أن يصبحن متخصصات في المجال التربوي أكثر هن المرشدات.

دور الإرشاد في التربية

التعليم لا يعني تعليم الصغار ما لا يعرفونه، إنه يعني تطوير عقولهم لتصبح راغبة في المعرفة.

كثيرات هن اللواتي أرهقهن التحضير والتدريس فبحسن عن واسطة هنا وأخرى هناك ثم تحولن إلى أي عمل آخر داخل المؤسسة التربوية التعليمية غير التدريس. ومن أولئك المرشدة المدرسة. أو ربما تمّ ترشيح إحداهن للإرشاد لسدّ العجز، أو لوجود زيادة في تخصص ما دون غيره. وبهذا فالمرشدة كالمساعدة. ليس من الضروري أن يكون قد تمّ اختيارها وفقاً لكفاءتها.

وترى بعض المعلمات أن المرشدة تأخذ ذات الراتب. ولا تعاني من إعداد الدروس والوسائل ولا من الوقوف في الحصص ومواجهة الطالبات... إلخ مما تنذر منه المعلمة وغيرها لا يعانينه.

لم يكن الترشيح للإرشاد وفق معايير تهم بوجود تخصص دقيق لدى المرشحة في هذا الجانب الهام من العمل المدرسي. ولا أرى أن في مقدورهن أداء ما عليهن بشكل صحيح وسليم ما لم يتم تأهيلهن له، فيما عدا ملء السجلات والملفات بالبيانات الخاصة بالطالبات. وهذه الأعمال الكتابية يحسن أداءها كل من تدرب عليها تدريباً بسيطاً ولو لم يكن من حملة الثانوية العامة أو ما دونها. أما الدخول في صميم العمل الإرشادي لمواجهة واقع الطالبات والتمكن من إيجاد الحلول المناسبة لمشاكلهن التي تتعدد بتعدددهن، والقدرة على الاستعانة بمنجزات علم النفس والتربية لتغيير سلوك معين عند الطالبات أو ترسيخ قيمة ما لديهن فهذا ما لم ألاحظه حتى الآن. والذنب ليس

ذنب المرشدة، بل ذنب الذين لم يأبهوا لتأهيلها تأهيلاً حقيقياً لهذا العمل. وعليه أرى أن يتم إجبار المرشديات في جميع المدارس على دراسة الدبلوم التربوي حتى وإن كن خريجات كلية التربية على أن تشتمل مقررات الدراسة نظريات التربية وتطور الفكر التربوي وعدد من العلوم الأخرى التي تصب في ذات الهدف كالصحة النفسية وعلم نفس النمو وغيرها. ويضاف إلى ذلك دورات مكثفة في جانب الإرشاد المدرسي. وبعد هذا يوكل إليهن الإرشاد بحيث يصبح الجانب التربوي في المدارس من شأنهن وداخل دائرة اختصاصهن.

أما بقاء الإرشاد في المدارس ارتجالياً - تقريباً - وتخطب الموكل إليهن أداؤه وارتكازهن على خبراتهن الخاصة - وليس إلى العلم - في مواجهة المواقف العديدة التي تدخل ضمن دائرة عملهن، فهذا لا شك يولد مزيداً من المشكلات ولا يحلها.

والمشكلة ليست في عدم تأهيل المرشديات في المدارس فقط. بل فيما يتلقينه من أنظمة ولوائح لضبط سلوك الطالبات، والتي لا يستطعن نقدها أو تجاهلها.

ومن تلك الأنظمة "كتيب قواعد تنظيم السلوك والمواظبة لطالبات مراحل التعليم العام لعام 1425هـ" والصادر من الإدارة العامة لتوجيه وإرشاد الطالبات والساري المفعول إلى اليوم، أورد مستويات مختلفة للمخالفة تحت عنوان - تصنيف درجات المخالفات السلوكية حسب حدتها - وجاء التنظيم حسب الكتيب بالأسهل فالأصعب. بحيث تكون مخالفات من الدرجة الأولى أقل شأنًا من مخالفات الدرجة الثانية وهكذا.

بعض المخالفات مذهلة، ليس استناداً على ما أرصده داخل المدرسة وحسب. ولكن استناداً أيضاً على قراءته في هذا الكتيب الموزع في كافة مدارس تعليم البنات والساري المفعول. وبنقطة أقول:

تتضمن أنظمة تعليم البنات ما يؤدي بالطالبة إلى عدم التوازن والاستقرار النفسي للطالبة. إذ إن النظام يجوي مخالفة سلوكية تحت عنوان "مخالفات من الدرجة الثانية" هي - الضحك العالي - ولم يحدد البند كون الضحك في ساحة المدرسة أو في الفصل. فإذا روت الطالبة فلانة لصديقتها علانية طرفة أثناء الفسحة وضحكت الطالبة بحيث سمعتها أي معلمة أو إدارية، فإن الطالبة وبجسب النظام تعد قد ارتكبت مخالفة سلوكية من الدرجة الثانية.

تم وضع المخالفة "إهمال أداء الواجبات المدرسية" ضمن مخالفات الدرجة الأولى. أي أنها مخالفة بسيطة مقارنة بالضحك.

هل من المقبول أن يكون الإنسان قد ارتكب مخالفة سلوكية لمجرد أنه ضحك بصوت مسموع؟ لا أظن أن تشريعاً كهذا يمكن أن يكون ضمن لوائح تخص الرجل. وللحق فأنا حتى في داخل الفصل أسمح بالضحك، وأحرص على خلق الأجواء المرحية قدر الإمكان. فهل على المسؤولين اتخاذ إجراءاتهم ضدي كوني لا أجرم الضاحكات وحسب، بل أسعى إلى بث روح الدعابة بينهن.

وفي ذات الكتيب تم وضع مخالفة "الغش في الواجبات" و"تزوير توقيع ولي الأمر" و"امتهان الكتب المدرسية أو الوسائل التعليمية" و"الشجار والتلفظ بالألفاظ نابية" ضمن مخالفات الدرجة الثانية. أما مخالفات الدرجة الثالثة والتي تعد أصعب من التزوير والغش وأخطر من التلفظ بالألفاظ النابية فهي "النمص". و"قصص الشعر المشابهة لقصص الذكور والصبغات الغريبة".

وهذا يعني أن من وضع هذه الأنظمة وعممها على كل مدارس تعليم البنات يرى أن الغش والتزوير أمران هينان لا يرتقيان إلى مستوى الدرجة الثالثة، وأن النمص وطول الشعر أو قصره ولونه تأخذ أهمية قصوى إن حدثت. ويمكن لنعرف كيف تم قلب الأمور

غلى هذه الدرجة الرجوع إلى عنوان - اجترار التراث في هذا الكتاب - من خلال الأمثلة السابقة نلاحظ بجلاء الخلط بين الشكل والسلوك. وبين ترتيب الأهمية. فالشكل يتداخل مع السلوك. ويصبح أهم - في نظر معد أو معدة الكتيب - من السلوك. لذا فقد وضع لون وشكل الشعر والحاجيين ضمن المستوى الثالث. على أن قص الشعر بشكل قصير ليس بالضرورة تشبهاً بل قد يكون اضطراراً من بعض النساء. وما أكثر اللواتي يتمنين الشعر الطويل. أما الغش والتزوير فهما أقل خطورة لذا بقيا في المستويين الأول والثاني. وهذا يوضح كيف تقلب الأولويات من أعلى الهرم الإداري في التعليم وتصل إلى قاعدته. فيتعلم الجميع أن القيم والأخلاقيات شيء تافه مقارنة بشكل الإنسان وما يرتدي الإنسان.

ونأتي إلى الشكل الذي ظل مؤرقاً لكثيرات جداً من المشتغلات بالتعليم، في ظنّ منهن أن كل تغيير عن المألوف يعني تشبهاً بالرجال. إن العبادة - على ما لها من مكانة في مجتمعنا تصل حدّ الإيمان - ليست سوى بشت "مسلح" يرتديه سكان الصحراء في سالف العهد. ولا زال البشت الذي يرتديه الرجل الآن شبيهاً بالعبادة التي ترتديها المرأة. فهل يدخل هذا ضمن التشبه من أحد الطرفين بالآخر؟ بل إن الرجل والمرأة في الماضي كانا يتبادلان ذات العبادة فتلبسها المرأة حيناً ويلبسها الرجل حيناً آخر. كذلك فإن ثوب الرجل ذاته يشبه "المقطع" الذي ترتديه النساء في الماضي. ويعلم كثيرون أن الرجال في الماضي كانوا يطيلون شعورهم. بل إن بعضهم كانت له ضفائر يجدها كالمراة تماماً. وفي حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضرب شعره منكبيه)⁽¹⁾. ليس

(1) صحيح البخاري، كتاب اللباس.

الرسول صلى الله عليه وسلم وحسب من يطيل شعره بل كثيرون من المسلمين والمشركين على حد سواء. فهل انتقص هذا من رجولة أحدهم؟ وهل إذا أطالت النساء شعرها الآن صرن متشبهات برجال من الماضي؟ وكما يعلم كثيرون أيضاً أن التنورة المثناة من عند الخصر لباس شعبي في بريطانيا للرجال. فهل إذا لبست المرأة هنا التنورة المثناة من الخصر كانت متشبهة بالرجل هناك؟ كما أن الرجل في قبائل الطوارق يجب أن يخفي وجهه فلا يُظهر إلا عينيه. أما المرأة فهي سافرة الوجه. فهل تشبه المرأة إذا غطت وجهها في السعودية برجال الطوارق الذين يخفون وجوههم؟ وهل يتشبه الرجال عندنا بالنساء في كل العالم لأن النساء والرجال يظهرون وجوههم؟!

إن النظر من زوايا ضيقة هو ما يربك الناس ويخفق تحركاتهم. ثم يجعلهم بعد ذلك لا يدرون في أي الطرقات يمشون. وكان الأولى بدلاً من التركيز على الشكل وإقحامه إقحاماً في أمر السلوك أن يركز المعنيون على القيم التي تشكل الإنسان وتحدد شخصيته. وليس على الشكل الذي يمكن أن يغيره إذا تخلص من سيطرتهم عليه.

الدين الإسلامي عندما أكد على عدم تشبه الرجال بالنساء وعدم تشبه النساء بالرجال كان يؤكد على احتفاظ كل جنس بطبيعة تكوينه الجسدي الذي خلقه الله عليه فلا تحدث علاقات شاذة بين ذات الجنس يلعب فيها أحد الطرفين المتماثلين دور الذكر والطرف الآخر دور الأنثى. إن هذا الشذوذ هو المحرم والمنهي عنه وليس مجرد قص أو إطالة للشعر. وبعض النساء لا يتجاوز طول شعرها السنتمرات القليلة ولديها من الأنوثة ما يفوق ذوات الضفائير المسدلة. وبعض الرجال يصل شعر رأسه إلى ما بين كتفيه. ولديه من

الرجولة ما يفوق عصبية من الرجال. ويكفي أن نتأمل مصارعاً من ذوي الشعر الطويل. ثم نتساءل عن أثر طول شعره في ميله إلى شكل النساء. وأن نتأمل أيضاً الكثيرات من ذوات الشعر القصير من مذيعات الأخبار على شاشات الفضائيات ونتساءل عن أثر قصر شعرهن على تشبههن بالرجال. إن شعرهن القصير جعل منظرهن أنثوياً جداً ولم يقل أحد من المشاهدين أن المذيعة فلانة أو علانة تشبه الرجال.

أين يمكن أن نتعلم الحرية؟

إذا لم يكن الإنسان متمدناً تظهر غرائزه في سلوكه بشكل جلي وفاضح.

إن أسوأ ما قد تعانیه امرأة في مجتمعنا هو عندما لا تدرك أن نظامها الحياتي يحتاج إلى إصلاح. ولا ترى أن في وضعها القائم أي تعدد على آدميتها. لقد وصلت كثير من النساء إلى حدّ عدم القدرة على نقد الواقع وبالتالي فقد وصلن بهذا إلى مستوى غير طبيعي - فيما أرى - من عدم الشعور بالظلم. وكل ما تعيشه النساء من تعدد على حقوقهن وكرامتهن يدخل في اعتقادهن فيما قدره الله تعالى عليهن. وأرى أن تلك مسؤولية رجال الدين الذين لم ينشغلوا كثيراً بتوضيح الأمور التي يكون فيها الإنسان مسيراً. وأنها محدودة جداً. وبين الأمور التي يكون فيها الإنسان مخيراً كل التخيير. ومسؤوليتهم أيضاً أن لا يسمحوا باستمرار اللبس عند الناس بين المكروه والحرام. أو تحريم الحلال.

وإذا فهم الإنسان - أنثى وذكر - معنى الحرية وتمكن من التخلص من هيمنة ظلام الحتمية والجبرية. وإذا خلص نفسه من حب التسلط. وإذا تدرب على تبني المواقف الحيادية قبل أن يحكم على المواقف والأفكار والأشخاص، إذا تمكن من الوصول إلى هذه الحالات الثلاث أدرك أن وجوده في الأرض مع آخرين غيره وهذا الإدراك يجعله كائناً مسؤولاً يفهم ما حوله ويعرف إلى أين تمتد حدوده وأين تقف. متمكناً من الحكم على المواقف والأشياء بموضوعية وتجرد.

إن تعلم معنى الحرية يتداخل مع جذور تشكيل الأخلاق في داخل الإنسان منذ طفولته. ذلك التشكيل الذي تسهم الممارسات التربوية في إحداثه. ويسهم المنزل والمجتمع بكل تراثه وتاريخه فيه أيضاً وبقوة قد تفوق قوة المدرسة أضعافاً مضاعفة.

ومشكلتنا الكبرى - كما أراها - أن التعدي على الآخر، وعلى المرأة بشكل خاص وتجاوز الحدود معها سواء من قبل الرجل أو من قبل امرأة أخرى يأتي باسم الدين. وذلك برفع الخلافي في الدين إلى مستوى القطعي ثم التأكيد على أن بعض الناس وكلاء عن الله في الأرض. أو مسؤولون معه سبحانه وتعالى في محاسبة الناس على أفعالهم. وهذا غلو في الدين. مع أن الاعتدال والوسطية هي ما يردده المغالون. فليتهم إن كانوا وسطيين كما يدعون في كل محفل أن يخبرونا، من هو المغالي إذاً وبماذا يقول؟ أين هم المغالون؟ وأين هو المجتمع المغالي في الدين إن كنا وسطيين؟

لو أن الطالبة في المدرسة شريكة في العملية التعليمية. لا متلقية للمعلومات والتعليمات والأوامر. فإنها تتعلم - بشكل غير مباشر - شيئاً عن معنى الحرية. وكثير من الاستقلال بالرأي والقدرة على التعلم والرقي بالفكر والثقافة. إذ إن لها أن تبحث⁽¹⁾ وتبني ذاتها بنفسها.

لو أن آراءها لا ترفض بشكل فج وقامع. ولو أن حواراتها تأخذ على محمل الجد مهما كانت وتستقبل بصدر رحب وتناقش بموضوعية لشعرت بالحرية واستمرت في المشاركة الفاعلة. ولعرفت أنها كائن يمارس فاعليته. وله حدود تحترم من قبل الآخرين، حتى وإن كان هؤلاء الآخرون أكبر منها سناً أو مقاماً. وبهذا تصبح الطالبة

(1) المكتبات المدرسية - فيما أرى - تحتاج إلى هدم وإعادة بناء.

قدرة على إعادة تكوين وتشكيل أفكارها. وهذا ما سينعكس على شخصيتها كإنسانة مستقلة وعلى فكرها كمتعلمة تساهم في تطور وعيها وثقافتها.

لو أن الطالبة تحاسب على التقصير الفعلي أو التعدي الحقيقي وفق نظام مكتوب وواضح بشكل جلي ومعلن. بشرط أن يكتبه المهتمون بالتربية والمتخصصون فيها فسوف تدرك معنى "حرك يدك كيفما تشاء ولكن لا تفقأ عين أحد".

إحدى مشاكلنا في تعليم البنات - كما أراها بوضوح - تكمن في أن من كتب التعاميم القديمة السارية المفعول حتى اليوم ليس تربوياً يعي ولو بعض نظريات التربية، إنما هو متعد على التربية. يحفظ جيداً العبارة الشهيرة - لكم اللحم ولنا العظام - فأقحم ذاته في مجال تعليم وتربية الطالبات وشرّع القوانين وفرضها. فأدت النتيجة إلى وجود تشوهات عديدة وكبيرة في نفسيات الكثيرات وحياتهن.

عندما تكتشف كل طالبة منذ اليوم الأول لها في الدراسة أن من حق أي موظفة في مدرستها أن تجر الرباط الملون الذي جمعت به أطراف شعرها جراً، مجرد أن ألوانه لا تروق لتلك الموظفة. وأنها كطالبة يجب أن تصمت أمام هذه التصرفات مهما تعددت وتنوعت، فإنها لا تعود تميز بين ما لها وما عليها. وقد تكتشف مع تكرار التجارب معها ومع زميلاتها أن ما لها يوازي صفر وأن عليها كل شيء. بالمقابل، تفعل المعلمة ما تفعله بطريقة انتقامية أو تسلطية. أو لإثبات الحضور الذي تمّ إلغاؤه لسنوات وسنوات. وربما كان هذا الحضور الذي تريد إثباته مغيباً في المنزل. أي أنها تعاني من القمع والاضطهاد خلف أسوار المنزل الذي تسكن فيه. وعندما تخرج إلى العمل تطبق المقولة الشهيرة: من ظلم يظلم.

إن جرّ الشريط الملون الذي تربط به الطالبة شعرها لا يحدث لأن هذا اللون قد يقف حاجزاً بينها وبين فهم مادة ما. إذ لم يثبت علمياً علاقة ألوان ربطات الشعر بتدني القدرة على الاستيعاب. هذا الشريط مجرد مثال على صرامة المدرسة مع الطالبات. تلك الصرامة التي أتساءل بسببها كل يوم في الطابور الصباحي. هل أنا في مدرسة لتعليم البنات أم أني في ثكنة عسكرية!

هذا جانب يتعلق بتكوين الشخصية وما تنطوي عليه من قيم تسهم المدرسة كمؤسسة في تشكيلها. إضافة إلى ما تؤدي إليه طريقة التدريس ذاتها لدى الطالبة من حالة ركود وسكون وتوقف عن المشاركة الفعلية في العملية التعليمية مكتفية بالتلقي.

خاتمة

عندما تكون في نهاية الحبل، اربط عقدة وتعلق بها.

منذ عشرين عاماً مضت داعب خيالي حلم المساهمة في النهوض بالمجتمع النسائي، المشاركة في العمل على الإصلاح، ترسيخ مفهوم الحرية، تمجيد العلم، تحطيم الأغلال التي كبلت المرأة وحرمتها من القدرة على إثبات الوجود.. من القدرة على التفكير بوضوح.. من القدرة على اتخاذ القرار.. حرمتها من القدرة على إدراك واقعها الذي تعيشه. فما أكثر اللواتي يؤكدن لي بأن حياتهن طبيعية برغم ما فيها من اضطهاد أو شك أن ينفيهن إن لم يكن قد فعل.

وكنت حينها على يقين أن المدرسة هي المكان الأمثل لصنع الشخصية المتوازنة المستقلة ذات الاطلاع الواسع والثقة العالية بالنفس. وبعد انقضاء كل تلك الأعوام وما مررت به من تجارب ومواجهات واتهامات. أدركت أن حماس الشباب هو ما كان يصور لي أن بإمكانني مواجهة الطوفان. طوفان الأدلجة التي تجعل العقل غير قادر على التفكير إلا من خلال تلك الأيديولوجيا.

كل صباح يجتاحني حزن عميق لم أتمكن من الاعتياد عليه. لأنني كل صباح أرى الكثير من الانتهاكات التي تدل على عدم احترام الطالبة بمجرد دخولها بوابة المدرسة. ولا أحد يتفق معي في محيط عملي بأن ما أراه يعد انتهاكاً لحرية الطالبة. بل لا أحد يرى معي في محيط عملي بأن للطالبة حرية يجب أن نقف عند حدودها وأن لا نتجاوزها.

أدركت الآن أن أجيالاً بعد أجيال ستأتي وتذهب قبل أن
يتحقق ذلك الحلم القديم. لهذا أقدمت على تسجيل بعض ما أرى أن
علي تسجيله في كتابي هذا على أمل أن تسهم كتاباتي في إضاءة
المواقع المعتمدة في مجتمعنا.